

احمد اسامة

رواية

حفلة دم



للمزيد من تحميل الروايات و الكتب زوروا موقعنا من
الرابط التالي :-

www.rwaiaty.com

و تفضلوا بزيارة جروب الفيس بوك الخاص بنا (جروب
رواياتي)

من خلال الضغط علي الرابط التالي :-

<https://www.facebook.com/groups/Rwaiaty/>

كما يمكنكم متابعتنا ومراسلاتنا علي الصفحة الرسمية
علي الفيس بوك

من خلال الضغط علي الرابط التالي :-

<https://www.facebook.com/Rwaiaty.Rwaiaty/>



للمزيد من الكتب والروايات الحصرية
انضموا ل جروب رواياتي
fb/groups/Rwaiaty

حفلة دم

الكتاب: حفلة دم
الكاتب: أحمد أسامة
تصميم الغلاف:
تدقيق لغوي:
رقم الإيداع:
الترقيم الدولي:
الطبعة الأولى: 2017

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 011 27772007- 02 35860372
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر



أحمد أسامة

حفلة دم

رواية

للنشر
والتوزيع



للمزيد من الكتب والروايات الحصرية
انضموا ل جروب رواياتي
fb/groups/Rwaiaty

إهداء

إلى زهرتي عمري جنى وجاسمين، لا أذكر كيف كانت حياتي قبلكما ولكنني متيقن بأنها لم تكن أبداً بهذا القدر من الجمال.
أسأل الله أن يسعدكما وأن يديم سعادتكم بكما.



للمزيد من الكتب والروايات الحصرية
انضموا ل جروب رواياتي
fb/groups/Rwaiaty

إهداء.. إليهم..

إلى من اقتربوا ولم ينالوا، إلى من ذاقوا ولم يرتقوا، إلى من آمنوا ولم
يسلّموا إلى من أوفوا ثم خاؤوا، إلى من ذابت بسمتهم على شفاهم وضلت
الطريق إلى قلوبهم، إلى من احتبست الدموع في عيونهم، ووقفت الكلمات
في حلوقهم..

لكم أتم هذا العمل.



للمزيد من الكتب والروايات الحصرية
انضموا ل جروب رواياتي
fb/groups/Rwaiaty

أما أنت الرجوع لا تفكر فيه
لا تحن إلى مصير أسهل من هذا بكثير
قدماك فوق أرض لم تُطرق من قبل
عينك في مواجهة ما لم تره قط

لويس ثيرنودا



للمزيد من الكتب والروايات الحصرية
انضموا ل جروب رواياتي
fb/groups/Rwaiaty

(1)

عاصم

(مارس 2015)

مريـر هو الواقع وساخـر في نفس الوقت، لقد جبتُ بلدان كُثر طولاً وعرضاً وتنقلت بين قارات العالم أجمع، لكنى لم أتصور أبداً أن تكون النهاية على سطح واحدة من الجزر التى لم أدْرِ لها مكاناً أهى فى المحيط الهادى أم الأطلسى أم وسط أحد البحار فى أحد بقاع الأرض، أم أنها لا تمت لعالمنا بصله؟ اسمها لا يهم ولا أعرفه على أية حال، كل ما أعرفه أنها غير خاضعة لأى قانون، خاضعة لحكم ذاتى من سكانها، هنا تغفل عنك عيون العالم بضمير مرتاح سواء كان عن جهل أو عن قصد فالنتيجة واحدة، لا أدرى كيف حدث هذا، لكنها أغرب ما سأشـهده قبل موتى، لا أمل فى الخلاص ولا أثر لنجاة تلوح فى الأفق فى هذا الظلام وأنا محاط بهذا الكم من الحراس وهذا الكم من القضبان، بالطبع لم يدُر بخلدى وأنا المصنّف كواحد من أمهر القناصين العسكريين خدم وطنه سنوات طوال أن ينتهى بى المطاف داخل أحد الأقفاص الحديدية المترصة جنباً إلى جنب على كلا الجانبين يميناً ويساراً فى رواق واسع أبعد ما يكون عن النظافة، لم أحصها ولكنها تقرب من عشرة أقفاص

بكل جانب، يفصل بين كل قفص والتالى جدار أسمتى قوى، يمكننى الجزم بأن الثلاثة أفاص التى تقع أمامى فارغة بينما على يمينى ويسارى هناك سجناء مثلى على الأقل خمسة من جنسيات مختلفة، أسمع أصوات فتح الأبواب وغلقتها، حيس أنا فى قفص لا تتجاوز مساحته ثلاثة أمتار فى ثلاثة أمتار كحيوان بائس بحديقة حيوانات يشاهده الجمهور ويُقدم له ما يقيه فقط على قيد حياة موحشة ترفع عنها الكلاب، قفص يلفه ظلام مدلم اتخذ من المكان مستقرًا ومقامًا طوال ساعات الليل فقط يقطعه بصيص من ضوء فى ساعات النهار عبر فتحة فى الجدار على ارتفاع 6 أمتار أو يزيد أو مع دخول الحارس من باب عملاق بفتات طعام لا طعم له إلا كريبه أو ليملاً الإناء القذر بقليل من ماء، عبر مشاعل معلقة على الجدران تشعر كوكأنك عدت ثلاثمائة عام للوراء. أذنى هنا لا تلتقط سوى ديبب خطوات الحراس وصرير أبواب وخشخشة مفاتيح، ودقات قلب يعمل فى رتابة تغمره لا مبالاة وبعض كلمات حانقة وصرخات من الأفاص المجاورة بلغات لا أفهمها.

فهنا يحوى كل قفص مجرمًا آثمًا تم اصطياده من بقعة ما من العالم ليكتمل فريق من المجرمين الخطاة سيلقى كل منهم عقابه بطريقة عجيبة لم تحظر له بيال، لذا فسيتيم زجى بعد ساعات داخل حلبة قتال معصوب العينين مقيدة يُسراى بسلسلة معدنية لا يتجاوز طولها المترين تربطنى بخصم أجهله تمامًا عليّ مواجته داخل حلبة مغلقة لا فكاك منها، لا أدرى من هو ولا كيف تبدو هيئته ولا ما هى جريمته؟! ولكنه سيكون حتمًا معصوب العينين مقيدًا مربوطًا بنفس السلسلة لمواجهتى، على الأرجح هو مجرم من وجهة نظرهم ارتكب ما يستوجب دخوله الحلبة، بعد هذا

اللقاء أحدنا فقط من سيغادر الحلبة حيًا، ستتقاتل حتى يسقط أحدنا صريعًا يلفظ أنفاسه الأخيرة ويلفظ قبلها الكثير من الدماء وتغادر روحه جسده، نهاية سيئة على أحدنا أن يلقاها، ما أصعب أن تغادر الحياة بعيون لا ترى عقب علقه موت، نهاية أسوأ مما لاقاها مصارعو روما القديمة، ربما هذه هى دقائقى أو ساعاتى الأخيرة، حقيقة لا أدرى كم هو الوقت اللازم لإنهاء حياة إنسان ضربًا بالأيدى ولا مقدار الألم الناتج عن ذلك، لا بد أنه مقدار عظيم يجبر روحك نفسها على الفرار. ليس لدى علم إن كان هناك مزيد من الأقفاص فى أروقة أخرى غير ذلك الذى يحتوينى، حتى الأقفاص التى فى الجوار لا أتبين كم منها شاغر أو كم منها مسكون، ولكنى أسمع أصوات أقفال تفتح وتغلق، لا بد أن هناك كائنات حبيسة مثلى فى الجوار يُقدم لها الطعام وتتنظر مصير مشابه. وعلى الأرجح خصمى موجود هنا يُمنى نفسه بقتلى من أجل مزيد من الساعات تحمل له مزيد من المعاناة.

الرائحة هنا قذرة للغاية، رائحة العرق تختلط بروائح البول والبراز، حيث إن هذا القفص هو حيزك المسموح لك فيه بكافة العمليات التى يارسها جسدك بشكل أوتوماتيكى، وبرغم اعتيادى لهذه الرائحة إلا أن مجرد تذكرها يهيج حواسى من جديد، تُرى ماذا تحمل لى الدقائق القادمة؟ أو بصيغة أخرى ما الذى أتمناه لنفسى فى الدقائق الأخرى؟ مئة مؤلمة والتخلص من هذا العذاب الذى يبدو بلا أمل فى الانقطاع أو التوقف، أم الاستمرار فى هذا الكابوس فى انتظار مزيد من الأهوال، عسير تقبل فكرة أن أترك نفسى للموت مهما بدا القادم أسودًا خاصة وأنا متأكد بأن نهايتى هذه ستكون على يد مجرم لم أعرف بعد جريمته، بالطبع جريمته ليست هينة،

ولكنها من النوع الذى يستوجب وجوده هنا، لابد أنه متحفز لقتلى، على الأغلب هو رجل بلا قلب، الموت هو آخر ما يجول بخاطره قبل قدومه هنا، متيقن أنا من أنى لن أغادر هذا القفص إلا لقبرى سواء كان حفرة فى الأرض أو فى قاع المحيط ، لطالما كان الموت أمر غير مستبعد فى كل مهمة شاركت فيها، لا أدرى هل سأعود أم لا، أودع أمى وزملائى قبل كل عملية وداعاً قد يكون أخيراً، وفى السنوات الأخيرة التى تسبق وجودى هنا كان الموت يحوم حولى فى اشتهاء حاصداً أكبر قدر من الأرواح، أوقاتاً جنونية عشتها، جثثاً بالعشرات تناثرت حولى شيوخ ونساء وأطفال، كنتُ مهدداً فى أى وقت بتلقى رصاصة تودى بحياتى، كنتُ مهيباً تماماً لذلك، بل إنى تعجبت مراراً من تأخر موتى، كل ما مررت به من قبل جعلنى متقبلاً لفكرة الموت كما يتقبل الطفل غضب أمه، لم أكن أعلم بأن هناك ميناء آخر بعيداً استرسو عنده سفينة عمرى للأبد، فقط كنت أمل فى ميتة سريعة لا يسبقها كثير من الألم.

كانت حياتى سلسلة من المرتفعات والمنحدرات حتى سقطت فى بئر عميق ظننته سيشهد نهايتى. ولكن البداية كانت قبل ذلك بقليل. كل المأسى بدأت بمقتل المقدم يحيى، كان أقرب الرجال لقلبى، فلطالما عشت بدون والد وبدون إخوة وحتى بدون أصدقاء، لقد رحل والدى مبكراً وأنا طفل، لا أذكر كثيراً من ملامحه إلا من خلال الصور، نشأت وحيداً مع أمى وترعرعت فى كنفها وأحاطتنى بحنانها ورعايتها حتى جعلت منى رجلاً يرتدى بذلة عسكرية يهابه الجميع ويقلبه ويوقره الكبير قبل الصغير، كنت مثلاً بين أقرانى للالتزام والانضباط وهو ما جعلنى محظياً لدى رؤسائى.

لقد منحتنى الأقدار بصراً حاداً وكأنى استعرتة للأبد من عيني صقر، أثناء الدراسة كنت الأول دائماً في مسابقات الرمي، نياشين عدة وأوسمة حصلت عليها ومديح صار ينهال علي من المحيطين حتى بت واحداً من أشهر الفناصة وأكثرهم مشاركة في عمليات واسعة داخل وطنى وخارجه، عشت بلا أصدقاء تقريباً حتى قابلته، كان منقولاً حديثاً من القاهرة واشترك معنا في أولى عملياته، عرفته مقاتلاً بارعاً يتمتع بلياقة بدنية هائلة وعزيمة وإصرار لا حدود لهما، على وجهه نظرات غضب لم أكن أعرف موجهة لمن كانت تخيفنى كثيراً، كانت كلماته دائماً قليلة معبرة، لا شيء قادر على إبهاره ولا حتى مهارتى في الرمي والتصويب، فقط يمنحنى نظرة بسيطة تنم عن رضاه، أحببت العمل معه وأظنه كذلك حتى صرنا قريبين للغاية وحين جاء خبر اغتياله، شعرت بتيتمى ثانية على الرغم من أن الفارق السنى لم يكن بالكبير جداً بحيث يصبح لى أباً، كانت هذه المرة الأولى التى أبكى فيها منذ سنوات، لم ألمح دموعاً فى عيني من قبل منذ كنت طفلاً تُجاب كل طلباته، ولكن حين جاء خبر اغتياله اهتزت الأرض تحت قدمى، فى البداية لم أصدق ولكن كافة الدلائل تشير إلى رحيله، وحين قابلت زوجته بعدها وأكدت بأن لديها ما يثبت بقاءه على قيد الحياة تشبثت بوميض الأمل هذا، ولكن لم نعثر على أى دليل يرجح كلمات زوجته، لقد قتل الرجل لا شك، حتى وإن اختفت جثته على يد مغتاليه، لا أدرى لماذا تستدعى ذاكرتى هذه الذكريات الآن، لعلها وسيلة لتمضية وقت ثقيل كجبل لا يتزحزح، صحيح أنه ليس هناك داع للعجلة فنهايتى قادمة قادمة ولكنى أفضل الموت فوراً عن انتظاره،

فليقتلوني الآن إن أرادوا وبأى وسيلة مهما بدت شنيعة ولكن سيعقبها موتى سيعقبها راحتى .

بعد اغتيال المقدم يحيى بشهور تم استدعائى إلى اجتماع.....

إثر جلبة واضحة فى الخارج انقطع فجأة سيل ذكرياتى، أصوات متداخلة تترامى على مسامعى، عيناي لا تسعفانى بسبب الظلام الدامس، لا أعرف كم الوقت ولكنه الليل أسدل ستائره منذ ساعات ولا يريد أن يمضى بيد خاوية، أسمع مزايج تُعالج وخطوات قادمة تقترب أكثر وأكثر ومع بلوغها القفص تنار أضواء ساطعة أعمت عيونى فى البداية، أخذت وقتًا طويلا حتى تتمكن عيناي من الرؤية بوضوح عقب ظلام ألفته وألفها، فى الأيام السابقة عند إدخالهم الطعام للقفص كانت أضواء خفيفة تتسرب للقفص ومحيطه من المشاعل المعلقة على الجدران تسمح للحراس بتبين موضع أقدامهم ومعالجة أقفال الأقفاص، أما الآن فالإضاءة ساطعة للغاية وكأنك فى قلب صالة مغطاة تسطع بها أضواء كاشفة تجعل الرؤية كما لو كانت نهائية أو تقترب من ذلك، إذن فالظلام هنا وسيلة تعذيب تتركك مع خيالات وأوهام سوداء غير محببة، بعد قليل حين اعتدت هذا الضوء، لمحت حراس تقف عند البوابة الوحيدة للرواق على بعد ما يزيد من 12 مترًا من قفصى، بيدو أنهم فى انتظار قادم ما أو فى انتظار تلقى أوامر جديدة . الحراس هنا ملثمون لسبب لا أعرفه حتى الآن، لا أدرى هل هم من أهل الجزيرة؟ هل هم مأجورون؟ ولكنهم غالب الأمر صامتون، ينفذون التعليمات دون النطق بكلمة واحدة، لا تشفى، لا إهانة، فقط أخبرونى بشأن المواجهة القادمة، لهم ملابس ثابت، سترة جليلة بنية اللون عارية الكتفين مطرزة بقطع

معدنية صغيرة على الصدر، أسفلها قميص أبيض ذو كمين بجانب سروال أسود اللون، وقطعة من القماش الأسود تدارى رؤوسهم ووجوههم، جميعهم أقوياء البنية، أشداء مختارين بعناية وذلك متوقع في مكان كهذا، اعتدلوا باتجاه الأقفاص، هناك من يجاورهم، اثنان منهما تقديما نحو قفصى، يعالجان القفل بمفتاح كبير نوعاً، يقفان عند المدخل، هناك قادم آخر يدلف من باب الرواق، إنه هو تونى!

تونى الذى يكرهنى أكثر من كره البشر للموت، والسبب الأول لوجودى هنا، كان بإمكانه قتلى بأى طريقة تروق له، ولكنه فضل ميتة أليمة يتلذذ بها، فجاء بى إلى هنا، يقف أمام القفص بقامته الفارعة وشعره الأشقر الطويل نسبياً ووجهه المائل لحمرة توارىها الأضواء، يدلف إلى القفص ويقف عند حافة قدمى الممددة على الأرض، يثنى جسده، ويقرب رأسه من رأسى وابتسامة غل تعلق وجهه :

- الآن ستواجه ميتة شنيعة تروق لى كثيراً، لم أكن أتوقع أن شيئاً كهذا يمكن أن يروقنى يوماً، لا أظن أنك ستفلت الليلة من الموت، صحيح أنك قنّاص، وطالما كنت صياداً بارعاً تقدم الموت لضحايا كثيرين ولكنك اليوم ستتحوّل إلى فريسة مزريّة، فريسة بكل ما تعنيه الكلمة، فريسة تؤكل وتمضغ وتهضم، خصمك اليوم لا يستهان به أبداً، لو كنت مكانك لأفرغت معدتى قبل لقائه فى أى مكان، أما فى حالتك فمعدته تشتاق لك كثيراً، لأنه أكل لحوم بشر بالمعنى الحرفى للكلمة، تغذى على العشرات من الأبرياء قبل أن يعلموا سره ويلقوا القبض عليه، ولأنهم حمقى كما هى عادتهم ،

حاولوا علاجه بإحدى المصححات، فكانت النتيجة هروبه و لاحقاً اختفاء الممرضة التي كانت تتابع حالته، يمكن بقليل من ذكاء معرفة أين ذهبت الآن وما آل إليه مصيرها، ولكنه الآن في حوزتنا ولسوء حظك لم يتناول شيئاً منذ ثلاثة أيام، لذا لا يعتبر لقاءك اليوم مواجهة بقدر ما يعتبرها وجبة عشاء»

كان يتحدث بحماس حقيقى كمراهق يروى قصة فيلم أعجبه «أكل لحوم بشر، إنهم بارعون في اختيار أهدافهم، وقادرون على إدهاشى حتى قبل موتى» هكذا قلت فى نفسى.

لم يخيفنى ما قاله، فكما ذكرت الموت قادم قادم حتى لو تأخر ولكنه سيحمل لى راحة أشتاق إليها كثيراً، لن أهتم بما سيفعل بجسدى ما دمت ميتاً، ولكنى سأقاوم حتى آخر نفس.

قبل أن ينصرف أعطى أوامره للحراس بإعدادى للمواجهة، جاءوا بقتاع معدنى ثقيل وضعوه على رأسى غطى وجهى بالكامل وربطوا طرفيه من الخلف وأحكموا إغلاقه، بينما من الأمام ما يشبه نظارة معدنية ذات عدسات كبيرة تجعل الرؤية مظلمة باهتة بشكل يثير الأعصاب، ثم أنهضونى واقتادونى للخارج لمواجهة مصيرى.



«ما ينبغي لفتاة أن تكون بهذا الجمال وإلا صارت شمساً تحرق
الآخرين وتلقى بالضحايا يميناً ويساراً.»

(2)

يحيى - القاهرة

عام 2003

الآن أنت تخرجت من كليتك العسكرية يا يحيى كما خطط لك والدك رجل الأعمال الذى لا يعرف سوى العمل ثم العمل ثم العمل بعد رحيل والدتك فى سن مبكر، لم تكن متحمسًا لذلك لكن والدك عقد العزم ولن يتراجع، فما كان منك إلا الاستجابة لرغبة محمومة غير قابلة للنقاش، بفضل جهدك وبزوغك فى العمل تدرجت فى المناصب حتى وصلت لرتبة نقيب، هنا شعرت بأن الحياة ليست على ما يرام، هناك شىء ما خطأ، لا يجب أن تخدع نفسك أكثر من ذلك، أنت بحاجة لنصفك الآخر الذى تأخر جدًا فى الظهور، أين هى تلك المجنونة، متى ستأتى إذن؟ إنك على مشارف الثلاثينات وحياتك جافة كحلق تائه فى الصحراء نفذ منه الماء منذ أربعة أيام، عليك أن تعترف أنه كان هناك ذلك الحاجز النفسى فى تعاملك مع الجنس الآخر، نشأت وحيدًا دون إخوة وحتى أصدقاؤك فى المدرسة والكلية جميعهم من الذكور، لولا وجود بعض الفتيات فى عائلة والدك تتبادل حديث قصير معهم كل فترة فى الزيارات والمناسبات لانعدم أى حوار بينك وبين هذا

الجنس تمامًا وكأنهم لا يتمنون لنفس الأرض التي تعيش عليها، لقد أشار والدك مرارًا لضرورة الارتباط ولكنك ظننت دومًا بأنه لم يحن الوقت بعد، ربما كان رفضك لفكرة زواج الصالونات وراء ذلك، لكن الجميع من حولك يتخذ هذا المسلك في نهاية المطاف، حسنًا لا مفر ستستعين بصديق جدير بالثقة يساعدك في الاختيار وأنت من سيقدر، في هذا التوقيت يعرض والدك خدماته ويعلن بأن فتاتك لديه، ولكنك تصر هذه المرة بكل حسم، يبدو أن الحياة العسكرية طبعت على سماتك الكثير وأثار الزمن لم تترك لوالدك إلا الوهن، فناة تلو الأخرى تعرض عليك في لقاء عابر أو صدف مدبرة أو حتى زيارة علنية، لكن دومًا النتيجة واحدة رفض من جانبك، ليست هي أحدهن ولسن هن هي. كن جديرات بك حسبًا ونسبًا ويتمينك بوضوح زوجًا ولكن شكلاً وموضوعًا ينقصهن شيء ما، لا تدري ما هو حتمًا ستعرفه حين تعثر عليها، أسبوعًا وراء أسبوع وشهرا وراء شهر، لقد تملكك الغيظ منها، عذرها الوحيد أنها لا تهرف أنها هي .

نال منك التعب، ودنا منك اليأس، لكن وظيفتك علمتك أن اليأس كلمة خارج القاموس ولا محل لها من الإعراب، لا مانع من مواصلة البحث .

ما زال والدك يؤكد بأن عروستك تنتظر، ربما لن تنتظر طويلًا، لذا عليك أن تسرع، رفضك لمبدأ الاعتماد على والدك يتلاشى، إنها فقط محاولة وتحت أي ظرف لن يجبرك والدك على شيء

- لقد دعانا السيد محمود التلوانى لقضاء أمسية معهم يوم الجمعة القادم.

لم تسأل عن التفاصيل كان يقينك بأنها محاولة لن يُكتب لها النجاح كسابقاتها.

في بناية شاهقة فاخرة أغلبها من الزجاج واجهتها تطل على النيل مباشرة في حى الزمالك كان الموعد، ارتديت ثيابًا عادية بنظونًا رماديًا وقميصًا باللون السماوى زادك وسامة على وسامتك، بشرتك البيضاء احمرت من شدة حرارة الجو، يجب أن تعود للونها الطبيعي كى لا يبدو هذا الاحمرار خجلًا وتوترًا، تستقلا المصعد حتى تصلا للطابق الثامن، تدقان الجرس فتفتح لكما خادمة لتقول في أدب «تفضلا» ثم دلتكما إلى مدخل الشقة الواسعة. كان منزلًا أنيقًا بديعًا يمتلك أصحابه ذوقًا رفيعًا لا يمكن التغاضي عنه، تجلس والوالدك على أريكة عريضة مريحة امتصت جسديكما ، واضح أنكما ستبدلان جهدا كبيرًا وقت النهوض، جاء صديق والوالدك ليحيككما في سعادة وود شديدين، عينه لم تنزل من عليك، لقد رقت له كما هو واضح زوجًا لابنته.

حسنًا هذا الرجل يتمنى إتمام هذه الزيجة ربما أكثر من والوالدك، ولكن هيهات على الأرجح دقائق وستكون الصدمة مصير كليهما حسبما تظن، ثم تجيء زوجة المضيف، امرأة خمسينية تمتاز بقصر القامة وقوام بعيد نسيبًا عن الرشاقة، ولكن يبدو عليها السكنينة أكثر من زوجها المتحمس كما أن لها وجهًا لطيفًا، اختفت المرأة من جديد، لتبقى وحدك مع الصديقين اللذين أخذتا يتبادلان ضحكات وقفشات عفا عليها الزمن من وجهة نظرك، ولكنك تضطر للابتسام مجاملة وعلى مضض.

مرت ساعة كاملة دون ظهور للفتاة، ما هذا الملل؟

يبدو أنك ستتنصرف وتتركهم يستكملون أحاديثهم السقيمة تلك، ولكن فجأة دون مقدمات، تعود الزوجة لتدعوكم للعشاء، تفكر إنك ربما كنت مخطئاً، لعل الزوجين ليس لديهما فكرة عن سبب الزيارة، ولدهشتك تخطر ببالك فكرة ربما ليس لديهما فتيات للزواج، سيكون هذا أكبر مقلب من والدك، لا بد وأنه يضحك بداخله كثيراً على ذلك، نظراته لك بين الحين والآخر تحمل سعادة مفرطة أتراها من قسوة تلك الدعابة؟

كانت وليمة بالفعل حوت جميع أصناف الطيور، ربما تغيب فقط لحم النسور والخفافيش عن هذه المأدبة، ثم يقع بصرك على طبق كبير تتوسطه فخذه من الضأن، مشهد أقوى من سخريتك، ينسيك سبب الزيارة وسط هذا الكم الماجن من الطعام، فلتذهب فكرة الزواج والعروس المنتظرة نفسها للجحيم، ستتناول العشاء وتمضي لحال سبيلك، غافراً لوالدك وصديقه وقتك المهدر ودعابتهما السمجة.

جلس أربعتهم على المائدة، المضيف على رأس المائدة وعلى يمينه زوجته وعلى يساره والدك الذى تقبع بجواره وقد نسيت أنت نفسك سبب الزيارة، فقط تنتظر إشارة بدء السباق، تلاحظ قبل بدء عملية نسف السفرة بما عليها وجود مقعد وحيد شاغر بجوار الزوجة وفي مواجهتك مباشرة وأمامه استقرت شوكة وسكين وطبق ولكن دعوة الرجل لبدء تناول الطعام أذهبت هذه الملاحظة أدراج الرياح، وذلك قبل أن تسمح أرق مساء الخير وعتها أذنك طوال حياتك، ترفع بصرك لصاحبة الصوت القادمة من السماء، هذا جمال لم يولد على الأرض، أجارة القمر هى؟ أم استعار القمر هذا الاسم من هذه الواقفة أمامك،

وقبل أن تجيب على أسئلة ليست موجودة إلا بذهنك، تسقط الملعقة من يدك احتجاجاً على شروك طالبة قدرًا أكبر من الاهتمام، صاحب سقوط الملعقة ارتباك واضح عجزت معه شفتاك عن نسج كلمة واحدة مفهومة، لكن عينيك سرعان ما تعاود التعلق بهذا الضياء الساطع حبيس هذه المساحة المتناهية الصغر رغم اتساع المنزل، يبدو أنه لا بد من إعادة تعريف الجمال بعد ما رآها، كان مشدوهاً بحق، تُملي عينك منها بينما عيون الجميع مثبتة عليك، أما هي فكانت تتناول الطعام في هدوء، دون أن ترفع عينها باتجاهك ولو لمرة واحدة على سبيل الخطأ، لم تذق لقمة واحدة بينما ناظريك يلتهمانها، شعر فاحم سائح على كتفيها، أنف دقيق صغير، شفتين شهيتين، يا لك من وغد! لقد فصصت كل تفصيلة في وجهها في محاولة شاقة كى لا تفوتك لفتة لهذا الوجه الوضاء ذى البشرة الخمرية. تردد بداخلك ما ينبغي لفتاة أن تكون بهذا الجمال وإلا صارت شمسًا تحرق الآخرين وتلقى بالضحايا يمينًا ويسارًا.

أنهت طعامها بالتزامن مع الآخرين، أما أنت يا لك من مسكين، سقطت في بئر سحيق لا منقذ منه ولا معين إلا كلمة أو حتى نظرة ولم تظفر بأى منهما، انتهى اللقاء لا تدري كيف، ولكن قرارًا قد اتخذ بداخلك وأنت عازم تنفيذه في أقل وقت ممكن، تخبر به والدك فور مغادرتكما، يتسم في مزيج من مكر وسعادة ونظرة من طراز « ألم أقل لك؟ » بينما أنت لا تدري أتلومه لأنه لم يضغط عليك بشكل كافٍ من قبل أم تلوم نفسك لأنك كنت أحمقًا عنيدًا حرمت نفسك من هذا السحر لبعض الوقت؟

في اليوم التالي يخبرك والدك برد الفتاة على لسان والدها والصدمة تعلق وجهه والحسرة تغلف صوته:

- مرفوض أنت !

بعد قليل من الصمت - لماذا ؟

- لا أدري ولا حتى والدها هكذا رفضت دون إبداء الأسباب

أى جنون هذا؟! تستعيد مجريات أحداث الأمس، ألم يكن مظهرك على ما يرام؟ لم يكن عادياً وليس ممتازاً كذلك، أنفوهت بما لم يعجبها؟ إنك لم تنطق ببنت شفة في حضرتها، يعتريك حزن معجون بالغيظ ولكنك تقرر ألا تستسلم، ها هي اقتحمت قلبك واحتلته ببراعة في دقائق، ليس هذا بالغريب، الغريب أنك لم تبدِ أى مقاومة وسلمته لها بطيب خاطر، ما العمل الآن؟ تعتصر ذهنك بحثاً عن وسيلة أو طريقة تعيد بها تقديم نفسك.

تفعل كما المراهقين تنتظرها أسفل البناية عدة أيام حتى تظهر أخيراً لتستقل سيارتها، تذهب ورائها، تدلف إلى نادٍ اجتماعى شهير، تدخل ورائها مستغلاً كونك ضابط شرطة لا يمكن رفض طلبه بالدخول، تجلس وحيدة دون أن تلحظك في ركن هادئ بالحديقة الظليلة كوردة متفتحة وسط باقى الزهور، يتتابك التردد، ما هى الخطوة التالية، تتذكر أنك ضابط لا يعرف الانسحاب، فتقرر الاقتحام.

- مساء الخير

تدير نظرها إليك فتزيدك ارتباكاً وتزلزل كيائك، فتكرر التحية فى إلحاح حتى ترد فى ثقة

- مساء النور

- تسمحنى لى بالجلوس

ثم تجلس قبل أن تسمح فيمتعض وجهها فتلاحظ أنت ذلك فتنتبه لتقف معذراً قبل أن تدارك هي الموقف وتشير لك بالجلوس «تفضل»

- كنت سعيداً جداً وتشرفت باللقاء الذى تم فى منزلكم.

ترد بالسكوت فتلقى بالسؤال الذى أركك فى الليالى الماضية « هل لى أن أعرف سبب رفضك؟ » تصر هى على السكوت فتؤكد « هذا من حقى أن أعرف سبب رفضك »

- حقيقة ليس رفضاً لك بل رفض للطريقة التى تم بها الأمر، وقد أخبرت والدى به قبل مجيئكم ولكنه أصر بأن أمنحك وأمنح نفسى فرصة حتى اللقاء، أرجوك لا تأخذ الأمر بشكل شخصي أبداً، أنا لا أريد زواجاً تقليدياً، عريس مناسب تقدم لفتاة راقية له فقرر أن يملكها باقى عمره دون أن يعبأ بحقيقة مشاعرها أو حتى يسمع منها كلمة واحدة، هذا زواج محكوم عليه بالفشل.

كانت الكلمات تنساب على شفيتها فى رقة بصوت شجي رغم قسوة ما يرمى إليه، لا تزال مفتون وستستمر كذلك ما دامت أمامك، أجمتك صراحتها فعجزت عن النطق لثوانٍ قبل أن تقول: - وإذا أخبرتك بأنه ليس مجرد إعجاب ولا زواج تقليدى، يبدو أنى فهمت أخيراً الحب من أول نظرة، وأنا أنضج من أن أعترف به دون أن أعنيه

ارتجفت شقتها وخفضت عيناها فى خدر جميل، تلاحظ ذلك بنفسك فتكتسب مزيداً من الثقة لتضيف:

- إيّاً كان ما تريدينه ستحصلين عليه، لأنى لن أسمح بأن تضيعى منى.

كنت حازماً صادقاً مباشراً وقبل أن تكمل كلامك، إذا بصديقة لها تقف جوارك في محاولة لفهم الموقف، فتستأذنها في الانصراف قبل أن تلمح ظل ابتسامة ترتسم على جانب شفيتها المكتنزتين تتكرر اللقاءات بنفس الطريقة بعدما علمت بالأيام التي تقضيها في النادي، لم تصدق أنك بهذا الجنون ولا أنت نفسك، لقد عبرت الحاجز ويتبقى لك تثبيت الأقدام، نمت قصة الحب من جانبها في هدوء بينما كانت مشتعلة لديك من النظرة الأولى، شهور مرت قبل أن تتقدم لخطبتها ثانية ليتم الزواج بعدها بأقل من عام وسط سعادة ومباركة العائلتين.

هل الجنة موجودة على الأرض؟ سؤال لن تتمكن من الإجابة عليه بشكل صحيح إلا لو كانت زوجتك هي داليا، وقد اكتفت الأرض بها هدية من السماء وفزت أنت بها أيها التعس.

بعد فترة لم تطل من الزواج يمنحك القدر طفلاً يشبهك لتكتمل أركان السعادة وسط بهجة الأهل بالمولود وفرحة الزوجين، أعوام مرت كأنها أيام وأنت تنهل من نبع السعادة كيف تشاء ومتى تريد، زواج سعيد ونجاح في العمل جرعة مكثفة من السعادة تحتاج لقرون من السعادة لتُعاش، لا مجال لنكران ذلك، لقد أخذت نصيبك من الهناء دفعة واحدة، وحين الوقت لتنقلب حياتك رأساً على عقب وتعيش على قطع من الجمر باقى حياتك هذا إذا ما اعتبرنا القدام من عمرك حياة!

آه ليت العدل يوجد، حتى لو حرمت أنا منه، فسوف يسعدني وجوده، ولو أصابني أنا نفسى بسوء.

«برتولت بريشت»



(3)

روبرتو روسي

لا أحب الحياة، لا أدرى متى تحديداً تيقنت من ذلك، ولكنه كان شعورى الدائم ورأى الذى لم يتغير، الحياة كريهة ومنفرة ومن الأفضل ألا تعاش، تحتها بالوعات تسكنها الجرذان والسحالي وفوقها دخان يخنق الجميع، الناس ولدوا وعانوا وعاشوا دون أن يتمتعوا، وعمما قريب سيفنوا كما ستفنى هذه الأرض، هؤلاء هم الطيبون منهم، أما الآخرون فيلعبون بامتياز دور سمكة القرش التى تلتهم العشرات والمئات كروتين يومى لا يستوجب القلق بشأنه، وكان الآخريين خلقتوا ليفترسوا.

لا بهجة دائمة على سطح هذا الكوكب، ولا خير يُعمر قليلاً إلا بعد دفع ثمن بقائه تضحيات كبرى، حتى الأمل لم يوارب الباب من أجلنا وكلما وجدنا إليه منفذاً أغلقه فى وجوهنا، سوف تنتهى وينتهى الزمن ولن ينتظرهم إلا الموت والعفن، ألم أقل لك إننا كائنات ناقصة ذات وجود معذب تعيش فى عالم يفتقر لشبه اكتمال، يفتقر إلى العدل، هذه هى الحقيقة دون تجميل والخلاصة دون تزييف، من الخير للمرء ألا يبشر بخير غير موجود، وقتها سيُلعن من القلوب وسيُنعت بالمخادع الكذاب، فليروا الحقيقة كما هى،

حتى وإن أعمت عيونهم، لقد طال طمسها بفعل الحمقى والمجرمين
ولكنها متى سطعت فلتعيها بعقلك وتحفظها بقلبك.

أرجو ألا يفهم من كلامى بأن حياتى كانت صعبة بأئسة،
لا تحمل همًّا من أجلى أرجوك، لقد عثرت مصادفة على ساعات
عشتها سعيدًا سعادة لم ينلها أحد، حققت عديد من أمنيات لم تتحقق
لملايين البشر ولكن أحلامى التى لم تتحقق أكثر منها بكثير، وما
يشقيني حقًا فى اللحظة الراهنة يقينى بأنها لن تتحقق أبدًا، كنت
أتمنى أن أترك العالم خير مما وجدته عليه ولكنها تبدو غاية عسيرة
المنال برغم أنى حاولت وحاولت كما لم يفعل أحد قبلى، فالظلم
يعيث فى الأرض فسادًا والظالمون يعدون أنفسهم للعيش ألف عام
كأنهم مخلدون عظام، لا يفكرون أبدًا فى انقضاء الأجل.

هذه هى خلاصة تجارب رجل عاش على الأرض سنوات
طوال واقترب بشدة من الرحيل، ولدت فى عام 1935 أى قبل
اشتعال الحرب العالمية الثانية اللعينة بأربع سنوات، وبعدها بثلاثة
أعوام ولد أخى الصغير الوحيد اليسّاندر، وأعقب ذلك بعامين
وفاة والدتى وهى لم تتجاوز الثلاثين من العمر نتيجة إلتهاب رئوى
مزمن، هل رأيت؟ حتى المرض قد يأتى فى اللحظة غير المتوقعة مع
الأشخاص الذين لم يرتكبوا جرمًا واحدًا يعاقبون عليه، وكأنك تدفع
ضريبة العيش فى سلام بما يخالف قوانين هذه الأرض، لم يكن من
الوالد سوى أن يتزوج بواحدة لأجل أن ترعانا وترعاه، ظنّها ملاكًا
من السماء ينقصه جناحين ليرفرف بينما كانت هى شيطانة لا ينقصها
سوى قرنين حُمْر، أمام والدى تتظاهر بالحنان والبراءة ومن خلفه
لا تكف عن سبى وضربى أنا وأخى، كانت دائمًا تلعن أمى التى
تركتنا لها، وكأنه كان لزامًا عليها أن تصحبنا معها إلى العالم الآخر،

كل ما كانت تفتعله أمام أبى من اهتمام كانت تجرنا أمامه عذاباً لا ينتهى، وقتها كنت طفلاً لا حول له والمرة الوحيدة التى حاولت فيها لفت نظر والدى، حصلت على علكة لسوء تربيتى وعدم تقديرى لتلك المرأة التى تعانى من أجلنا، كان ذلك كفيلاً بأن يسمح لها بأن تفعل لاحقاً كل ما يحلو لها ولم تكن تتورع أبداً عن ذلك، فى عام 1943 قتل والدى مع آلاف من المدنيين إثر اقتحام جيوش الحلفاء إيطاليا وحينها صرت يتيماً لا يتجاوز عمره الثمانى سنوات وأخ خمس سنوات وشيطانة لن تتوانى عن أكلنا لو شعرت بالجوع، هذا كان حال البشرية فى أربعينات القرن المنصرم يا صديقى، ملايين يموتون قتلاً وتحريقاً بناء على قرارات لحفنة من الأغبياء يحكمون العالم ويبد قادة لم يبارح لون الدماء ورائحتها أياديهم حتى ولو غسلوها مائة عام.

ألم أقل لك بأن الجنون كان ولازال مسيطراً سائداً؟! وحده له الكلمة العليا واليد الطولى، لا تقل لى بأن من اتخذ قرارات قتل وتعذيب وتشريد الملايين أناس يملكون عقولاً مثلنا تفكر وتوزن الأمور، أو على الأقل لو كانت لديهم عقول فهى ليست فى رؤوسهم ربما فى مؤخراتهم ليتخذوا هذه القرارات القذرة، كل طاغ متمسك بوجوده لأقصى درجة حتى لو سحق ملايين من البشر، جميعهم لا يرى سوى أن العنف هو الوسيلة الوحيدة لبقائه، حتى صار العنف سنة الجميع، هذا على مستوى السياسة أما الرعية فكانوا سابقين فى ذلك، فلم تكتف زوجة أبى بما كانت تمارسه معنا من عنف بل ازدادت الأمور سوءاً بعد مقتل والدى، فتحولت هذه الخبيثة إلى عاهرة تجلب إلى بيتنا الرجال، لم أكن أطيق رؤية أحدهم فى بيتنا، أفر كمن تطارده السباع للهو مع أصدقائى

أو التسكع في الشوارع حتى ساعات متأخرة لأضمن نومهم عند عودتى في الصباح ولكن ما كان يفزعنى هو ما يرويه لي أخى وكان يجعلنى انتفض حزناً كعصفور بللته أمطار الشتاء، ذات يوم أخبرنى بأنه في مساء أحد الأيام استضافت رجلاً في المنزل وقد أعدت المرأة طعاماً لم تصنع مثيلاً له من قبل عدداً ونوعاً، أرز ولحوم وسلطة، كان الرجل يشاركها الطهى، وبعد الانتهاء منه، أعدت صحناً من الأرز لأخى وقالت له «أذهب إلى غرفتك، ولا تتناول حبة واحدة قبل أن تحصى عدد حبات الأرز في هذا الطبق لتخبرنى به في الغد، أى خطأ سيحرمك من الطعام في اليوم التالى» كان أخى طفلاً صغيراً بريئاً، أخذ الكلام على محمل الجد في حين سخر الرجل وقال «لابد أنك تمزحين؟» ولكنها نفت «بالطبع لا» ثم أشارت لأخى بدخول الغرفة وتنفيذ ما قالت، بات أخى ليلته يحصى حبات الأرز وحين يخطئ يبدأ من جديد، ظل هكذا طوال الليل حتى غلبه النعاس دون أن يتذوق حبة واحدة، وحين استيقظ وجد حشرات تزحف بينها، فأزاحها بيده وبدأ العد من جديد، ليست المشكلة في ذلك فقط ولكن حين أخبرها بالعدد قالت له «أنت كاذب لعين، ليس هذا الرقم الصحيح، محروم من الطعام حتى مساء الغد» للأسف لم أعرف بالأمر إلا حين بكى أخى جوعاً في صباح اليوم التالى، عندها تسللت وأحضرت له قليلاً من الخبز وبعض قطع الخضر، أكلها كلها حتى شبع بينما أنا تمنيت لو كان لدى من القوة والشجاعة وقتها لأخفقها حتى الموت، ظلت تستضيف الرجال بحجة الحصول على مصاريف تكفى لسد رمقنا، وفي هذا الوقت بدأت تأمرنى بالعمل،

وكان العمل المناسب لها من وجهة نظرها لأمتنه هو التسول، ألبستنى ملابس رثة، وحرصت على عدم تميمى حتى لأبدو متشرذماً بائساً مثيراً للشفقة، وفى الحقيقة كان ذلك حال الكثيرين وقتها ولكنهم لم يلجأوا لهذه الوسيلة الرخيصة، انتقت مكاناً مميزاً بجوار أحد المطاعم يتوارد عليه بعض ميسورى الحال وفى نهاية اليوم أعود لتحصل على كل ما جمعته، لم يوقفها ذلك عن ممارسة أنشطتها الليلية، وحين فطنت إلى مكرها وطمعها بدأت أنفق من هذا المال ببذخ قبل العودة للبيت وأسرب بعض الحلوى لأخى الأصغر، كثيراً ما كانت تضربنى حين لاحظت ضعف الإيراد ولكنى كنت أتملص بصعوبة من يديها محاذراً أن تخدشنى بأظافرها، بعد قليل أفنعتها بضرورة وجود أخى الأصغر معى لجلب مزيد من التعاطف، ولكن غرضى كان اصطحابه ليشاركنى تناول أطعمة شهية يسيل لها اللعاب، مرت سنوات على هذه الحال وفى هذا الوقت بدأت زوجة أبى إدمان الخمر والمخدرات، تصاعد الأمر معها تدريجياً، حتى لاحظ الجميع سوء أحوالها واشتكى عدد من الجيران تصرفاتها، وكما تعلم كانت كل وسائلها للحصول على المال هو جسدها الذى ذبل بعد أن قطفت أيادى لا تحصى ثماره ولم ترويه إلا بسموم قاتلة، ازدادت شرستها فرحلت عن المنزل أسابيع وشهور، مرت ليالى كنت أبكى فيها على حال أخى، بت فى الشوارع والحدائق، امتهنت التسول فى أماكن جديدة، مرت شهور دون أن أرى أخى، وحين عدت بعد فترة انتظرته بالخارج وقابلته، احتضنته وقد تنامى بداخلى شعور الأبوة تجاهه هذ المسكين، ولكن هالنى شكل الجروح وحجمها فى ذراعه، سمأته

وكذلك وجهه، لقد أشبعته قرصًا وعضًا، كان أخى ضعيف الحيلة لا يدري أين ذهب أخوه ولا يدري كيف يهرب مثله، لذا تحمل هذه الإهانات وهذا الألم مقابل بيتًا يؤويه، استشطت غضبًا وعزمت أمرًا وجعلته سرًا، وأخبرت أخى ألا يخبر أحدًا بمقابلتى ووعدته بالعودة، فما كان يعتزنى من هم وألم لم يكن ذا بال مقارنة بإشفاقى على أليساندور وما كان يلقاه من ألم بشكل لا يستقيم مع طفولته، لذا راقبتها عدة أيام، علمت مقاصدها والطرق التى تسلكها حين تغادر البيت، وفي ذات ليلة شتوية غاب عنها القمر في شهر ديسمبر من العام 1950 شرع روبرتو روسى فى أولى خطواته نحو تحقيق العدل وكان عمرى وقتها 15 عامًا.

اختفت هذه المرأة للأبد ولم يعثروا أبدًا على جثتها وكيف يفعلون وقد صارت طعامًا لأسماك البحر بعد أن وضعتها بيدي مربوطة بسلاسل من حديد فى قاع البحر؟ وهو الفعل الذى شكرنى عليه أخى لاحقًا لأنه بحسب روايته كان قد شرع فى البحث عن طريقة غير مؤلمة للانتحار، حسنًا فإذا كانت الحياة بين أخى الصغير وتلك المرأة حتمًا ستسفر عن جثة، فلتكن جثتها هى حيث لن يفتقدها أحد أبدًا تلك المدمنة العاهرة بل على العكس سيتمتع الجميع براحة فى عدم وجودها، بالطبع لم يمر الأمر مرور الكرام على رجال الشرطة، استمرت تحقيقات وتحريات لم تصل بهم لشيء؛ لأنه لا جثة، ربما هربت ماتت ولكن لا أحد يحاسب لاختفاء أحد.

كما تعلم يا صديقي كان الأمر بسيطاً، على المرء دائماً أن يتحمل عواقب أفعاله ولا نلومن رد الفعل بل اللوم كل اللوم على من أفرط في الظلم وتمادى في الشرور وقد أساءت كثيراً إلى ولأخى ونحن صغاراً ضعافاً.

فيما بعد هذه الحادثة قررنا أنا وأخى ترك أمر التسول للأبد، سنعمل ونكد ونجنى ثمرة عرفنا، بدأت الحياة تبتسم لى ولأخى تعويضاً لنا عن سنوات عمرنا الأولى، لكن ذلك لم يمنعها من أن تدير لنا وجهها البغيض بين الحين والآخر.



«في ساحة القتال اسدِ لنفسك معروفاً ومت بسرعة!»

(4)

عاصم

الجزيرة - مارس 2015

كانت خطوات الحراس بطيئة وهم يقتادون عاصم لخلبة القتال التي ستجمعه بخصمه آكل لحوم البشر، لا يدري هل يملكون أى مشاعر من أى نوع تجاهه أو تجاه خصمه، من سيشجعون أم أنهم فقط يؤدون عملاً مكلفين به؟ عبروا به باب الرواق ثم ساروا به عدة أمتار أخرى، كان يشعر بنعومة الأرض من تحته، عيناه لا تعمل بشكل جيد بفعل فاعل، وأذنه لا تلتقط سوى وقع خطواته هو والحراس، حارس على يمينه وآخر على يساره ويبدو أن هناك ثالث ورابع يسبقهم، يسرون جميعاً في ممر ضيق طويل على جانبيه توجد مشاعل معلقة، هذا يفسر ارتفاع الحرارة التي تنبعث من الجدران الحجرية المطلية باللون الرمادى، بعدما عبروا الممر ارتقوا بضع درجات من الدرج، درجاته رخامية ملساء باردة الملمس، قبل أن يتوقفوا المعالجة مزلاج آخر لباب آخر، لنكن منصفين كانت خطوات عاصم هادئة لا تشعر معها بتردد أو خوف، هذه ليست خطوات رجل سيصارع آكل لحوم بشر، ليست خطوات رجل قد يلقي ميتة شنيعة بعد قليل، فقط هى خطوات رجل مشوش البصر.

المشهد من أعلى يبدو عجيباً، هذه ليست حلبة قتال معتادة كحلبات الملاكمة والمصارعة التى تشاهدها فى تلفازك، إنها ساحة نصف دائرية أو فلنقل بيضاوية يقترب قطرها من الثلاثين متراً محاطة من الخارج بسور من قضبان حديدية عالية، أرضية هذه الساحة خشبية تغطيها طبقة رقيقة من الرمال الناعمة، إذا ما ساءك الحظ ووقفت فى قلب هذه الساحة فسيهولك المنظر لأنك ستفاجأ بأنك أمام مسرح حجرى مدرج كبير يحيط بالنصف الدائرة بشكل مقوس، أُعد خصيصاً لحضور الجماهير لما سيتم عرضه فى الساحة، لا داعى لذكر بأنه لا سقف أو غطاء يقبع فوقها، هذه الساحة مكشوفة للسماء، تحيط بها كشافات كثيفة الضوء مسلطة على الساحة فى حال إقامة الجولات ليلاً كهذه الجولة، المدرج مكتظ بجمهور يقدر بالمئات أغلبه عارى نصف جسده العلوى وكأنه فى حفلة شاطئية لو أرهفت السمع ستسمع غطغطة الموج وستلتقط أنفك رائحته، قد يكون بإمكانك هذا لو كنت مشاهداً، أما كمقاتل فلن تشم سوى رائحة الجنون فى كل ما يدور.

وصل عاصم الى الساحة، شاب أسمر رشيق مفتول العضلات، قوى البنية، منكوش الشعر أشعثه، كواحد من أبطال الأفلام الهندية بعد مواجهة دسته من الرجال وكمصارع رومانى قديم يفصله عن الموت خطوة واحدة، الفناع على عينيه حجب عنه بشكل كبير رؤية ما ذكرناه سابقاً بصورة واضحة بينما أذنه تسمع صيحات وصافرات وتشجيع لا يدرى إن كانت من نصيبه أم نصيب خصمه، على أية حال تعجب فى قرارة نفسه من وجود متفرجين لهذه المواجهة، كان يظن أنها مجرد وسيلة شنيعة للقتل ولكن يبدو أن القتل ليس الهدف الأوحدهنا بل للمتعة هنا مكان.

كان عاصم قبل دخوله الساحة هادئًا ولكن بمجرد شعوره بأنه وسيلة ترفيه تسلل إليه الفزع والقلق بغتة، لا يدرى سببًا لذلك ولكنه ما حدث.

هنا غريزة البقاء هي الفيصل هي الحكم، من كانت لديه غريزة البقاء أقوى حتمًا سيمر. ومن يحتاجه الخوف سيشهد نهاية مروعة لم تزر كوابيسه من قبل.

في مركز الساحة الدائرية وقف عاصم مأخوذًا جراء هذه الأجواء، إنه مقاتل طالما قهر أعداءه ولكن في قلب هذه الساحة كان جزءًا من لعبة غرضها الانتقام ووقودها الجنون، شعر بالحارس ليحرر يديه من قيدهما، ليربطه بقيد جديد، سلسلة معدنية طرفها الأول يلتف حول معصمه الأيسر مسببة له ألمًا بسيطًا، بينما الطرف الثاني ملتف حول معصم آخر لجسد ضخم يقترب وزنه من مائة وستين كيلو أى ما يقارب ضعف وزن عاصم الذى مازال يحتفظ بجسد رياضي ممشوق وعضلات لم تذببل بعد تزين هذا الجسد المنهك بلا شك جراء الحبس، يمتاز الخصم الذى سيقابله عاصم بضخامة كل جزء من جسده، رأس كبير حتى وهو مغطى، وكف عريض مفلطح وذراع طويل ممتلى، هذا ثور آدمى قادم من أسطورة إغريقية قديمة وعلى عاصم قتله ليحتفظ بروحه ساعات أخرى لا يعلم ماذا ستقدم له من صنوف العذاب.

الصيحات تعلقو من حناجر الحاضرين وأغلبهم من سكان تلك الجزيرة الصغيرة، عددهم يقدر بالمئات وهو عدد كافى

لإشعال الحماس في المتنافسين وباقي الحضور الذين تباينت هياثهم بين ملابس رياضية وبين أزياء كلاسيكية بسيطة، تراوحت أحوالهم بين تصفيق ونظرات دهشة من عرض لا يتاح للكثيرين مشاهدته، حقيقة لا يشاهده إلا فئة محدودة للغاية، يمكن التمييز بوضوح بين كلا النوعين من الجمهور، خاصة وأن كلاً منهما يحتفظ بمكانه المخصص له داخل المدرج، ولكن من هؤلاء أشباه العراة المتجمعين في جزء محدد؟ ومن هؤلاء المتأقن الهادئين المدهوشين؟ يمكن بقليل من فراسة تخمين النوع الأول بأنهم من أهل الجزيرة، لذا يتعاملون كأصحاب مكان بحرية تامة من حيث الملابس وحرارة التشجيع وربما يعود ذلك لأن أغلب سكان الجزيرة لا يغادرونها إلا نادراً والأكثرية العظمى لا تعرف عن العالم الخارجى إلا القليل، يعيشون حياتهم وفقاً لمعطيات الجزيرة وما تجود به الطبيعة هنا ومباراة قتالية كتلك التى يشهدونها حدث ممتع يتجمعون حوله تكفل لهم دقائق وربما ساعات من الإثارة.

دق جرس لا يربانه المتجالدين بشكل قوى فصار كل من الطرفين فى مواجهة الآخر، عاصم يرى بشكل مشوش جسد ضخم لا يتبين تفاصيله بوضوح ولكنه يجاهد حتى لا يفاجئه خصمه، والأخر ليس بقناص ولا حاد البصر بل يبدو أنه يعانى من ضعف فى البصر، وله جسد ضخم كالثور بدأت المواجهة بين خصمين يقتربان من العمى بشكل مقصود بفعل قناع يضر أكثر مما ينفع، يثنى ذو الجسد الضخم نصفه العلوى ويتخذ وضعا متحفزاً لتوجيه الضربات، بينما عاصم يتحسس قيده يحاول من

خلاله استشعار حجم هذا العدو المائل أمامه، بينما تهب على رأسه فجأة كلمات مقدم يحيى التى وجهها له حين سأله قبل إحدى العمليات هل هو خائف أم لا فجاءت إجابته «مقدار الأدرينالين الذى سيضخه جسدك لو خفت، هو نفسه مقدار الألم والمعاناة التى ستتكبدها مع كل مواجهة، لا خوف، لأنه لا خسارة، إما مكسب أو موت، والموت على أرض المعركة شرف كل مقاتل» تذكر هذه الكلمات بينما جسده انجذب فجأة بشدة واحدة من خصمه فسقط عاصم مكفياً على الأرض على وجهه وقد أدرك خصمه بأن منافسه خفيف الوزن لا يائله حجماً، لذا وقبل أن يفهم عاصم جذبه مرة أخرى إليه رافعاً ركبته لتصطدم ببطن عاصم لياخته ألم شنيع جراء هذه الضربة، لم يلبث بعدها أن أمسكه الثور الأدمى من رأسه بيده المربوطة ويسد له لكمة أسفل ذقنه، قفز الدم على إثرها من فك عاصم، كررها ثانية وثالثة لتتناثر الدماء حول فم عاصم يخفيها القناع ولكنه يشعر بها ولكن، هنا يمسك عاصم بكف الرجل ليبدو جلياً الفرق الشاسع فى حجمهما، وقبل أن يتفوق عليه هذا الثور، وجه له ضربة ببطن قدمه استقرت بين فخذه، سببت ألماً مريعاً لصاحب الجسد الضخم وأعدت لعاصم قليلاً من الثقة، وقبل أن يستفيق غريمه من الضربة الأخيرة يجرى عاصم موجهاً رأسه للجسد الضخم فيسقط كلاهما، بينما الحماس يشتعل فى المدرجات، كان عاصم خفيف الحركة فنهض عقب السقوط وهو يتحسس بيده هذا الجسد الضخم، الآن أدرك الفرق بين كلا الوزنين، قد تبدو هذه نقطة فى صالح غريمه ولكنها تعنى ببطء حركته، لا بد من

وجود نقطة ضعف يستغلها عاصم، تبا لهذا القناع، لا بد وأنه مصمم لجعل الرؤية شاقة، بسرعة سقط عاصم بكوعه على الجسد الممدد على الأرض لتصدر عنه أهة قوية شتتها أصوات الحضور تفاعلاً معها، ثم وجه له عاصم عدة لكلمات أسفل وجهه، هنا كل ضربة تعتبر مغامرة لأنها إن لم تصب الهدف قد تصطدم بالأرض أو تصيب الهواء وفي كل الأحوال ستمنح عدوك فرصة تعديل أوضاعه واستغلال ثغرة منحتها له بنفسك، وبينما الضربات تنهال على وجه الجسد الضخم تتحرك ذراعه باتجاه رقبة عاصم لتحكم راحته قبضتها على رقبة عاصم، تخور قوى عاصم فجأة يضع يديه على يد الرجل في محاولة لتخليص رقبته، ينهض الرجل جالساً على الأرض يتمسك بهذه الوضعية، جحظت عينا عاصم أسفل غطاء رأسه وهو يحاول تخليص نفسه من هذا الوضع الذى قد يكلفه خروج روحه لو استمر قليلاً، يده مازالت قابضة على عنقه، في محاولة مستميتة يمد عاصم يده ليعقد قبضة هذا الحيوان عن رقبته، ولكنه قد أحكم زمام الأمور، هنا يحرك عاصم وجهه لأسفل ليغرز أسنانه في ظهر كف عدوه، ضغط عاصم بأسنانه على يد الرجل التى تخنقه، عاصم يعض بقوة لا مثيل لها والرجل أمامه يصرخ جراء هذه العضة، حجم الألم الناتج عن هذه الوضعية بدى على الجزء الظاهر من وجهها، تخف قليلاً قبضة الرجل فيزجها عاصم بيده الأخرى بينما باليد الأخرى للرجل يوجه لعاصم ضربة قوية أسفل أذنه تتحرر على إثرها كف الرجل من بين أسنان عاصم، هنا يشعر عاصم بمذاق كريبه في فمه، لقد

استحوذ على جلد ظهر الكف في فمه ومعه بعض قطرات من الدماء وإلا فما هو هذا السائل الذى يشعر به لسانه، تقزز قليلاً جراء الفكرة وكاد أن يفرغ ما في معدته جراء شعوره بأنه تناول لحم آكل لحوم بشر ولكنه تماسك وتذكر ما كانوا يأكلونه عن طيب خاطر في فرق الصاعقة من حيوانات كريهة ميتة، هنا أيقن بأنه سيفعل ما لم يفعله من قبل لقتل هذا الجسد الذى قضم جزءاً منه بالفعل. حتى لو وصل الأمر لشرب دمائه نقطة نقطة، نهض عاصم واقفاً بسرعة ليمسك برأس الرجل الجالس على الأرض إحدى يديه تمسك باليد المصابة التى تسبب له ألماً شنيعاً، ثم بركبته وجه له عاصم عدة ضربات، عادت رأس الرجل لتسقط على الأرض من جديد وهو في شبه غياب عن الوعي، شعر عاصم بالحماس جراء انتصاره المؤقت فغريمه نائم على الأرض يبدو في حالة سيئة لن تنتهى إلا بخروج روحه كما يتمنى عاصم، وبسرعة يقفز عاصم في الهواء عالياً ليلقى بثقل جسده كاملاً على خصمه، مصحوبة القفزة بصرخة يجمس بها عاصم نفسه وقبل أن يصطدم عاصم بالجسد الملقى على الأرض، يرفع الجسد النائم ساقه لأعلى فيصطدم جسد عاصم بها لتلقى به بعيداً قبل أن تعيده قليلاً السلسلة المعدنية التى تربطها ببعض فصارت العملية أشبه بلعبة اليويو ولكن كل جسد في ناحية، الهتاف يتعالى من حولهما وكلاهما لا يفهمانه، من يشجعون هؤلاء، ماذا يقولون، ماذا يريدون؟ كلا المتصارعين لا يهتمان فلدى كليهما خصم يريد قتله، ينهض الرجلان في نفس التوقيت تقريباً وكلاهما يجذب السلسلة المعدنية ليعرف اتجاه خصمه، وفي

نفس اللحظة تقريباً يتخذان نفس القرار وهو التقدم سريعاً تجاه الخصم، لكمة من الرجل تقابل رقبة عاصم بقسوة، لكمة من عاصم تقابل صدر الرجل في وداعة، يشعر الرجل بقوته وسطوته من جديد فيقوم بسرعة بحمل عاصم لأعلى ثم إلقائه بعيداً فتجذبه ثانية السلسلة، يتألم عاصم على الأرض، ينحنى الرجل للأمام يمسك بذراع عاصم ليضعه في فمه، يغرس أسنانه في لحمه، يتألم عاصم وهو يتخيل نفسه وجبة لهذا الحيوان، هنا يسدد له عاصم بقدمه ضربة في قصبه رجله سببت الألم لكلاهما ودون تردد يوجه عاصم ضربتين جديدتين من قدمه لركبة هذا الجسد الهائل ليسقط متلويًا من الألم، بينما أنفاس عاصم تتسارع وهو يلهث جراء ما دار في ذهنه للحظات التالية ويصاحبها صوت المقدم يحيى في ذهنه وهو يقول له من سنوات «لا بد وأن السماء تسعد إثر قتل كل روح شريرة تصعد إليها»

يتحسس عاصم القدم العارية لجسد خصمه وكأنه يعاين شىء ما، لو كانت عيناه تعملان جيداً ربما قد أنهى الأمر دون كل هذا الألم، ذهب إلى جسد الرجل وجه له اللكمات بيده وقدمه في شتى أنحاء جسده بشكل هستيرى، شعر بثبات الجسد المسجى أمامه وهدوء أنفاسه، هل فقد خصمه وعيه بالكامل؟ هذا ما تمناه عاصم، قبل أن يمسك قدمى الرجل ويباعد بينهما، ويتبعها بسرعة بقفزة عالية في الهواء ليست على جسد خصمه ولكن بين فخذيته، سقطت بركبتيه وثقل جسده على موضع حساس من الرجل، لتخرج بعدها آهة قوية من صوت شارف على الموت، جلس عاصم على الأرض والجماهير من حوله تتأوه

في غاية الإثارة جراء قفزته، يتحسس السلسلة المعدنية لديه، لا حركة ولا صوت نابع عن الجسد الملقى أمامه، هو أكثر من يعرف هذا، فركبته شعرت بما قد دهسته منذ ثوان، بعد قليل وعقب تناثر الدماء بجوار الجسد النائم على الأرض، يدخل الحراس، يتفحصون الرجل، يجسّون نبضه، لا شيء، لقد فارق عالمنا، يعلنون انتصار عاصم وسط حماس نارى من الحضور. يغادر عاصم الساحة دون أن يلمح في الجهة المقابلة للمدرجات لافتة مرفوعة على شكل مستطيل محاط بها إطار ضوئى متغير كُتب عليها بخط أحمر كبير

(في ساحة القتال، اسد لنفسك معروفاً ومت بسرعة!)



«إن الوحوش حقيقية، إنهم يعيشون داخلنا وبيننا، وأحياناً
يفوزون.»

ستيفن كينج

(5)

يحيى - القاهرة

عام 2011

مجنونة هي الأيام لا تبقى ولا تذر، وبضع من الكوارث تنتظر، حتى لو بدا غير ذلك.

الآن أنت في أوج عنفوانك، تعيش زهرة سنوات شبابك قبل أن تدبل للأبد وقبل أن يفصل ظلك عن جسدك، وصلت لرتبة مقدم وتحقق نجاحات متوالية في عملك، ولديك أسرة صغيرة تتألف من زوجة رقيقة وطفل صغير أسميته أسر قد أسرك بالفعل منذ اللحظة الأولى لمولده، هذا طفل من صلبك، يحمل كثير من قسماتك وعديد من صفات، وكأنه صورة مصغرة منك، كبر أسر وسعادتك به لا تحدها أسوار وتعلقك به ليس له سقف الآن تفهم لماذا كان والدك يسعى لتسيير حياتك وتحديد اختياراتك وفقاً لهواه، لم يكن هوى بقدر ما كانت خلاصة حياة، مشروع أخير غير مسموح فيه بالفشل، لن تألو جهداً حتى يصير أسعد طفل ولن تتوانى عن تقديم كل الرعاية ليصير رجلاً ناجحاً، صحيح أنه ولد مريضاً بالقلب مرضاً مزمناً، لكن الأطباء أخبروك بأنه سيتلقى علاجاً دائماً يحد من خطورة المرض وفي المستقبل سيمارس

حياته بشكل طبيعي ما دام يتلقى العلاج، حتى يتمكن من إجراء عملية جراحية في مرحلة عمرية ما تمكنه من الحياة بشكل طبيعي، بعض من الهم ينتابك أنت ووالدته جراء هذا المرض المزمّن ولكنك تتعايش بمرور الوقت مع هذه الحقيقة وهذا البلاء، ويومًا وراء يوم يكبر أسر يتناول العلاج بانتظام، لا تبدو عليه آثار المرض، ولكنك على الجانب الآخر لا تدري ما تعد لك الأقدار من مفاجآت للأسف ليست سعيدة.

رغم نجاحك وسعادتك فكيف لك أن تعرف أن هناك من يُدعى سليمان الملاح محكوم عليه بالإعدام في قضية مخدرات وقتل عدد من أفراد الشرطة؟ وكيف لك أن تعلم بأنه يدعى بأنه بريء وأن هذه القضية ملفقة له تليقًا محكمًا؟ وقد حاول المحامى المكلف بالدفاع عنه إعادة المحاكمة والحصول على حكم جديد إلا أن النتيجة كانت واحدة فحكم الإعدام في انتظاره كقدر لا مفر منه. وكيف لك أن تعرف بأن هذا المجرم له ولد وحيد يُدعى سالم في أواخر العشرينات يكاد يموت قهراً على والده ويزعم مثله بأنه بريء؟ وكيف لك أن تعرف بأن هذا الابن حاول تهريب والده أثناء ترحيله إلى السجن في محاولة فاشلة تمامًا لا تصدر إلا من قبل هواة وليس محترفين قُتل فيها العديد من رفقائه بينما تمكن سالم الابن من الفرار بأعجوبة بعد أن خلف وراءه عددًا من القتلى من أفراد الشرطة، لقد صار الابن نفسه قاتلاً مجرمًا مطلوبًا على وجه السرعة بعد أن حاول تهريب والده، وكيف لك أن تعلم بأنه مازال يصر بأن والده بريء تمامًا كطفل رضيع وأنه مستعد لتقديم حياته نفسها لو كانت معيّنًا له في تبرئة أبيه؟ كيف لك أن تعلم بكل ذلك؟ ولكنك حتمًا ستعلم بكل هذه القصة بكل تفاصيلها

صغيرها قبل كبيرها حين يقرر هذا الابن اللجوء لحيلة خطيرة وقذرة، بعدما تهادى في اللعب بالنيران وصار كالمجنون لا يمكن التنبؤ بخطوته القادمة، يقرر مساومة رجال الداخلية والعدل من أجل إيقاف تنفيذ الحكم وإعادة المحاكمة وكانت وسيلته لذلك جريمة لم تخطر ببال الشيطان نفسه؟ عملية خطف يُحطط لها بأحكام وتُنفذ بإتقان ودون إراقة نقطة دم واحدة، لم يكن ولدك هو الطفل الوحيد المخطوف بل أتوبيس مدرسة كامل تم توقيفه أثناء سيره في منطقة هادئة نوعاً وقبل أن يفهم السائق دخل في سبات عميق إثر جرعة مخدرة رشها أحدهم في وجهه بينما الأطفال جميعهم في حالة توجس مشوبة بذعر وقبل أن يفهموا هم أيضاً لحقوا بالسائق في عالم الأحلام التي لم تكن سعيدة أبداً هذه المرة، بالطبع كان طفلك أحدهم ومعه خمسة عشرة طفلاً آخرًا ومشرفة لم يكن مصيرها بأحسن حالاً من باقى الأطفال، كانت الخطة بارعة بحق بمجرد أن نام الأطفال تم نقلهم لسيارة نقل أخرى توجهت على الفور لمكان مجهول بينما سيارته المدرسة ملقاة في وسط الطريق بشكل استفزازي لافت يشير الخنق وليس بها أثر واحد أو بصمة تشير لهوية الخاطفين، في ظرف دقائق انتقل الخبر بسرعة التيار الكهربى ليسود العناوين الأولى للقنوات والإذاعات، اختطاف ستة عشر طفلاً في ظروف غامضة، لغز اختفاء الأطفال ومخاوف من مصير قاسٍ، تجارة الأعضاء البشرية ربما تكون المحرك الأساسى لعملية الخطف، شهادة حق ينبغي أن تُقال لقد برعت الصحف في إثارة هلع الناس، واستغلت المادة الدسمة لخطف أطفال بهذا العدد أيما استغلال بل ونفذت حرفياً ما خطط له المختطف من إثارة ضجة مدوية بهذا الحادث حتى إذا ما عرض مطالبه فإنها

تفتح مجالاً للإثارة تساؤل جاد بشأن ادعائه بمظلومية والده .
وبعد مضي 24 ساعة على اختفاء الأطفال تتلقى أنت تحديداً
دون سواك اتصال هاتفى قصير من صوت نزعت من قلبه الرحمة
وحجبت عن عقله الحكمة ليخبرك بأن سلامة الأطفال مرهونة
بطلبه الغريب والوحيد وهى إعادة محاكمة سليمان الملاح وفتح
التحقيقات مجدداً مع أسماء بعينها ، تحاول إبلاغه بمرض ابنك
والدواء اللازم تناوله تفادياً لتعرضه لأى أزمة تجعل حياته على
المحك ولكنه لم يمنحك الوقت لذلك بعد أن أغلق الخط .

تبكى زوجته ووالديها بينما والدك يحاول التمسك برباطة جأش
هشة تتمزق بمجرد أن يصير بمفرده، أما أنت فتقوم بالفعل الوحيد
المنطقى الذى لا تملك سواه وهو إبلاغ الشرطة بشأن المكالمات
المشؤومة، لن تُجدى الدموع ولن يفيد الاعتراض على تصارييف
القدر بأسئلة من قبيل لماذا نحن؟ وما الذى يمكننا فعله؟، لقد
تم الأمر ولا مجال للخروج من هذا الموقف إلا بالتأنى والانتظار،
فما يطلبه خارج استطاعتك، ربما كان الأمر أيسر لو كان المطلوب
فدية أياً كانت قيمتها وقتها سيكون لديك فرصة للتفكير وحسم
الصراع بين كونك أب يخاف على ولده وبين كونك عسكرياً لن
يسمح لمجرم بابتزازه ولكن حتى هذا الاختيار العسير لم يتح
لك، لقد أراد المساومة بأسوأ طريقة ممكنة، ربما كانت العشوائية
وراء اختياره لهذا التوبيس وربما كان مقصوداً، على أية حال هذا
سؤال لا يهم كثيراً، المهم الآن الحالة التى عليها الأطفال؟

وكيف تتم معاملتهم من قبل هؤلاء المجرمين؟ أما ولدك فإنه
بحاجة ماسة للحصول على جرعته من الدواء، إجمالاً لم تكن

هذه هى الكارثة الوحيدة، ولكن تعامل الشرطة مع جريمة الخطف مخزياً من وجهة نظرك لقد تعاملنا معها من وجهة نظر وحيدة وهى الحفاظ على هيبة القانون، لم يفكروا مطلقاً فى إعادة فتح المحاكمة كما طلب المختطف، فقط تعاملنا معها كأى قضية اختطاف بمحاولة تعقب المجرم والتحقيق فى كيف تم عملية الاختطاف؟! وهل كان لديه معاونون وسؤال عدد من شهود لم يروا أى شىء، بعد يومين وبينما قلبك منفطر والنوم رحل دون أى بوادر للرجوع يأتىك اتصال جديد من المختطف، يتحدث بنفس النبرة الباردة القاسية لا يستمع إليك ولا إلى تهديدك الذى تحول إلى رجاء فى لحظات من شدة خوفك على ولدك، فقط يعطيك اسماً بالغ الأهمية ستحفظه عن ظهر قلب (حسام الميرغنى) فى محاكمة والده، يطلب منك إبلاغه للمسئولين ويلقى على مسامعك جملة لن نُمحى أبداً من ذاكرتك

- حياة ولدك متوقفة على إعادة التحقيق مع هذا الاسم وإعادة المحاكمة

- ابنى مريض بحاجة للدواء، ابقه سليماً حتى يتم لك ما تريد

تنتهى المكالمة دون أن يعطيك وعداً بذلك، ويتحول قلبك لقطعة من الجمر تكاد تحرق باقى جسدك بينما دموعك تنهمر لتحفز طريقاً أسوداً أسفل عينيك، لقد مرت ثلاثة أيام دون أن يتناول ولدك جرعه اليومية من الدواء وأنت ترى بعين الخيال ولدك يعانى جراء مرضه وتبدو عليه آلام لظالما حرصت على ألا تظهر أبداً، وبعد أن تخبرهم بما طلبه منك المختطف، تُفاجأ بطلبهم المدهش:

- اصمت.. فقط لا تخبر أحداً وابنك سيعود.. إنها مسألة وقت، لقد اقتربنا من الوصول إليه

وفي اليوم التالي يصدر قراراً بحظر النشر في قضية كانت مادة دسمة للصحافة والإعلام، وقتها فقط تقرر دراسة هذه القضية بشكل تفصيلي، تحصل على أوراق القضية وتدرسها بشكل عاجل وتتطلع على حيثيات الحكم، هناك العديد من الأمور التي تجعل من اتهام هذا الرجل (حسام الميرغنى) أمراً غير منطقياً فما بالك لو كان الحكم هو الإعدام، أما الاسم الذى ذكره لك المختطف والذى يدعى حسام الميرغنى فهو لابن أحد كبار رجال الدولة، يكفيك فقط أن تلفظ بلقب العائلة ليتبادر إلى الذهن أشهر حامل للقب، الآن تبدأ الحقائق في التكشف، وفقاً لخطة محكمة قد تم اتهام سليمان الملاح والضحية به، بشكل ظاهري ووفقاً للأوراق والمستندات فسليمان شيطان يستحق الشنق أو الصعق، وفقاً للفحص بعين خبيرة تفهم الثغرات وتعنى الهفوات، هذه القضية ملفقة والاسم الذى ذكره المختطف يؤكد ذلك، لقد مر أسبوع دون جدوى ودون جديد، لا أخبار ولا معلومات كيف حال أسر؟ هل يتناول الدواء؟ هل يعامل بشكل جيد؟ أين يُحتجز؟ وما المصير الذى ينتظره؟ القلق والذعر يعبثان بأعصابك كيفما شاء كما تعبث الريح بورقة، يصل خبر القضية إلى باقى أسر الأطفال وتنفقون جميعاً بأنه ما من سبيل للخروج من هذه الكارثة إلا بإعادة فتح المحاكمة حتى يعود الأطفال ولكن الرد الغبى فى الانتظار « وما مصير هيئة الدولة لو أقدمنا على ذلك؟ لو استجبنا له لتعرض أبناءنا جميعاً للاختطاف لإعادة التحقيق فى قضايا مختلفة وأكثر تفاهة من تلك القضية، فقط الصبر من فضلكم!

أشعر بمصيبتكم وأقدر ألكم ، لذا سأخبركما بأمر عظيم.. اليوم
هناك عملية اقتحام لأحد الأماكن التي يُعتقد بوجود المجرم فيها،
هذه معلومات سرية وأعلم أنكم ستكونون أحرص منى على عدم
إعلانها للحفاظ على سلامة الأطفال»

لم يكن بيدك سوى الانتظار والدعاء بمرور هذه المحنة على
خير لقد صارت الحياة كابوساً طويلاً لا يتمل ولكن هل يتمل
لك الغد فجرًا جديدًا مشرقًا؟!

بَحِثْ عَنْكَ بِالشِّكِّ
لَمْ أَعْثِرْ عَلَيْكَ قَطُّ
إِلَى لِقَائِكَ ذَهَبْتُ
فِي مَا هُوَ أَكْثَرُ عَمَقًا تَغْلَعْتُ
لِرُؤْيَا مَا إِذَا كُنْتُ فِي النِّهَايَةِ حَاضِرَةً
جَرَحْتُ نَفْسِي بِالْكَرْبِ
الْمَمْرُوقِ لِنِيَاطِ الْقَلْبِ

بدر و سألنأس - شاعر أسباني



(6)

روبيرتو روسى - إيطاليا

عام -1950 1955

تركنا أنا وأخى الماضى وراءنا واتجهنا إلى جنوة التى تقع فى شمال غرب إيطاليا وتعتبر واحدة من أهم الموانىء فى البحر المتوسط، مدينة يمكن لصبيين مثلى أنا وأخى البدء فيها والعثور على عمل، جنوة مدينة صغيرة جميلة تطل على البحر، عدد سكانها قليل، لكن رزقهم واسع، عشقتُ أنسامها وهمتُ بشواطئها، لذا كان عملى فى الميناء مدعومًا برغبة مضافًا إليها شعورًا بالمغامرة والإثارة، سفن تضحك قادمة وأخرى تصرخ مودعة، وجوه من شتى بلدان العالم، لهجات ولغات، أشكال وألوان لتجار وبحارة وقباطين، تدرجتُ فى العمل من همال ينكسر ظهره جراء عمل شاق طيلة النهار إلى عامل مأجور بأحد الوكالات ثم مسئولًا عن مخزن، ثم تاجرًا وبحارًا، صفتين اتسمت بهما مهدها الى الطريق وفتحالى القلوب، الأمانة والإصرار، وجودى فى هذا المكان علمنى بأن الأمانة صفة نادرة بين البشر، الجميع لا يتوانى ولا يتورع عن خسة أو دناءة بين الفينة والأخرى، وكأن الأصل فى الإنسان خسته، الطمع والرغبة

في جمع الأموال تسيطر على العقول حتى لو كانت السبل لذلك ملتوية مشبوهة، فقط أدر ظهرك لمن تحسبه وفيًا وستكتشف لاحقًا أن كل الجروح التي تدمى ظهرك وقعت بسكينة وكل قطرات الدماء التي فقدتها سببها طعناته، وكان أكثر ما يؤلمني هذا الشعور بالخيانة حتى لو لم أكن أنا المخدوع، في سن الثامنة عشر حين كنت عاملاً بوكالة للاستيراد والتصدير كان هناك محاسبًا يجاهد لتزييف أرقام الصادرات والواردات حتى يضع جزءًا ليس يسيرًا في حسابه الخاص، كنت وقتها صغير السن أنظر بعين الاعتبار لرجل متعلم مثله ولكنه لم يتوقف عن سرقة صاحب العمل، بل عرض على رشوة بحجة إعانتى على صعوبات الحياة ولكنها في حقيقة الأمر ثمن سكوتي، قبلتها بداية كان المبلغ كبيرًا ومغريًا ولكنى طوال هذه الليلة شعرت بدونيتى وخيانتى للأمانة تجاه الرجل الذى يجزئنى العطاء لمجهودى ورعايتى لعمله، لم أنم ليلتى وقد وقعت على ورقة انضمامى لصفوف الخائنين بقبولى هذا المال، في اليوم التالى ذهبت إلى صاحب العمل أخبرته بما يدور وراء ظهره وطلبت منه الصفح، ربت على كتفى ثم استدعى الراشى كال له الاتهامات ونعته بما يستحقه من صفات ثم طرده من العمل وحرم عليه الاقتراب من تجارته وشكرنى على أمانتى. وفي الليلة التالية خرج على رجلين قطعانى ضربًا وركلاً ثم أهديانى طعنة سكين بجانبى، وتركانى في غيبوبة أواجه الموت، لم يكن الاعتداء بهدف السرقة أو ما شابه ولكنه انتقامًا من المحاسب وكاد يريدنى قتيلاً لولا بعض المارة كانوا شجعانًا بما يكفى لينقلانى لمستشفى تنقذ حياتى، أراك تضحك يا صديقى وتكاد تذكرنى بجريمة القتل التى ارتكبتها، وكأنك لم تتعلم شيئًا مما أقصه عليك، لا رادع لبشر ولا مجال للإصلاح،

ذلك المحاسب لم يصبه ندم جراء جشعه ولن يتوب عن خيانته بل سلط على من يقتلنى بينما هو فى طريقه للبحث عن آخر ينال ثقته ثم سرعان ما يخونه، حتى هذه المرأة لم يشفع معها توسلات أخى ودموعه واستهزأت بنظراتى وظلت سنوات طويلة تواصل جرائمها تجاهنا، فما الذى ينبغى عمله تجاه هؤلاء؟ الصبر عليهم حتى مماتهم ليرتاح العالم منهم بعد أن يتكاثروا ويتوالدوا ليجلبوا مزيداً من الفاسدين؟ أم أتركهم لضمايرهم التى دفنوها حية فى مستنقع آثامهم ولا أمل فى إحيائها من جديد؟

لا خير فى الصبر عليهم أو محاولة وعظهم والعدالة تقضى بالتخلص منهم عقاباً على جرائم اعتادوا عليها وظنوا إفلاتهم بها ورحمة بآخرين معرضين لغدرهم.

بعد هذه الحادثة قربنى صاحب العمل منه، تعاطف معى بلا حدود لكونى كنت على وشك الموت بسبب أمانتى، أتمننى أكثر على تجارته وأمواله وكنت أثابر وأعافر لإثبات جدارتى بهذه الثقة، وحين بلغت العشرين عامًا تعرفت على فتاة رقيقة تعمل فى الميناء، وجودها يضىء نوعاً من البهجة بضحكها المشرقة وخطوتها الخفيفة وشعرها النائر، بسيطة هى وتشعرك دومًا بالرضا يغمرها، الجميع هنا يقدرها ويبدى إعجابه بها، حديثهم عنها جعلنى أشعر بغيرة لم أعرف سببها وكأنها ملكى وحدى، حينها بدأ شيئاً ما بداخلى يتحرك نحوها، ليس ذلك فحسب بل شرعت تداعب أحلامى، صباح جميل هو الذى يبدأ بتذكر حلم لطيف جمعنى بها والطيور تغرد فى سعادة من حولنا، لم تكن تعاملنى بشكل خاص، ولكنى بدأت فى إبداء إعجابى بها بكلمات لا يمكن تجاهلها ولا يفهم منها سوى ما عينته وقامت عينى بإرسال إشارات تفهمها كل أنشى، فلن تتعلق عينك سوى بمن تعلق به قلبك، تلميحات ثم

تصريح على انفراد، لم تعطينى إجابة ولكنها لا تغلق في وجهى الباب حتى نجحت في استمالة قلبها وصارت تبادلنى نفس مشاعرى، من السذاجة أن أتصور أنى الصياد الوحيد ولكن كم يسعدنى أن تختار فريستى شبكتى بملء إرادتها، بالطبع لا أنوى بها شرًا، هذه هى فتاتى ولن تفارقنى أبدًا، استمرت علاقتنا فى التطور لنقضى أغلب أوقاتنا بعد العمل معًا، نتسكع فى الشوارع ونرتاد الحدائق وترفرف علينا السعادة من كل جانب، عرفتها على أختى وعرفتنى على أهلها، بقى فقط تجهيز مكان يجمعنا معًا، فى هذا الوقت بدأ الاعتماد على من قبل صاحب العمل فى سفرياته عبر البحار لجلب البضائع أو تصديرها، كانت لدينا رحلة لأفريقيا قد تصل مدتها إلى ثلاثة أسابيع، ودعتها وأنا أعلم بأنها ستكون أطول ثلاثة أسابيع فى عمرى، أبحرت مع السفينة وودعتنى بابتسامتها التى لم تفارقنى ساعة واحدة فى عمرى وعناق حتى الآن استشعر دفئه وأواسى نفسى لعدم قدرتى على تعويضه، فى كل ليلة قبل نومى أمنى نفسى بما ستكون عليه حياتى حين نجتمع للأبد، عددت الساعات وحسبت الأيام، حتى أنجزنا مهمتنا وأخذنا طريق العودة، حين وصلنا كان الجميع يقابلنى بهدوء ونظرات تعاطف لم أعهد لها تكسو وجوههم، أين ضحكاتهم ونكاتهم واستقبالهم الحار؟ لم أجد تفسيرًا لذلك حتى قابلت أختى، ارتقى فى حضنى وأخذنى فى عناق طويل غير معتاد بيننا، سألته «ما الأمر؟» ازداد قلقي حين لمحت دموعًا تلمع فى عينيه تأبى النزول كى لا تصعب الأمور، جاءت كلماته مختنقة تغادر شفاهه بصعوبة «سيلفيا... رحلت!» لم أفهم ما قاله فتساءلت من جديد والوساوس تعصف بى «رحلت لأين؟» فجاء رده الذى أجمنى وشل حركتى «سيلفيا ماتت!»

كيف؟ الشباب لا يموتون بلا سبب، لم تكن تشكو من أى شىء، أنتم تمزحون مزحة سخيفة لا تضحك أحد، تخدعوننى ولا تصارحونى بالحقيقة» هكذا لم أصدق حرفاً واتجهت إلى منزلها عدواً وأنا ألث، حتى قابلت والدها، أخبرنى من بين دموعه «عدد من الرجال اختطفوها واغتصبوها ثم قتلوها، ووجدت جثتها صباح اليوم التالي غارقة في الدماء».

بكيك وبكيك وأنا أتحيل اللحظات الأليمة التى مرت بها قبل الموت، قطفوا الوردة ومزقوا أوراقها ولم يبارحوها إلا بعد أندهسوها، أطفالاً ونورها بأيديهم وأخذوا عبيرها، وأراقوا دمهها، ليسوارجالاً ولا يهتمون إلى البشر من الأساس، وليسوا حيوانات، الحيوانات لا تغتصب إنائها ولا تقتلهم بعد ذلك، بل فصيلة نادرة من الوحوش لها هيئة البشر ليس لديها وازع يمنعها من ارتكاب أى وحشية ترفع عنها الحيوانات، سلبوها السعادة وأبكونى، سلبوها الحياة وقتلونى، ورحلوا ولم يعثر لهم على أثر ولم يستدل عليهم « قل لى بأى حق نتحدث عن العدالة على الأرض وتلك الوحوش طليقة؟ كيف نتحدث عن الأمان وهؤلاء بإمكانهم تكرار ما فعلوه مع أخرى؟ مجرد موتهم هكذا أو قتلهم ليس عدلاً، العدل هو هنا أن ينالوا مقدار ما سببوه من أذى لها ولأهلها وحببيها ومن رثى لنهايتها ومن عرف بقصتها مضرورياً فى أعماهم، هذه هى العدالة، عذاب مقيم لا يغادروه، الموت ليس لهؤلاء، فلأعثر عليهم أولاً وبعدها سيلعنون أنفسهم واليوم الذى جاء بهم إلى الدنيا، واليوم الذى قاموا فيه بالاعتداء، الجحيم لن يبحث عنهم بل سأرسلهم إليه.



«ولكنى لم أعلم أن هناك كابوساً فى انتظارى، لن يأتينى ليلاً، لن يزورنى وأنا نائم، لن يغادرنى ويرحل دون ترك أثر ملبوس كأى كابوس يحترم نفسه، بل سيأتينى فى عز النهار ويبقى معى ويأنس بى ويتلذذ بيأسى ويتنعم بألمى ويأخذ قطعة من جسدى كما أخذ قطعة من روحى»

(7)

عاصم - الجزيرة

عدت إلى القفص من جديد وقد نزعوا عنى هذا القناع ليستأنف ناظرى عملهما بإخلاص رغم الظلام المحيط ولكنهما قد اعتادا عليه، عدت وأنا خائر القوى منهك الجسد يتسلل الألم لأكثر من موضع منه، لقد أفلتت من موتة أليمة مرة أخرى، ويبدو أن موتة أخرى أكثر بشاعة في انتظاري هكذا هو الحال على سطح الجزيرة، تفلتت من موتة لتقابل أخرى تفوق الأولى بشاعة، يبدو لي الموت هنا قرار حكيم بحاجة لشجاعة غير معتادة لاتخاذها، نادراً ما يأتى الموت هنا دون تدبير، بل يُعامل كضيف ينبغي إكرامه وتقديم الضحية له في أو هن صورة ممكنة، حتى ليبدو الضحية هنا شديد الترحيب به.

تجاهلت المي ومددت جسدى طلباً للنوم وهو أفضل نشاط يمكن القيام به هنا ما لم يكن مصحوباً بكوايبس، لازالت تتسلل إلى أذنى صيحات وهتاف الجماهير، تعبى لم يجعلنى أتبين أهى أذنى تعيد صدى هذه الأصوات من تلقاء نفسها؟ أم أن هناك مواجهة أخرى تدور بالخارج لخصمين آخرين ينتظر الموت أحدهما؟
نمت حتى باغتتنى حزمة من أشعة شمس نهار اليوم التالى،

هل من طيور تغرد وأزهار تنمو ونسمات هواء وحياة تعاش خارج هذا المبنى؟ لا بد وأن هناك قدرًا من الحرية خارج هذه الجدران، حتمًا هناك حياة، لا يبدو لى أى أمل هنا، فى كل مرة تسوء الأمور كان هناك دائمًا بصيص من أمل يداعب خيالى، أما هنا فقد تخلى عنى أى أمل، أو لعله لم يزر هذه الجزيرة من قبل، حين أنظر لحياتى أتعجب فعلاً كيف أوصلتنى إلى هنا؟

كانت البداية مع شعور خالجنى منذ سنوات حين أخبرنى رئيسى فى العمل عن أهمية العملية القادمة أهو قلق غير معتاد أم ضيق غير مبرر، ليست المهمة الأولى وبالتأكيد لن تكون الأخيرة، لطالما اشتركت بمهمات ونفذت عمليات تصنف حقيقة كبطولات دون مبالغة، إنها طبيعة عملى التى أعشقها، ومنيت نفسى بها منذ الصغر .

التحاقى بالقوات الخاصة حلم سعيت إليه بكل جوارحى بعد استشهاد والدى المقدم زيدان أثناء تأديته الواجب فى مهمة خارج البلاد لىترك أرملة وطفل ليشب هذا الطفل وبداخله رغبة محمومة للالتحاق بكئاب الأبطال ، شوقى لوالدى وحرمانى منه فى سن صغيرة دفعانى دفعًا لخوض غمار تلك الحياة التى كان يحياها والدى فى أجواء شديدة الإثارة، عظيمة الأثر حتى جاء اليوم الذى تم استدعائى فيه بصحبة والدتى لحفل تكريم مهيب لشهداء الواجب الذين وضعوا أرواحهم فى يمانهم رهن إشارة من الوطن، وحين صعدت إلى المنصة لأتسلم درع التكريم طلبت من صاحب الرتبة الكبيرة طلبًا بدا غريبًا بعض الشيء وهو رغبته فى الالتحاق بالعمل العسكرى بعد دراستى الثانوية التى أوشكت على الانتهاء، ابتسم الرجل دون أن يتفوه بكلمة، فما كان منى إلا أن شددت على رغبته فى الحصول على مساعدته لتحقيق هذه الأمنية،

لمح الرجل إصراراً مدهشاً لا يتناسب وطبيعة عمرى، فأخرج من جيبه كارتاً شخصياً يضم بياناته وأرقام هواتفه وقال لى جملة علقت فى ذاكرتى لفترة ليست قليلة منحتنى تأشيرة العبور لتحقيق الحلم « حين تنهى دراستك، هاتفنى على أحد تلك الأرقام »

كانت هذه الجملة كفيلة بمنحى رؤى لبطولات لم تتحقق بعد، وأساطير كنت أنا فارسها المغوار وحكايات تكفى لعشر سنوات قادمة، أما والدتى فبرغم خوفها عليّ إلا أنها لم تجد باباً واحداً مفتوحاً يمكنها الولوج منه لإقناعى بالعدول عن هذه الفكرة فلم يكن لها سوى أن تستجيب لحلم يراود ولدها ليل نهار.

كان حلمى أكبر من أن يجهض وأقوى من أن يزحزح أو يكسر، وافقت على مضض بعد أن صار القلق صديقاً وفيّاً لها لا يفارقها ولا تفارقه. تأمل أن تقيها الأقدار صدمة جديدة، لقد مرت الأولى مخلفة وراءها جروح عميقة تدمى القلب ولا يداويها الزمان، حتى صار قلبها أوهن من أن يحتمل صدمة جديدة، حتماً لولا قها سيرفع بعدها الراية البيضاء مغادراً فى سعادة هذا العالم الذى سلب منها أعز ما لديها.

تدبرت الأمور بمفردها لترى ولدها شاباً يافعاً تستمد قوتها من شبابه، منحتنى حباً أبدياً غير مشروط وصارت لى كملاك يضمد جراحى ويداعب جينى ممسكاً بمنديل أبيض يفيض حناناً ليطردهمومى ويمحو كوابيسى.

مرت أيام بسلام حتى تخرجت لتشهد والدتى حفل تخرجى، تسعد وتفخر بى وبنفسها، أسافر هنا وهناك، أشارك فى فرق وعمليات أتلقى دورات، حتى صرت عاصم رجلاً عسكرياً مشوق الجسد مثالى البنية قامته أقرب إلى الطول، بشرته سمراء محببة

تكسوها حمرة الشمس، وجهه ليس وسيماً لكنه وجه رجل يمكن الوثوق به والاعتماد عليه. حاد الطباع مقدام، معتزلاً بنفسه وعمله لأقصى الحدود ولما لا والجميع يشهد له بالكفاءة، منحت عملي كل وقتي وأخلصت له حتى صرت موضع ثقة لزملائه ورؤسائه وبت كحجر الزاوية لا يمكن الاستغناء عنه أبداً كقناص يرى ما لا يراه الآخرون ويصل إلى ما يعجزون عن الوصول إليه. إلى هنا كانت الأمور طبيعية إلى حد كبير حتى تلقيت ذات صباح في عام 2012 استدعاءً لمكتب القائد. كان اجتماعاً رباعياً يضم كل من زميلي محمود ورئيسنا المباشر والقائد وأنا، بدأ القائد حديثه موجهاً كلامه للجميع:

- نحن بصدد القيام بعملية نوعية كبيرة موسعة، ربما أكبر عملية في سيناء، سيشارك بها عدد من الأسلحة وعدد أكبر من الجنود، لست في حاجة لأخبركم مدى أهميتها للتمكن من استئصال الخلايا الإرهابية النائمة وشراذم تلك الجماعات، ليس هناك أصعب من أن يقف على عتبة دارك حفنة من القتلة، إما أن يفتكوا بك وبأهل بيتك، وإما أن تجعلهم عبرة، لو لم نتحرك ونواجههم سريعاً فلا نعلم من التالي منا، يكفى ما فعلوه بالمقدم يحيى وباقي إخوتنا

شعر الجميع بغصة إثر ذكر ما حدث للمقدم يحيى، ولكنى كنت أكثرهم حزناً بالطبع، فقد كان الرجل بمثابة أخ أكبر لي أقتدى به وأقدره، معلم أكن له كل إجلال، لقد تجاوزت علاقتنا العمل وصرنا على درجة ملحوظة من التقارب والتفاهم

واصل الرجل حديثه:

- في القريب سأعطيكم تفاصيلاً أكثر ولكنى أريد منكم الآن تهيئة أكبر للجنود دون تصريح ، ليس بوسعى الإفصاح عن المزيد ولكنى بحاجة لأخبركم بأن هناك أسبوعاً كاملاً قبل العملية ستلزمونه هنا، لا أجازات، لا مكالمات خارجية، لا أعذار، استعدوا ، لكن لا حديث بشأن المهمة قبل إصدار تعليمات بذلك، أى أسئلة؟

تبادل الجميع النظرات، دون أن ينطق أحدهم بحرف، فأنهى القائد كلامه:

- يمكنكم الانصراف الآن.

غادرت الاجتماع، وقد تباينت مشاعرى ما بين فرحة للقيام بعملية تتأر لزملائى الذين قُتلوا بمنتهى الحسة وتدحر هؤلاء القتلة الذين أود لو قطعتهم بأسنانى وألقى بجثتهم للكلاب و حزن عارم على معلمى وصديقى المقدم يحيى الذى طالما شارك فى عمليات ضد هؤلاء الخثالة حتى نالوا منه منذ شهر قليلة حين فجروا سيارته بينما كان عائداً من سيناء ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا جثته ووجدت ملابسه غارقة بالدماء، وأعلنت إحدى الجماعات تبنيها لهذه العملية وتعهدوا بالمزيد، بعدها قابلت طليقته، أخبرتنى أنها تلقت مكاملة منه قبل الحادث يومين لكن الضربة جاءت سريعة حاسمة بعد أقل من أسبوع وشارك فيها عدد كبير من الجنود وتم قتل العشرات ممن يتمون لهذه الجماعة، وعلى الرغم من ذلك لم يجدوا أى أثر لجثته، حتى اعترف أحدهم بأن جثته حرقت حتى صارت رماداً .

تخادعنى الدموع وتفر من عيني كلما تذكرته وتذكرت كلماته لى، خاصة تلك الجملة التى قالها لى فى لقائنا الأخير وكأنه يستشعر دنو أجله « سأقاتل حتى آخر يوم فى عمري وسأموت مرتين لو لم تنفجر دمائى فى وجه أعدائى» كان بطلاً بحق، لم أمنح احتراماً وحباً لأحد مثلما منحت هذا الرجل وأظنه هو الآخر كان يرى فى تلميذاً نجيباً، كان فداًئياً لم يعرف الخوف طريقاً لقلبه يوماً. فى كثير من الأحيان تترأى لى صورته وهو يموت. لا بد أنه كان يزار وقتها، هذا رجل لا يستسلم بسهولة ولو للموت، قليلون هم هؤلاء الأشخاص الذين يتركون أثراً فى نفسك بعد رحيلهم، نادرون هؤلاء الذين يأخذون قطعة منك مع رحيلهم ويحيى كان أحد أولئك النادرة من البشر بالنسبة لى.

تعرفت عليه فى إحدى العمليات والتى تم التنسيق فيها بين عدد من الجهات عقب انتقاله للعمل فى سيناء، فى البداية كنت أتقرب إليه إعجاباً به، كان يبدو عادة ميالاً للصمت، راغباً فى العزلة حاولت بمودة اقتحام صمته وانتزاع الكلمات من رجل يجمع بين الحكمة والهيبة، وإلى حد بعيد نجحت فى ذلك، تحت إلحاح منى صرنا صديقين تجمعنا صفات كثيرة مشتركة أهمها الحزم والمهارة والتفوق الذين يتمتع بهم كلانا تعددت لقاءاتنا فيما بعد خارج نطاق العمل، حتى صار هو الأقرب لقلبي وعقلي، تعرفنا عن بعض عن قرب وتوطدت صداقتنا، حتى نالت جريمة خسيصة منه وتركتنى مرة أخرى أعانى عذابات الفقد.

عقب الاجتماع الذى علمت منه بالمهمة المنتظرة عدت إلى منزلى ودون كلمات التجهت إلى فراشى متجاهلاً دعوة أمى لمشاركتها

العشاء مسلماً نفسى بكامل إرادتى لسلطان النوم، نمت ثم نمت،
دون أن أتقلب فى الفراش دون أن أحلم، دون أن أدرى حتى أنى نائم
كنت بحاجة للنوم أسبوعين على الأقل، ولكنى لم أعلم أن هناك
كابوساً فى انتظارى، لن يأتينى ليلاً، لن يزورنى وأنا نائم،
لن يغادرنى ويرحل دون ترك أثر ملموس كآى كابوس يحترم
نفسه، بل سيأتينى فى عز النهار فى وقت يقظتى وأثناء عملى
ويمكث معى ويتلذذ بيأسى وسيأخذ قطعة من جسدى كما أخذ
قطعة من روحى.



بعيداً وراء خطاه
ذئاب تعض شعاع القمر
بعيداً أمام خطاه
نجوم تضيء أعلى الشجر
وفي القرب منه
دم نازف من عروق الحجر
لذلك يمشى ويمشى ويمشى
إلى أن يذوب تماماً
ويشربه الظل عند نهاية هذا السفر
وما أنا إلا هو
وما هو إلا أنا
في اختلاف الصور

محمود درويش

(8)

يحيى - القاهرة

عام 2011

لم تكن أبداً مدخناً شرهاً هكذا، حتى بدأ الأمر وكأنك تلتهمها التهاماً، صارت هى غذاؤك الوحيد طوال اليوم، تحرق التبغ وتحترق أعصابك معه، النيران بداخلك لا تكفيها وحدات إطفاء المجرة لإخمادها، بابٌ وراء باب يُغلق فى وجهك، لقد فشلت الشرطة فى العثور على كامل خلال الاقتحام الذى أخبروك بشأنه فى هذا اليوم، وفجأة توقفت وسائل الإعلام عن مناقشة الجريمة وفقاً لتعليمات من جهات عليا، وبدالك أن اختطاف مدرسة أو أكثر أمراً يسيراً لا يستحق إذا ما وُضع فى مقارنة مع أى محاولة للحديث بشأن تورط حسام الميرغنى فى هذه القضية.

اقترب اليوم العاشر من الانقضاء دون جديد، وبينما أنت على هذه الحال كان والد زوجتك يدبر الظهور فى لقاء تلفزيونى مسجل بأحد البرامج الشهيرة، يتوسل فيه للخاطف للحفاظ على سلامة حفيده، ويعلمه باستعداده بدفع أى مبلغ من المال مقابل الإفراج عن أسر، كان الرجل مثيراً للشفقة فعلاً ودموعه تذرِف بغزارة أمام عدسات الكاميرا، وفى نهاية اللقاء بصوت متقطع يرجو المختطف

بضرورة منح حفيده الجرعة اللازمة من دواء حتى لا يتعرض لأزمة تعرض حياته للخطر. لقد انكسر الرجل تمامًا بشكل علني أمام الجميع ولكن دون جدوى، الساعات تمر بطيئة ثقيلة بينما عقارب الساعة تلدغ في حرية تامة جسديك وتنهش في لحمك، لقد مزقك الوقت ولم تعد أكثر من مدخنة سجائر هزيلة، أما زوجتك تحولت لمصنع متحرك لإنتاج الدموع، زالت نصرتها وغارت عينها وشحب لونها وهزل جسدها مثلك تمامًا، صارت أقرب للأشباح منها للبشر، ما بين النحيب والنشيج تنتقل في عذاب لا يعرف مقداره سواك.

أسبوعان مرا وكلاكما يتوق لنظرة أخيرة لآسر وليأت بعدها موتكما لا يهم، فقط تطمئنا على سلامته ولىرعاه الأجداد، ستتقبلان الموت بصدر رحب، فقط يكن هو بخير .

ومع قرب انتهاء الأسبوع الثالث ومع غروب شمس أغسطس الحارقة تتلقى مكاملة من الضابط المكلف بقضية الأطفال:

- يجي باشا؟ كيف حالك؟

-

صمت يلحظه المتصل ويشعر بسخافة سؤاله فيقول على الفور متجاوزًا سؤاله الأحمق:

- لدى لك خبر بالغ الأهمية.. وددت أن أبلغك به لعله يخفف ألمك ولو قليلاً.

كنت تود الحديث، لكنك لم تقوَ عليه وواصلت صمتك المتحفظ.

- لقد وصلتنا معلومات أكيدة بشأن مكان كامل،

ويرجح أن يكون الأطفال بصحبته، بعد ساعتين من الآن انتظر
منى مكالمة في اعتقادي أنها ستحمل لك أخبارًا سعيدة

ولأن الزمن بطيء لمن ينتظر، طويل لمن يخاف فقد عشت
ساعتين تغلى دماؤك فوق صفيح ساخن، ألم تعلم أن الانتظار أول
أداة تعذيب عرفها الإنسان؟ حسنًا إن لم تكن تعلم فقد جربت
بنفسك، ستزرع الغرفة بخطوات ليست ذات معنى، ستحرق يمينًا
ويسارًا أمامك وخلفك وكأنك تستجدي الجهات الأربع ليأتينك
بخبر يهدئ من روعك، برغم كل شيء أضحى حالك مثيرًا
للسففة لمن يعرفك، مثيرًا للغثيان لمن لا يعرفك، كم مرة بسطت
راحتك على وجهك وفي سرعة وعنف سحبتها إلى رأسك مرورًا
بجبهتك وحتى مؤخرة رأسك، كم سيجارة نفتتها ثم أطفأتها
لتصير الرؤية ضبابية خانقة داخل هذه الغرفة، كم مرة نظرت إلى
الساعة لتجد أن عقاربها لم تتحرك قيد أنملة، صدقني هذا لن يعيد
لك ولدك، فلتجلس على كرسيك أو تتمدد في فراشك، هذا أفضل
لك كثيرًا، يبدو أنك تسمعني، ها أنت تسترخي على المقعد،
تعود برأسك للوراء وتوجه بصرك للسقف الذى سيتحول لشاشة
عرض تقدم أسعد لحظاتك مع ولدك، المرة الأولى التى رأيت فيه
عقب خروجه من رحم أمه، حروفه الأولى، خطواته الأولى وهو
يتعثر تارة ويتسند تارة، مناداته لك وحرف الباء يتردد بين شفثيه،
قفزاته، ضحكاته، تندمج تمامًا مع تلك اللقطات السعيدة وتذهب
في غفوة سريعة تنتقل بك لعالم ليس به خاطفين أو مجرمين أو
متواطئين، أنت وهو تلهوان، تضحكان، تحمله على كتفك ويقبض
على شعرك ثم يمنحك قبلة فى أعلى رأسك تتزامن مع طرقات
على الباب، تدخل زوجتك التى لم تعرف بعد بمكالمة الضابط

لتخبرك بوجود أحد أفراد الشرطة بانتظارك بالخارج، تخرج متلهفًا للقاءه، إنه صديق قديم لك لم تقابله منذ زمن، ترحب به وتطلب منه الجلوس لكن الكلمات تخرج منه متلعثمة، يقول في حرج بعد أن يطلب الحديث معك على انفراد:

- اعتذر لهذه الزيارة المفاجئة، كنت أتمنى أن يكون لقاءنا في ظروف أفضل، منذ دقائق تم مداهمة الخاطف بعد تحديد موقعه، لكنه للأسف تمكن من الهرب قبل القبض عليه، وتمكنا من العثور على الأطفال

تهلّل أسارىك، تغمرك السعادة، تتسرب الفرحة من قسماك لترتسم على وجهك وتقول بسرعة:
- وجدتم أسر؟

صمت يعقبه كلمات متقطعة بطيئة تخرج بصعوبة من فم صاحبها:

- للأسف روحه فاضت إلى بارئها، قبل وصولنا إليه، الطبيب الشرعى أكد أن الوفاة حدثت قبل ساعات قليلة من الاقتحام، يبدو أن المجرم نوى الاحتفاظ به حتى يتخلص منه تحت ستر الليل، لا كلمات يمكن أن تشاطرك حزنك أو تعبر عن أسفنا لما حدث لكنك مؤمن بالقضاء والقدر.

كان الرجل يواصل حديثه بصعوبة، بينما أنت قد انفصلت تمامًا عن العالم، لم تعد عينك ترى الجالس أمامك ولا أذنيك تسمع ما يقول، واحتشدت الكلمات في حلقك لينهشك صراخ داخلي، يرجح له كيانه، هل الأرض تدور بك أم يهبأ لك، لم تعد الرؤية واضحة بسبب شلال الدموع الذى تفجر لا تدري من أين؟! ملتبهة حامية دموعك هذه المرة تحدش جلدك فى قسوة كهجام محترف.

اعتذر الرجل بكل ما لديه من كلمات وحاول المواساة قدر استطاعته، لكن جهوده تذهب هباءً، لا زالت قدميك لديها القدرة على حملك، تودع الرجل حتى باب المنزل، يحتضنك ويربت على كتفك، لكنك تعي أنه سينسى تمامًا ما دار وتأثره البادى بعد ساعة على الأكثر من الآن، فور انصرافه تهرع إليك داليا، تتبادلا النظرات لثوان، لماذا كانت الدموع تنهمر بنفس الغزارة من أربعة عيون دون كلام؟ لماذا كان الوجهان يرتجفان والكلمات تموت على شفתי كليكما؟ لماذا كانت عيناكما تنطق بما خرس عنه اللسان؟ لماذا كانا القلبين يتنفضان جزعًا؟ لماذا لم تلقِ برأسها في صدرك كما كانت دومًا تفعل؟ لماذا عجزت قدمها عن الاحتمال أكثر؟ ولماذا فضل وعيها الانسحاب دون إنذار؟ ولماذا أصابك الهلع وهى تتهاوى أمامك؟ ولماذا أسودت الحياة فى عينيك بعد هذا المشهد؟

كلها أسئلة إجاباتها مؤلمة ألمًا لا يُضاهيه كلام.



في مدخل واحدة من حدائق الحيوان تم تعليق لافتة بالقرب من
ستارة:

(هل تعلم ما أخطر وأشرس كائن على وجه الأرض؟)

«أسفلها سهم يشير إلى الساكن وراء الستارة

وراء الستارة لم يجد الفضوليون سوى مرآة كبيرة.»

يان مارتل

(9)

روبرتو روسي^٣

1955-1975

التاع قلبي لفراقها، وظلت خيالات لحظاتها الأخيرة تخيم على تفكيري، مسكينة هي سيلفيا كانت أخف من أن تتحملها الأرض، مثلها يطير في السماء، وبائس أنا لأعيش في هذا العالم الفوضوي الذي يسهل فيه التهام الحملان وفرار الذئب وصمت الأسود، تبا لعجزى وهوانى، همت بعد ذلك شاردًا بفؤاد مكسور لمائة جزء، في كل جزء يسكن قطعة منها، ضحكتها في مكان، نظرتها في مكان، أحلامنا وخططنا في مكان، بطريقة ما شاركتني جسدي وحياتي، لم تبارح ذهني أبدًا، قصيرة هي أعمار الزهور ولكنها غرست بذورها في أرضي ورعتها بمياه جبهها وحين تركتني ورحلت، لم تذبل في قلبي ورويتها بهاء الذكريات. لا بد وأن جزءاً مني مات لتحيها فيه هكذا وهي ميتة. لم يعثروا على مرتكبي الجريمة وكانت سكاكين تمزق صدري وأنا أتخيلهم أحرارًا طلقاء، بينما قلبي ينتفض مع كل حادثة مشابهة تتهادى إلى تفاصيلها، تبا لهذا الشقاء!

كبر أخى وانتظم في كثير من الأعمال، سرعان ما يتركها ليلتحق

بغيرها، صرت أكثر اطمئنانًا عليه، لقد تجاوز مرحلة الطفولة منذ زمن وصار أكثر اعتمادًا على نفسه وهو ما أعطاني مساحة للطفوف حول العالم في رحلات بحرية تجارية مدتني بخبرات وأصقلتنى بتجارب، جميلة هي الأرض لو لم يطلها عبث إنسان، فأينما حل يحل معه الخراب والفساد حتى لو بدا الأمر ظاهريًا غير ذلك، فأى محاولة للإعمار في مكان ما يوازئها خراب ودمار في مكان آخر سواء كان ذلك عن قصد أو بدون قصد، نتباهى بما وصلنا إليه من تقدم وعلوم بينما نفس الجرائم والفظائع ترتكب دون انقطاع تحت سمع وبصر الجميع، صار التلفاز ينقل كل ما يدور حول العالم من فظائع وأهوال، ما إن تهدأ الحرب في مكان حتى تشتعل في مكان آخر، لم أعرف بحسب علمي زمنًا توقفت فيه الحروب وتدمير البيوت وقتل الأطفال والنساء، لا يوجد مجتمع مهما بلغ ثراؤه وارتفاع مستوى المعيشة فيه خالي من الجرائم السرقة والرشوة والقتل والخيانة في كل مكان، الإخلاص والوفاء صارت معانٍ نادرة، وأغلب الوعود لا يوفى بها، يكاد اليأس يقتلني والظلم أمامي بلا حدود، كرهت هذا الانحطاط الذي يعيشه العالم في صراعات لا تنتهى، سأقضى عمري القصير متحسرًا على أرواح غير آمنة وأفواه جائعة وأبناء مخيفة، الصدفة، الصدفة وحدها هي من جنبتى مصير هؤلاء الذين ضاعت حيواتهم بقرار أحقق من مجانين يقودون العالم. ولكنى برغم ذلك قررت أن أنجح، لن أكون واحدًا من هؤلاء الذين يولدون ويموتون دون أن يتركوا أثرًا أو إسهامًا في مجال ما، انشغلت بالعمل والتجارة وعرفت أسرارها وخبرتها فنونها. فما يساوى قرشًا هنا يساوى عشرة هناك وهكذا بالنسبة لجميع السلع والمنتجات، المهم أن تعرف من أين تحصل على منتجك

الأجود والأقل سعراً التبيعه إلى الأحوج والأكثر قدرة على الدفع، كانت هذه واحدة من سياساتي الخاصة وكان الجميع من حولي يحيطونى بمزيج من نظرات الحسد والإعجاب على ذكائى الذى جعل منى صاحب تجارة تنامت بسرعة حتى صرت فى سن صغيرة رجل أعمال عصامى، لم يكن لدى هدف معين بشأن العمل أسعى لتحقيقه ولكنى فقط أريد أن أظل ناجحاً لذا عملت بكامل وعيى وطاقتى، تاجرت فى كل شىء وجنيت أموالاً طائلة، زرت كل بلد وعلمت ما تتميز فى إنتاجه وأكثر ما تحتاجه، راجت تجارتي وذاع صيتى وصرت مثلاً يحتذى به ولم أتجاوز الأربعين من العمر، حتى قابلتها تلك التى أعادت شهيتى للنساء، صغيرة السن فى منتصف العشرينات فارعة القامة تناسب طولى، نحيفة باعتدال بشرتها برونزية وشعرها مائل إلى الصفرة وجهها يشبه كثيراً سيلفيا وربما هذا أحد أقوى عوامل انجذابى لها غير أن شخصيتها أقوى كثيراً، تلك هى جوليا أكبرها بخمسة عشرة عاماً لكنها تعوض هذا الفارق بذكائها المتقد وحيويتها المفرطة، أثارت انتباهى فى إحدى الحفلات، تجاذبنا أطراف الحديث، كان الإعجاب متبادلاً، تواعدنا كثيراً فى نزهات بحرية وزاد ارتباطنا ببعضنا البعض، مرت شهور حتى اتفقنا على الزواج الذى تم فى احتفالية بسيطة بإحدى المنتجعات حضرها عدد محدود جداً من أقاربها وبالطبع أخى الذى سبقنى فى الزواج وزوجته وولديه الصغيرين، عشت أياماً سعيدة معها واستطاعت ببراءة أن توارى صفحة سيلفيا ولم أجد غضاضة فى ذلك، لقد طالت وحدتى وانعزالى للعمل وحان الوقت لطفى صفحة الماضى، وترك الموتى مع الموتى.



«البلايا لا تأتي فرادى كالجواسيس، بل سرايا كالجيش.»

ويليام شكسبير

(10)

عاصم

سبتمبر 2012

فيما بعد علم عاصم بموعد تنفيذ المهمة، الاستعدادات على قدم وساق لم يتبق سوى أيام قليلة، رحل عاصم بعد وداع أمه التي لم تتوقف دموعها عن الأنهار حتى غادر المنزل. انضم للتحضيرات النهائية قبل التنفيذ، علم بكل صغيرة وكبيرة تخص المهمة بدءاً من موعدها مروراً بالخطة والخطة البديلة، ودور كل المشاركين فيها، كانت المهمة في شمال سيناء، طائرات ستبدأ بالقصف ويلها مدفعية خفيفة مع عدد من المدرعات تحيط بالمكان قدر المستطاع خاصة وأن الموقع كما وضح للأفراد غنى بالمرتفعات والتلال والأرض غير ممهدة تحتاج لمجهود أكبر وعزيمة أشد.

إنها من المرات القليلة التي تسعى فيها القوات لاقتحام جبل الحلال والذي يمتد لـ 60 كيلو متراً، يصعب على القوات السيطرة عليه بشكل كامل وذلك بسبب طبيعة المكان ولوجود عدد كبير من الكهوف والمدقات.

احتشدت القوات وتوجهت فجراً إلى أرض المواجهة.

ستبدأ المهمة بقصف جوى على أوكار المجرمين ثم قصف مدفعى، صارت المهمة كيفما خطط لها، ووقعت جميع الأهداف تحت الحصار، وقد تحولت المنطقة المحاصرة للجحيم حقيقى، حجم الصراخ والهلع يشيان بذلك، وتصاعدت أبخرة الدخان ورقصت الزهرة البرتقالية المسماة بالنار رقصة الموت الأخيرة.. رقصة احتفالية في نخب أرواحهم.

جاء الدور على القوات الخاصة لتمهد الطريق لباقى قوات المشاة، تتقدم هى لما لها من قدرة على الاشتباك وحسم الأمور وترجيح الكفة أياً كان حجم وكفاءة العدو الذى سيواجهونه، يمكن القول بأن الجزء اليسير تم بنجاح ساحق ودون خسارة تُذكر وكان ذلك فى الجزء المهد من الأرض، أما فى الكهوف وممرات الجبال لعبت المروحيات دوراً إضافياً فعلاً ولكن لا بد من المواجهة المباشرة للقضاء على أى شراذم.

المنطقة وعرة فعلاً والقوات برغم براعتها ليست على دراية كافية بشعاب الدروب وخباياها، ولكن السكون الناجم عن الضربة الأولى منحهم طمأنينة مؤقتة، توغل الأفراد داخل الممرات والكهوف، الإضاءة تقل والبارود يسد الأنوف إلا أن الأفضة تخفف من حدة الأمر بينما غيوم من الدخان تنهادى بحرية تامة، تزامن توغلهم مع أمطار من الرصاص تقذفها أسلحتهم فى كل صوب وصرخات سريعة من حناجر ملعونة تصرخ صرخة أخيرة يودعون بها حياتهم ويستقبلون بها الجحيم على الجانب الآخر.

بعد دقائق من بدء العملية لاح فى الأفق ضوء خافت متناثر تعلن عن مولد نهار جديد.

بعد ذلك اقتحمت القوات كهفًا أكبر من سابقه، أرضيته غير مستوية على الإطلاق، حيوات كانت تعاش هنا من دقائق تراها في بعض المصاييح والألواح والدراجات النارية وقطع من ملابس ملقاة هنا وهناك، دلف عاصم الى أحد الكهوف به عديد من الممرات الحجرية بدت خالية من أى عنصر ليقف مُديرًا بصره داخل الكهف وخارجه، عيناه ترمقان الخارج والجنود حوله (لا اشتباكات حقيقية بعد) يلمح حركة سريعة فوق إحدى التباب، هناك من يفر متوهماً أن هناك فرصة، يشير عاصم لأحد الجنود في زاوية ووضعية أفضل للتصويب، بالفعل يصوب الجندى طلقة على هذا المشعث الذى يتوارى خلف صخرة لتستقر في فخذه يعقبها رصاصة أخرى سكنت في رقبتة بعدها تسقط الجثة أرضاً يتجمع عدد من الجنود حولها للاجهاز عليه لو كان مازال حيًا، عاصم مازال واقفًا في مكانه يراقب المشهد ويدير بصره سريعًا يمينًا ويسارًا، يلمح بطرف عينه جسدًا هزيلًا ينطلق كالسهم من فوق نفس التبة العالية ماسكًا بشيء ما في يده، وحين فهم عاصم كانت القنبلة تطير في الهواء على تجمع الجنود، يصرخ فيهم عاصم صرخة غير مكتملة بفعل انفجار شديد حول الجنود لأشلاء متناثرة بينما عاصم يطير للوراء مصطدمًا بجدار الكهف الذى ارتج وكاد أن يتهدم ويصير في خبر كان ولكنه اكتفى بسقوط بعض الحجارة من سقفه على رأس جسد غاب صاحبه عن الوعي إثر الارتطام ولتسد مدخل الكهف بشكل يعيق من كلا الجانبين رؤية ما يدور بالداخل أو الخارج.

لا معركة دون خسائر ولا حرب دون ضحايا، الجميع يعلم أن الخطر يحوم حولهم في كل لحظة، لكن عدد الضحايا هذه المرة سلب

فرحتهم بلذة الانتصار، بعد هذا الانفجار تم تطهير البؤرة بنجاح بعد قصف الأهداف وتوغل مزيد من القوات ولكن الثمن كان أرواحًا بريئة عادت إلى بارئها ومصابين عدة حالتهم خطيرة، بينما الأخطر من ذلك اختفاء رجل كان معروفًا ووسط أقرانه بالقناص، لا أثر له ولا لجثته إن كان قد فارق الحياة، بعد انتهاء العملية تم تجميع الجثث والأشلاء، وإزالة الأحجار التى سدت مدخل الكهف، تم تفتيش الكهف والولوج في عمراته الطويلة المتشعبة ولكن لا أثر لعاصم به أو بأى جزء من أرض المعركة.

أين ذهب عاصم؟ أين جثته لو كان قد لقى حتفه؟ أسئلة أرققت وجوه وقعت فريسة للدهشة فلم يجد زملاؤه إجابة لها، بينما حفنة من القمامات المختلفة ذوى الأسمال الرثة ومجموعة من الرؤوس تتسم وجوهها بلحى مختلفة الطول تتطلع إلى جسد راقد أمامهم فى سبات لم يقرروا بعد خطوتهم التالية بعدما اصطحبوه فاقدًا للوعى معهم فى رحلة هروبهم، كان الجسد الراقد أمامهم والمغطى رأسه وجسده بضادات عديدة لضابط قناص سقط أسيرًا فى يد أعدائه.

بعد الهجمة التى تعرض لها هؤلاء وسقوط الأحجار التى سدت مدخل الكهف، سنحت لهم فرصة اصطحاب جسده، وهو بلا شك سيكون ذا فائدة كبيرة لو أحسنوا استغلالها. كان جسده ملىء بالجروح مع اشتباه فى كسور وارتجاج بالمنخ، طبيهم أخبرهم بأن حالته حرجة وجروحه تحتاج بعض الوقت للتداوى أما الارتجاج فلا يمكن التنبؤ بنتائج حاسمة بشأنه إلا بمرور الوقت، حياته على المحك.

وفي بيت صغير وسط الصحراء الواسعة والتباب العالية
كان مأواهم معزولاً عن البشر اتخذوه مخبأً، جلسوا يراقبونه أياماً
وأياماً الجميع في انتظار اللحظة التي سيعلن فيها جسده الاستجابة
للمحاولات والرضوخ للمجهودات من أجل إفاقته، في غرفة
ضيقة غير نظيفة تتسرب إليها الشمس والهواء وحشرات مختلفة
الحجم واللون يرقد عاصم على سرير صلب غير مريح، القليل
من المحاليل والعقاقير موصلة إلى جسده، ورأسه مغطى بقطع
من الشاش ووجهه يزخر بالسحجات، إحدى قدميه في الجبس
والأخرى ممددة على الفراش دون حراك، ذراعيه ممتدان بالتوازي
على جانبي جسده، ولكنهما مقيدتان من الأمام وكذلك قدميه،
تنفسه هادئ للغاية، قلبه مازل ينبض بينما عيون من حوله تنتظر
لحظة إفاقته، حتماً سيحصلون منه على ما يريدون سواء أبى أو
ارتضى هكذا يظنون، أما قلب والدته انفطر تماماً، دموعها لم
تتوقف سوى لتتججر في العيون قبل أن تتفتت من جديد وتعاود
المطول بعد أن أخبروها بفقدانه في المهمة الأخيرة.

وفي مقر عمله أسئلة تتردد بين زملائه وجنوده يوماً بعد يوم،
لا جديد ولا أحد يدرى هل من عودة للفتى؟



«التعلق بإنسان هو وِجَعٌ مؤجّل، سنفقدهم في نهاية المطاف بطريقة
أو بأخرى...»

(11)

يحيى - القاهرة

(2011)

لا تدري كيف احتملت ما حدث، كيف تحملت لحظات قاسية وأنت تتسلم جثته، وأنت توارى عليه التراب، قد علمت أنه عانى من المرض وساءت حالته لعدم تلقى العلاج اللازم، نزعتم الرحمة من قلب خاطفه وتلاشت من قلبك بعد موته، حياة بلا أسر هي موت بطيء قاسٍ، لقد وهنت زوجتك وانطفأ نور وجهها وزهدت الكلام مثلك، انعزل كلاكما في صمت تام تقطعه كلمات قليلة بين الحين والآخر، عانى كلاكما من الفقد ولم يقوَ أحدكما على مساندة الآخر.

تشابهت الصباحات والأماسى، حدث ما حدث، لكن حياتك لن تعود كما كانت أبداً، بعد وفاته بقليل تحدد موعد إعدام سليمان الملاح بعد شهر، الشرطة فشلت في العثور على ولده سالم في شتى الأنحاء، لقد تبخر كبقعة ماء في صحراء ملتهية، لا أحد يدري أما زال في البلاد أم غادرها، الشرطة تنتظر ظهور متوقع عقب علمه بتحديد موعد تنفيذ الحكم في والده،

ربما محاولة جديدة طائشة توقع به ويحسنون استغلالها بعد أن أفلت منهم المرة تلو الأخرى ، لكنه ذهب دون أن يترك أثراً أو خيطاً واهياً يمكن تتبعه، ربما لو تم الإيقاع به ونال جزاؤه العادل لخفف ذلك عنك ما تعانيه، أما أن يختفى هكذا لتطوى الأيام صفحته وتكف الشرطة عن البحث عنه فهذا جحيم لا تطيقه، لن تذهب حياة أسر هكذا دون ثأر ليس كأى ثأر؟، فقط تظفر به، صارت هذه أمنيته الوحيدة، ووقتها سيعلم حجم الجريمة التى اقترفها، فى الوقت ذاته كان شعور ما بداخلك يتمنى ألا تعثر عليه الشرطة، ليس هذا الجزاء الذى تتمناه ، أنت تريده لنفسك، ستصفى حسابك معه، ولكن كيف يمكنك الوصول إليه؟

بات أداؤك فى العمل روتينيا جداً، ولكنك عكفت على دراسة القضية التى اتهم فيها الملاح والتى أدت إلى ما وصلت إليه الآن . كانت الأوراق والملفات تغطى سطح مكتبك بالكامل فى محاولة للإلمام بكافة الملابس التى صاحبت الجريمة.. فيلا باسم حسام الميرغنى، يجرسها سليمان الملاح، حسام الميرغنى مشهور بعلاقاته النسائية المتعددة يعرفها القاصى قبل الدانى، وذات يوم يتم العثور على جثة فى هذه الفيلا لسيدة أرملة مقتولة بعد اغتصابها، سليمان لا يدرى شيئاً عما حدث، ولم ير حسام أو المرأة يدخلان الفيلا، لم يكن متواجداً حين دخلت المرأة، هكذا يذكر ويصر فى التحقيقات، يبدو أنه تغيب عن الحراسة فى ذلك الوقت، خطأ بسيط سيدفع ثمنه غالباً بينما حسام يقدم ألف

دليل على عدم حضوره الفيلا وتواجده بصحبة آخرين، هكذا ثبتت التهمة على سليمان بينما حسام بدا بريئًا تمامًا من هذه الجريمة.

شيئًا ما بداخلك يخبرك بأن هذه ليست الحقيقة، إصراره ولده يؤكد ذلك وسمعة حسام أيضًا.

تم تنفيذ حكم الإعدام في سليمان الملاح دون أى ظهور لولده، كان لديك أمل بتصرف أخرق يعاود به سالم الظهور، لكن لم يحدث، وأنت لن تنسى، لقد باتت هذه هى قضيتك الأولى، لقد أهملت زوجتك وبيتك سعيًا وراء أى معلومة تعينك فى العثور على سالم، صار لديك يقين بأن حياتك لن تستقيم إلا بعد أن تتأر لآسر، أما زوجتك كانت بأشد الحاجة إليك لكنها لم تجدك، كربها عظيم وهمها شديد، والكلام يؤلم أكثر مما يريح، هى الأخرى لم تقوَ على الحياة فى نفس البيت، تحاصرها الذكريات من كل اتجاه تنهش فى قلبها بلا رحمة، لذا أصبحت تقضى أغلب أوقاتها بصحبة والدتها، هى أكثر من استطاع مواساتها، وتخفيف الأمر عنها، لطالما نصحتها بضرورة إنجاب طفل آخر لكن يبدو أن القدر قد اكتفى بمنحكما أسر ولسبب غير معلوم استرده ولسبب

آخر حرمكما من غيره، ولكنها وجدت فى الرسم ضالتها، باتت تقضى أغلب أوقاتها أمام لوحة ممسكة بفرشاة وبجوارها علبة الألوان، كانت أغلب الرسومات لأطفال غير مكتملى النضوج، هل كانوا جميعًا أسر؟ لذا لم تكمل رسوماتهم أم أنها

رغبة في الحصول على طفل يشغل الفراغ الذى خلفه أسر؟ رويداً رويداً عادت لزيارة النادى ومقابلة الصديقات ورغم وقوفهن بجانبها كان سؤالاً ملحاً يشغلها، كيف تتركها هكذا؟ لماذا لا تجردك بجوارها؟ لماذا لا تمسح أنت دموعها؟ لماذا تواريت في مكتبك شهوراً وفي عملك أياماً وليالى؟ لماذا خذلتها؟ لقد رأيت الحزن في عينيك وحاولت دوماً احتوائك لعلك تبادلها نفس الأمر، كنت تستسلم لحضنها لكنك سرعان ما تعود لعزلتك غير عابىء بالنار التى تشعل قلبها، تعلم أنك تود الانتقام ولكن كيف والشرطة عجزت عن العثور عليه؟ إنها ترغب فى الانتقام كذلك ولكنها تعرف بأنك لن تجد القاتل وحدك.. ليتك تشعر بها، ليتك تعلم مدى حاجتها إليك، وحين صارحتك بذلك رددت عليها بجملته واحده زارها أنين قلبك وجعاً:

- قريباً، قريباً جداً سأعثر عليه وسأنتقم لولدى وقتها سنبدأ حياتنا من جديد ولكن الآن لن أطوى هذه الصفحة قبل أن ينال ما يستحق

- أنا أيضاً أتمنى ذلك ربما أكثر منك، أنت لا تعرف مقدار ما بى من ألم، قلبى ينزف وجع وعقلى دائم التفكير سأجن يا يحيى، سأجن، احصل عليه فى أسرع وقت قبل أن تفقدنى أنا الأخرى!

أقلت كلمتها وانصرفت باكية بعد إيلاء من رأسك ولكنك لم تتبه كم كانت تعنى كل كلمة لفظتها كنت مشغولاً بأمر آخر، بالطبع لم تعرف بخططك ولا ما تقدم عليه من أعمال، لم تخبرها

بشأن الشقة التى اشتريتها بأحد المناطق النائبة حيث الهدوء هو سيد المكان والسكون حاضرًا أبدًا، لن تحبر أحدًا ولا حتى هى.. لماذا شقة فى مكان يكاد يخلو من البشر؟ ليست بها سوى منضدة وكرسى ومجموعة من الأوراق رسمت عليها خطتك ومواعيد لا تخصصك وتحركات بشأن رجل ليس هو سالم بالتأكيد، ما الذى تنتويه يا يحيى؟ من هو هذا الرجل الذى بت تراقبه من بعيد وتحفظ تحركاته وتعد عليه أنفاسه؟ ما الذى تدبره؟ ما الذى سيقودك إليه عقلك؟ وما نهاية كل ذلك؟ كانت الأسئلة تُطرح والإجابات تدور وتمحور حول شخص واحد هو (حسام الميرغنى)



كم مرة هزمتنا الخيانة.. دون قتال؟
سعد الله ونوس

(12)

روبرتو روسي³

1975-1985

في هذا التوقيت حين ازدهرت تجارتي كان من العسير متابعة كل صغيرة وكبيرة وحدي لذا كان لدى عدد من المساعدين أهمهم بالطبع اليساندرو أخى ولويجي وماتيو أصغرهم، كان لكل منهم ميزة تختلف عن الآخر، اليساندرو يعمل بتفانى وإخلاص، لويجي شخص مرح دائم السخرية من نفسه ومن الآخرين لكنه مثابر ويتحمل المسؤولية، وماتيو ذكى ولماح ينجز ما يكلف به في أسرع وقت وبأقل جهد كنا متفاهمين تمامًا وأمور العمل تسير بانسيابية تامة، وجميعهم يجنى أموالاً لن يحصل عليها في أى مكان آخر، عشت خمس سنوات من السعادة حسبت فيها أنى ربما أكون مبالغاً بشأن حنقى على الحياة، تصورت أنه يمكن للبشر أن يكونوا لطفاء كثيراً من الوقت وأن دوافعهم للشح على الأرجح يكمن وراءها مبررات قوية تهزم طابعهم الإنسانى الضعيف، لبعض الوقت طغى نجاحى وعدل قناعاتى حتى صحت ذات يوم على ضربة جديدة قاصمة من البشر في ظهري، عقب عودتى من رحلة عمل مصحوباً بلويجي المرح والذى صار صديقاً طلب

أخى لقائى بشكل عاجل، كان متوترًا على غير عادته وصوته متهدج، أفلقنى كثيرًا، حتى زوجتى حين أخبرتها انتقل إليها قلقي، ذهبت وحيدًا لمقابلته، وجدته جالسًا فى الحانة التى اتفقنا عليها ينفث دخان سيجارته فى غضب.

- ماذا بك اليساندرو؟ قلتها ولازلت أحمل نحوه شعور الأب المسئول عن إزالة هموم وإسعاد طفله الذى هو بالأساس أخيه
- هل تثق فى روبرتو؟
- بالطبع، أثق بك أكثر من نفسى أليساندرو، ما الأمر؟
- ماتيو!
- ما له؟
- إنه.. إنه يخونك

صمت.. وأنا موقن بأن الخيانة تظل احتمالات حدوثها أكثر من احتمالات عدم حدوثها، سيخذلنى البشر لو لم يخن أحدهم مرة واحدة فى العمر على الأقل، لم يعترينى شك فى صدق أليساندرو الذى أخذ يفسر:

- ظننت أن بالأمر صدفة ما، لكن أن تتكرر هذه الصدفة مع كل سفريه لك، فهذا يتجاوز قانون الصدفة.
- رمقته بنظرة طالبًا مزيدًا من التوضيح

- منذ شهرين أثناء سفرك لأمريكا أخذت أولادى فى عطلة نهاية الأسبوع لأحد الفنادق بروما، تجولنا كثيرًا ومرحنا، هناك شاهدت ماتيو يقود سيارة بصحبة امرأة

قالها ثم صمت فأثار غيظى:

- وما الغريب فى الأمر؟
- حين دققت النظر كانت جوليا هى تلك المرأة، ساورنى

الشك ولعبت بى الظنون ربما خاننى نظرى، ربما امرأة تشبهها، حتى لو كانت هى فربما كان وراء الأمر صدفة.

شعرت بالحرج من نفسى، إنه صديق، مستحيل أن يخون، قررت ألا أمضى وراء شكوكى دون يقين، فى رحلتك الأخيرة استأجرت رجلاً لمراقبته وإبلاغى، أين يذهب؟ من يصحب؟ من يقابل مصحوباً بالدليل؟ وبعد أسبوع عاد الرجل ومعه مجموعة من الصور، لقد ذهب إلى جزيرة سيسيليا قضى يومين بصحبة امرأة، وهذه هى الصور، كانت جميعها تجمعها بها، إنها جوليا بملابس البحر على الشاطئ تعانقه وفى المطعم وفى نفس الغرفة بالفندق. ثم ألقى بها إلى وأنا ابتلع ريقى منتقلاً من صورة إلى صورة وكل واحدة منهم تطعن فى قلبى طعنة حتى لم يتبق موضع دون نرف. ألم كبير فى صدرى لن يشفى بنزع الخنجر من قلبى بل سيزيد.

- طلقها رويروتو! اطرده! دعهم يذهبان بعيداً عنا!

انتابتنى حالة من الهم، وشعور بالكرب كم كنت ساذجاً حينما هيت عن قناعاتى وتركت ظهري دون حماية ووثقت بعدد من البشر، سعادة مزيفة تلك التى عشتها فى السنوات الماضية، ظللت مخدوعاً ظاناً أنى وجدت المرأة المناسبة، ولكنى خُدت بمنتهى البساطة.

- لا تقلق أليساندرو، دعنى أسوى بعض الأمور!

فى الأسبوع التالى أعلنت عن رحلة عمل وهمية لجنوب آسيا مصطحباً معى لويجى واليساندرو وعهدت لماتيو بمتابعة العمل وتعويض غيابنا جميعاً، عرضت على جوليا مرافقتى ولكنها تعلت كما توقعت بتعب غير موجود وكذلك انشغالى عنها بالعمل فى حالة رافقتنى، وطالبتنى كأى زوجة مثالية بعدم القلق عليها حيث ستكون بصحبة صديقاتها اللاتى أعرفهن جيداً أغلب الأوقات.

بالطبع لم أحبسها في برج أو اربطها بحزام العفة كما كانوا يفعلون في العصور الوسطى، ولكنى أكره الخيانة وأمقت الخائنين، ولا أغفر لأحد منهم أبداً، وإن كان ثمة حياة لهم فلتكن حياة ذليلة مهينة بائسة أو ميتة غير رحيمة ترد لصدورهم طعناتهم في ظهورنا.

وضعتها تحت مراقبة، مريومان دون شيء يذكر، وفي اليوم الثالث التقيا ليلتها بشقة يمتلكها ماتيو جعلها لهذه اللقاءات القذرة، ضربة على الجرس، فتح لي ماتيو مرتدياً روباُ أيضاً ولا شيء سواه، دفعته بعد أن حاول منعى وقد هالته المفاجأة، انطلقت من غرفة لغرفة حتى وجدتها في سريره، لم يكلفنى الأمر سوى طلقتين واحدة في رأسه والأخرى في قلبها، كم كنت رحيماً بهما، يستحقان ألف ميتة وميتة، ولكن مجرد رؤيتهما أحياء ستسبب لى ألماً حتى لو كانوا يتألمون من العذاب، عليهم أن يخنفوا من الحياة كى أرتاح في القريب.

لا أترك أثراً ورائى والبحر دائماً يحفظ أسرارى واستودعه أماناتى ولم يخوننى أبداً، رغم أن البعض يعتقدونه غداراً، ولكنى عن أكثر من تجربة أراه وفيّاً مخلصاً يستر كل من يجيد التعامل معه ويعطيه قدره واحترامه.

هربت زوجتى ومعها مبلغاً كبيراً من المال أثناء سفرى هذا ما علمته الصحافة، أما مسألة سفرى وعودتى، فالبحر كله ملكى، وسفنى لا تتوقف عن الإبحار فيه ولن يضيق أحداها بى دون أوراق رسمية. حالة من الكآبة سيطرت علىّ، تزامناً مع الحروب الأهلية فى بقاع مختلفة دول أفريقية ولبنان وكولومبيا، وحروب فى مواقع أخرى، صور الضحايا والقتلى فى كل مكان، الدماء هى أرخص مادة على سطح الأرض، تراق لأتفه الأسباب فى هذا العالم الملعون، يبدو أنه ليس بوسع أحد أن ينجو من البشر، فلا يكفون عن إلحاق

الأذى ببعضهم البعض متعللين بحجج دينية سياسية استعمارية، مبرراتهم تثير سخطى وتجعلنى أكثر كرهاً لهم، حتى المساكين منهم والمظلومين خانعين بدرجة تجعلك دائم الاعتقاد بأنهم يستحقون ما يلاقون من ذل وهوان، ولكن قليلين يعانون فعلاً دون ذنب واضح ودون خطأ يذكر، يقاومون قدر استطاعتهم لكن البطش بهم أقوى، يكتسحهم ويجتثهم من فوق الأرض اجثنائاً، ألا يستحق هؤلاء مساعدة ما؟ ألا يستحقون اهتماماً حقيقياً؟ دعماً مادياً كان أو معنوياً ليس كثيراً عليهم، ليس لدى ما يمنع ولدى كل المال لأفعل، سئمت من تصريحات المعننين والمسئولين، بنظرة واحدة تكشف هراءهم وعدم جديتهم، أمام الكاميرات يتشدقون بالشعارات ويبدون التأثر وفي الثانية التالية يتسمون للكاميرات ويلوحون بأيديهم متناسين متجاهلين ما كانوا بصدده بشأن أرواح لم تجد من يأسى عليها، سفهاء حقراء هم ومن ينصت إليهم أو يصدقهم، المصالح فقط من تحكم بينما الأرواح تُزهِق، لم يحن للأرض بعد أن تتطهر من الدماء ولم تشبع حتى الآن من الغدر، اكتفيت من مجرد السخط على هذا العالم وسكانه أن الأوان للتدخل بشكل ما في محاولة لجعل الأرض مكاناً أفضل لمن يستحق، لقد تساقط أكثر شعر رأسى والمتبقى منه اشتعل شيباً وبدأت التجاعيد تزحف على وجهى مع اقترابى للخمسين من العمر، لن أعيش أبداً قدر ما عشت، فلأقدم خدمة ما لأجل هذا العالم المهترئ بدلاً من التحسر على إنسانية زائفة، وشرعت فى تأسيس مؤسسة خيرية تعمل على تقديم العون للضعفاء ومساعدة الفقراء والمحتاجين، إغاثة اللاجئين، معالجة المرضى، كل ما هو من شأنه تخفيف الآلام والحد من العذاب واخترت اسماً لهذه المؤسسة وجدته مناسباً لأهدافها وأنشطتها هو (الأيدى البيضاء)



«ليس في العالم وسادة أنعم من حضن أمي»
ويليام شكسبير

(13)

عاصم

(2012-2013)

وكانت هذه هي المرة الأولى التي أفتح فيها عيني لأجدني في مكان مجهول لا يمت لعالمى بصلة، راقداً شبه عارٍ غير قادر على تحريك أطرافى، بينما على متر ونصف هناك جسد يرقد أمامى نائماً، صوت شخيرته ينم عن لحمية متهالكة وهيئته تبدو كما لو كان مبعوثاً من قبره، أمعنت النظر لأجدنى مكبلاً، احتجت كثير من الوقت حتى استجمع ذاكرتى، والدهشة تملكنى وسؤال يلح على « ما الذى أتى بى إلى هنا؟» هنا جاءنى صوت بلهجة غريبة:

- ظنناك مت! يبدو مازال فى عمرك بقية

قالها الرجل العجوز المتكىء أمامى فى نصف جلسة، رجل تجاوز الستين من العمر عينان ضيقتان غائرتان أغلب أسنانه تساقطت، لحيته غير مهذبة ووجهه نحيف جداً، لا بد أنه يعانى من مرض ما.

- من أنت؟ سألته

- رجل اعتنى بك حتى هذه اللحظة، لولاي لكنك ميتاً منذ أسبوع أو أكثر.

- أين نحن الآن؟

- بعيدين جداً عن موطنك بشكل لا تتخيله

- ما الذى تريده منى؟

- أنا.. لا شىء، أنت هنا أمانة عندى أرهاها حتى تشفى

ويتسلمك من أحضروك

تحدثت معه وطرحت عليه الكثير من الأسئلة أجاب بعضها والبعض الآخر اكتفى بالصمت، أثناء ذلك كانت ذاكرتى تعود من جديد ببطء تتسرب لعقلي نقطة نقطة حتى عادت كل ذكرى لموضعها الأول، تذكرت العملية والاقترحام والجنود، ولكن رفيقى هذا أعدو هو أم صديق؟ ما الذى حدث ومن أحضرنى هنا؟ لا أظن بأن زملائى أتوا بى إلى هنا، أخيراً تمكنت من تحريك يدي، أما قدمى فعجزت عن تحريكها أو رفعها وإحدهما موضوع فى جيبى بشكل بدائى بعض الشىء، علمت منه بأنى فى غيبوبة منذ عشرة أيام تتأرجح روحى بين الحياة والموت، بعد قليل من كلام معه ثقلت رأسى ودارت الدنيا من حولى فأغمضت عيني دون إرادة، حين فتحتها مرة أخرى، كان هناك آخر يقف على رأسى وهو يتسهم بخبث، نادى على الرجل الأول «يا شيخ» حضر الشيخ فسأله الخبيث الذى لا تختلف عنه هيئته كثيراً غير أن جلبابه أقصر بعض الشىء ولحيته مهذبة نوعاً وعمره لا يتجاوز الخامسة والثلاثين «أيمكننا اصطحابه معنا» أجاب الشيخ «بالطبع ولكن لا يمكن فك الجبس والضامات قبل 4 أسابيع على الأقل» وهكذا نادى الرجل الثانى «يا شباب.. تعالوا»

- هيا خذوه إلى السيارة

جاء شبابان وانهضانى بغير حرص وعلى وجههما علامات غضب، كان خاطر يؤولوقنى صار يقينًا «أنا واقع تحت أسر هذه الجماعات فى مكان بعيد عن أعين القوات» كانت هذه هى الحقيقة التى أخشى مصارحة نفسى بها.

حملانى الشابان إلى سيارة سوداء رباعية الدفع، ألم يمزق جسدى ولكنى لن أصرخ أمام هؤلاء، تحاملت على نفسى حتى وضعونى فى المقعد الخلفى وبيجوارى أحدهما، أما صاحبهما فقاد السيارة ملوحًا للشيوخ ليتلعلنا طرق وعرة رجت السيارة رجًا ونهشت جراجى بلا هوادة، حتى الآن لا علم لى بنيتهم «لماذا يعنونون بى وبيقونى حيًا؟» اقتادونى إلى مجموعة بيوت بسيطة صغيرة من طوب أحمر لا تتجاوز طابقين، تلهو الأطفال فيما بينها، وعلى عكس ما توقعت بدلًا من أن يصعدوا بى لأعلى، هبطوا بى عبر درج متهالك لأسفل، مكان مظلم ورائحته عطنة، قدمى ترتطم بأحجار صغيرة بينما يبدو الشابان على دراية بوجهتهما حتى فى ظل هذا الظلام، حتى وصلنا إلى باب خشبى فتحاه ثم أدخلونى غرفة مربعة بلا شبابيك، ضغط أحدهما على زر بجوار الباب فسرى ضوء أبيض بسيط فى أنحاء الغرفة

ثم دون أى كلمة أغلقا الباب وراءهما، ظللت حبيس هذا المكان يومين لا أرى فىهما بشريًا، الجوع ينهش جدران معدتى والعطش يحرق عروقى والنوم جافى عيونى وكأنى حصلت على نصيبى لمدة شهر قادم منه أثناء إصابتى، ماذا يريدون منى؟ سؤال طُرح عشرات المرات فى رأسى دون كلل أو ملل، حالتى لا تسمح بأى تفكير فى الهروب خاصة وأن أى حركة بها تهور تسبب لى دوارًا

لا ينقطع لساعات. بعد يومين صحوت من إغفاءة لأجد بجابني قليل من الماء وبعض الحبوب وقطعة خبز، ظل الحال هكذا حتى مر ما ظننته أسبوعين، كانت أيامه متشابهة مظلمة كثيفة بلا أمل، بعد انقضائها، جاء رجل ظننته طبيياً معه العديد من الأدوات، ووسط حراسة رجلين آخرين قام الرجل بفك الجبس عن قدمي وذراعي اليمينين، طلب مني في غلظة تحريكهما فحركتهما قبضتهما وبسطتهما، نظر للرجلين ثم أعطى إشارة لهم برأسه فخرج من الباب ليغيب في الظلام، بينما هناك وجهين يرمقانني بكرامية شديدة، انضم إليهما ثالث، حسن المظهر معتنى بجلبابه نسيباً مقارنة بهما، وقف أمامي وقال بلهجة عربية:

- لقد آوينا لك وعالجناك كما تقول تعاليم ديننا، والآن حان الوقت لتساعدنا ثم أشار لي بالوقوف

فنهضت واقفاً وقد تحسنت حالتني قليلاً « أنس الآن حياتك الأولى، لقد ولت بلا رجعة وقل لنا الآن ما هي خططكم في سيناء، ماذا تعرفون عن تجمعاتنا هناك»

- هناك؟ أولسنا في سيناء؟

- كلا .. أنت الآن في سوريا

نزل عليّ الخبر كالصاعقة، كيف حدث ذلك؟ وكيف تمكنوا من نقل كل هذه المسافة، يبدو أنهم يتحركون بحرية أكثر مما نتخيل

- لن أكرر سؤالاً .. قالها مبتسماً ابتسامة صفراء.

ضحكت مستهزئاً بطلبه هذا فباغتني بلكمات في وجهي صائحاً وقد استشاط غضباً

« لا أحد يجرؤ على الضحك في حضوري» وقبل أن أنقض عليه، حالا الرجلين الآخرين بينى وبينه، قيدانى بماسورة تمتد من باطن الأرض لسقف الحجره ثم أمسك برأسى وقال «لم تجبى؟» فضحكت ثانية لينهالوا على بالضرب بكل ما أتوا من قوة على جسدى ورأسى، ثم تركونى أعانى وألامى، كنت متيقناً من هلاكى القادم لا محالة، لا أحب أن أخدع نفسى متشبثاً بأمل لا وجود له.

بقيت فى هذا المكان أسابيع لم أعرف عددها، تلقيت شتى صنوف العذاب: تجويع وضرب وإذلال، أضاعوا ملامح وجهى كهربوا جسدى مرات ومرات، نزعوا أظافرى وحين ضاقت بهم السبل، مسك كبيرهم شاكوشاً بغيضاً بينما كبلونى وهو يلقي على بأسئلة لن أجيب عليها ولو مزقونى قطعاً قطعاً، لينهال الرجل دقاً بعزم ما فيه على قدمى اليسرى، صرخت كما لم أصرخ من قبل، ألم يتجاوز معنى الكلمة ومضمونها بمراحل لا بد وأن هناك وصفاً لهذا لم يكتشف بعد، ضاع صوتى وسط بكائى، وحين توقف عن الضرب كنت قد أنهرت تماماً، وبدا وعيى ينسحب ببطء ولكن أذنى تسمعه يردد «يبدو أننا أخطأنا حين أحضرناه، كان علينا مبادلتة برجالنا أو قتله على الفور علينا تصحيح الخطأ وقتله دون تأخير»

تداخل صوت آخر وهو يقول «ولماذا لا نقم ب.....»

لم أعرف ما ينوون فعله، بعد هذا اليوم بأسبوع، وجدت لهجة أخرى معى فى الحديث كلها سخرية، لم أفهم سببها، قدموا لى طعاماً أفضل من سابقه وتبادلوا الغمز واللمز أمامى، لم يثيروا

دهشتى وتعجلت موتى، لكننى فوجئت قليلاً حين أحضروا إليّ ملابس عسكرية وألبسونى إياها فجر أحد الأيام» لأول مرة أغادر هذه الغرفة منذ شهور، فكوا قيدي وأخرجونى وصعدوا بى إلى سطح المنزل، لأقابل الرجل الذى دغدغ عظامى بشاكوشه ويبدو أكبرهم، نظر إلى ملياً وقال «للمرة الأخيرة أَلن تتعاون معنا؟» ابتسمت فى إعياء ونفيت بهزة من رأسى.

فقال الرجل جهزوا الكاميرات وأعدمووا هذا الرجل، ليكون عبرة لغيره من أسرانا وموالينا.

صدمة مزوجة بسخرية اعترتنى، أخيراً سأنال موتى، انتظرته هنا شهوراً، وحين قالها الرجل كل ما جال بخاطرى أن تكون ميتة سريعة بلا ألم ولكن تاريخ هذه الجماعات جعلنى أتشكك فى هذا، اقتادونى من جديد وساروا بى حتى وصلنا إلى منصة يبدو أنها معدة لذلك.

كان ذلك قبل أن تتهدى إلى مسامعى هدير طائرات تقصف بعنف فى كل اتجاه، تلقى بقنابل، الجميع يجرى فى اتجاه وعكسه وقصف من الطلقات لا تدرى مصدره يحيط بالمكان، فجأة وجدتنى وحدى والجميع من حولى يهرول دون نظر للوراء، هل هناك نجباً يفرون إليه؟ لن أموت إعداماً وسأموت تحت القصف هذه ميتة سريعة، ولكن دقيقة وأنا منكمش على الأرض لم تصبى طلقة أو قذيفة بعد، الأمل يقترب ببطء، هل من طوق نجاة من هذا القصف، التردد هو ما أصابنى فى هذا الوقت، أسئلة لا وقت للإجابة عليها، كل ما هو مطلوب منى الفرار، ولكن كيف وأنا لا استطع حتى العدو، جريت أتفافز على ساقى السليمة حتى احتميت بجدار،

لا أظنه يقينى رصاصة أو قذيفة ولكنه أفضل من وقوفى تحت
أعينهم ناشدًا موت ربما لا يبغينى الآن، احتميت بالجدار ثوان حتى
وقعت عينى على دراجة بخارية تبعد عنى ما يقارب عشرين مترًا،
لا تزال الطلقات تنهمر كالسيل وصراخ أطفال ونساء لم أراهن أبدًا
ينبعث من كل مكان، جثث تتساقط من حولى، وقلبي يخشى أن
يصير أحدها في برهة من الزمن، عقلى يعمل بسرعة وقد ترجم
ما وقع بأنه مساعدة إلهية لأنه ببساطة لم يحن أجلى بعد.
اشتعلت النيران في أكثر من مكان وبدا وكأن السماء تمطر لهبًا.

هرولت باتجاه الدراجة وأنا أعرج وودت لو أحلق كطائر
نال أخيرًا حربته، هناك احتمال تبلغ نسبته تسع وتسعين بالمائة
أن تصيبنى رصاصة أو أكثر، ولكنى قد اتخذت القرار، فلتألم
ساقى! فلينكسر عظمى! فلاسقط ميتًا! ولكنى لن أبقى هنا
حتى يعدمونى، هرولت بأقصى ما استطعت، هرولت وكأن فهود
الدنيا تلاحقنى، وصلت للدراجة البخارية، اعتليتها أدت محركها،
إنه يعمل، القصف مستمر، متى توقف سأطير من هذا المكان.
بعد دقائق مرت ساعات انتهى القصف أو ظننت ذلك، كتفى
ينزف بغزارة، لقد أصبت بالتأكيد، أتريد السير تحت المطر دون
أن تبتل؟ مستحيل بالطبع، لو لم أفر الآن سأنزف حتى الموت،
جريت بأقصى طاقة لى، صوت الدراجة يفضحنى، أنا هالك
لا محالة، جريت ثم جريت لتخترق ظهرى رصاصة أسقطتنى
من فوق الدراجة، ألم يعتصرنى ووداعًا للحياة قدمته عن طيب
خاطر.

ظننت الأمر انتهى، ولكن عينى تفتحت مقاومة الضوء

المزيج المسلط عليها، في غرفة يسيطر عليها اللون الأبيض،
أجهزة طبية ومحاليل تحيط بى من كل اتجاه، رائحة المستشفيات
التي طالما مقتها تلتف حولى في هميمة غير معتادة، انعدام تام من
القدرة على الحركة لدى، فقط عيناي أما باقى جسدى وكأنه قد
اتخذ قراره بموافقة كل الأعضاء بالشلل التام والسكون، ألم شديد
يحتل كل ذرة في جسدى، يتصاعد من قدمى مروراً بعظامى حتى
يصل لقمة النضج في رأسى، وعيى يغيب ويعود، لا أدرى كم
يستمر أو كم يغيب ولكن بمرور الوقت اعتدت المكان، سأموت
قهرًا لو وجدت نفس الوجوه التى أحاطت بى في المرة الأولى،
ولكن لسعادتى كانت عين أمى ترمقنى من بين الدموع دموعها
دائمًا تزحف ببطء على وجنتيها البارزتين، جسدها هزيل، عينيها
غائرتين، ترتدى عباءة داكنة اللون وغطاءً أبيضًا للشعر، وحين
تأكدت من صحوى ارتمت في حضنى محاذرة جراحى وارتيمت
في حضنها، دموعها أغرقت وجهى بمعاونة دموعى، كانت تنهه
من السعادة وهى تشكر وتحمد، وكانت هذه واحدة من أسعد
لحظات حياتى، بعد ذلك زارنى زملايى ورؤسائى فى العمل
والسعادة تعلو وجوههم ولكن السؤال الذى ظل يجيرنى «كيف
عشروا عليّ ونقلونى وجاءوا بى إلى هنا؟» وحين وجهت لهم
هذا السؤال، لم يفهموا فى بادئ الأمر حتى فسرت لهم «كيف
نقلتمونى من سوريا إلى هنا؟»

«سوريا؟! وما شأنك بسوريا؟!» «لقد أخبرونى بأنهم نقلونى

لسوريا»

«خدعوك يا عاصم خدعوك، أنت لم تغادر مصر من الأساس،
لقد وجدناك فى بقعة نائية بأرض سيناء خططنا لاقتحامها،

لقد قتلنا الكثيرين منهم، ووجدناك بين الجثث، كنت ترتدى زيًّا عسكريًّا وكان من السهل تمييزك»

ابتسمت وأنا أتذكر كيف تم خداعي ضحكت وأنا أتصور ماذا لو تأخروا دقائق في تنفيذ المهمة بعد أن يتم إعدامى، قهقهت وأنا أتخيل نفس الطائرات تحوم حول هذه الجزيرة لتحويلها إلى فوهة بركان بهدف إنقاذى، بكيت وأنا مدرك بأن ذلك درب من دروب المستحيل، لأنى تركت الخدمة ولا علم لهم بوجودى هنا على سطح هذه الجزيرة أو حتى موقعها على الخريطة.



«إنه في هذا العالم وعلى هذه الأرض الضائعة وحدهم الموتى يعرفون
الراحة أما الأحياء من البشر فليس لهم إلا أن يعضوا على النواجز
ليتحملوا الوجود»

آن لور بوندو

(14)

يحي

(2012-2011)

أنت الآن تسير في اتجاهين متوازيين البحث عن سالم الملاح
المختبئ في جحر ربما لا يصله إلا الهواء والإيقاع بحسام الميرغنى،
الأول لا أثر له تمامًا والثانى اسم عليك أن تكون في غاية الحذر قبل
النطق به، عليك أن تلتفت يمينًا ويسارًا قلب التلفظ بسوء تجاهه،
لديه استثمارات ومشاريع بعدد شعر رأسه بعضها مشروع والآخر
غير ذلك، لا يقول للمال لا أبدًا، معتمدًا على الحماية التى يكفلها
لها والده ذو المنصب الكبير بإحدى الجهات السيادية، حسام غير
متزوج ولكن علاقاته النسائية متعددة، فنانات، مذيعات، سيدات
أعمال، عاهرات، ينال ما يريد طوعًا وكرهًا ولا طاقة لإحداهن
بالرفض، يختار وتلبى وتحصل على المقابل القادر على جعلها
تتجاوز الأمر. ليس وسيئًا وليس قبيحًا، لكن غضبه هو القبيح،
غضبه قد تعنى مفارقتك للعالم أو على الأقل إتعاسك فى المتبقى
من أيامك بشكل جذرى، إذا أردك سيحصل عليك دون شك، أما
أنت فالوصول للقمر ربما أسهل لك من الوصول إليه، ولكنك

قد درست كل تحركاته على مدار شهر، وصار لك هدف واحد أقرب للمستحيل، ولكنك المستحيل هو أن تحيا دون تحقيقه، وهو الحصول على حسام الميرغنى الذى لولاه، ما تم اتهام سليمان بجريمته وإعدامه وما قام سالم بمحاولة إظهار براءة والده وما لجأ الى خطف أطفال للمساومة على إعادة محاكمة والده، ربما لم يكن حسام سبباً مباشراً للمقتل ولدك ولكنه الحلقة الأولى فى سلسلة ما تلا ذلك من أحداث، لديه نقطة ضعف واضحة وهى النساء، بعد مزيد من الجهد أعددت ملفاً ضخماً بشأن مشروعاته، تحركاته، علاقاته، فى وقت قليل صرت أكثر دراية بكل ما يخصه ربما أكثر منه، وبعد أن علمت كل صغيرة وكبيرة عنه أن الأوان للإيقاع به، سيكون الخبر الأسعد لعدد غير قليل من البشر اختفاء هذا الرجل من على سطح الأرض، ولكن كيف ستوقع به؟ كيف ستبعده عن كل هؤلاء الرجال الذين يحيطون به وكيف ستفتت إجراءات الحيلة والحذر التى تُنفذ بدقة من قبل رجاله؟ إنه لا يكون بمفرده إلا بصحبة امرأة، هنا يتعد رجاله قليلاً.. إذن ما العمل؟

وحدك صعب، لا بد من مساعدة، شخص تثق به، وينفذ ما يطلب دون نقاش، ومن الأفضل أن تكون أنثى والأهم أن تكون فاتنة، هنا تتذكر سالى فتاة الليل التى ضاجعت نصف ضباط الشرطة مقابل أن يبقى ملفها فارغاً، جميلة مثيرة عيونها تشع إثارة وشبقاً لا بد أن شيطاناً يسكن هناك، لم ترد طالب متعة من قبل طالما سيعود ذلك عليها بالنفع، تتحرى عنها، تجدها صارت صاحبة بوتيك، تتساءل كيف ومتى؟ حتى تفهم، الزواج من ثرى عربى عجوز عاشت معه شهراً قبل أن يصل إليه الموت لترث

عنه مبلغاً من المال أحسنت استثماره، تهاتفها وتذكرها بنفسك وتطلب منها اللقاء، لم تستطع الرفض، اتفقتما على المكان والزمان بأحد كافيهات الزمالك، أتت في الموعد، استطاعت في ثوان سبقت وصولها لطاولتك أن تأسر كل أنظار المتواجدين عمالاً وعملاء رجالاً ونساء، توشك كل ذرة في جسدها أن تمزق هذا الفستان الأسود القصير الضيق الذى لا يتسع لطفلة، تتفحصها بنظرة موقناً بأن هذا الجسد لا يطيق حياة دون رجل ولكن كما علمت أنها غير متزوجة أو هكذا تعلن، حسناً لقد أحسنت الاختيار حين يراها الميرغنى لن يطيق صبراً، تجلس أمامك والجميع يحسدك أو يلعن حظّه السيء، تحيها وتساها عن أحوالها وتبادلك نفس الأسئلة، لم تفهم بعد سبب اللقاء، لم تكن أبداً واحداً من الضباط الذين نالوها قبل، فهل حلت لك الآن؟ الفضول ينضح على وجه أتعب الكثيرين، تطلب منها خدمة فتساءل عن نوع الخدمة، فتقول بهدوء:

- هناك رجل أريده أن يراكِ Rwaiaaty

- يرانى فقط؟

- بالطبع لا، سيطلب أن يواعدك وستلين طلبه

- ولكنى توقفت عن هذه الأعمال منذ زمن يا باشا

تطلق ضحكة مصطنعة يا يحيى ولكنها لفتت انتباه الجميع وأثارت توترها ثم بصوت حاولت أن يكون منخفضاً وأنت تضغط على كل كلمة

- وبالنسبة لشقة أكتوبر التى تديرينها وبالنسبة لزيائتك من العرب ورجال الأعمال والفتيات اللاتى تختاريهن بنفسك؟ أم أنها

جمعية خيرية يا بنت ال.....؟

- طلباتك يا باشا

- هناك حفل في فندق (...) بشرم الشيخ الخميس القادم، ستقابلينه هناك، أريده أن ينهر، ستحجزين غرفة هناك قبلها بليلة ولمدة 3 ليالٍ، فقط أريده بعد أن ينتهى الحفل أن يصعد لغرفتك بمفرده، وستركن الباقي لى.

- بسيطة

- ولكن لو علم مخلوق بهذا الحديث الذى دار بيننا، ليس عليك سوى أن تودعى هذا الرأس الجميل قبل أن يغادر هذا الجسد الفاتن

تم الاتفاق فى سهولة ويسر والخطوة تسير وفقاً لتصورك وفى اليوم المحدد كانت سالى فى الميعاد تؤكد للمرة الألف بأنها استحوذت على ثلث نصيب الأرض من الأنوثة، لم تقابل بعد الرجل الذى لم يتمناها ولو فى أحلامه، فى منتصف الحفل تصعد إلى غرفتها يتبعها بدقائق حسام، وبمجرد أن يدلف للغرفة مميئاً نفسه بليلة لا مثيل لها تباغته من الخلف بضربة على الرأس، ثم تسحبه لغرفتك بينما سالى تراقبك، ثم تلقى لها بكلمات لقائكم الأخير:

- هذا الرجل سيختفى للأبد، ربما يستجوبون الجميع لاحقاً وأنت أولهم، أثق فى قدرتك على الاندهاش والانكار، لو حدث أى خطأ أعدك ستلحقين به ولو كان آخر يوم فى عمرى.

ولم يكن الخروج به من الفندق سوى أمراً يسيراً بعد أن منحته مخدراً يكفيه لينام يومين على أقل تقدير ووضعته فى حقيبة السيارة، من يجرؤ على تفتيش سيارة ضابط زميل يرتدى البدلة الميرى؟

لا أحد... هكذا حصلت عليه وهكذا نلت بعض ما تريد، أثار اختفاؤه عاصفة من الأسئلة لم تجد إجابة واحدة، تم التحقيق مع الجميع وتوجيه الاتهام لكل من حضر الحفل الأخير، ظل اختفاؤه لغزاً انشغل به الرأي العام طويلاً وراح الجميع يخمن ويحلل ويتوقع هل تلقى تهديداً فهرب للخارج فراراً من أحكام قضائية منتظرة أو جرائم مستترة؟ هل تم اختطافه على سبيل الانتقام وما أكثر جرائمه؟ هل مات هل قُتل؟ أسئلة وحدك تعرف إجاباتها وربما سألتي أوفت بوعداها وحفظت رأسها، احتفظت به داخل غرفة مغلقة طردت منها الشمس لينقطع خبره ويستسلم كل من عرفوه ليأس عظيم، الغريب أنك منذ حصولك عليه أنك لم توجه له ضربة واحدة، لم تجب له تساؤل، لم يؤثر فيك توسله، وكان هذا عذاب أكبر، أن تذيبه العذاب وتقطع عنه سبل الحياة إلا من أنفاس لا تغادر غرفة دون سبب واضح، لو كانت الحيرة تطعن لكان أكثرهم طعنات، لو كانت تؤلم لصار أشدهم ألماً. عاش محبوباً في غرفة يُعاقب على جريمة دون أن يعرف ما هي.

بعد مرور عام ونصف على وفاة أسر، وانسحابك من المنزل وتركك لداليا تجابه مآسيها وحدها، كان طلبها للطلاق صفقة مؤلمة على وجهك، والأكثر إيلاًماً إصرارها عليه .

باعت كل محاولتك بالفشل، كان جرحها أكبر مما تعى وكانت بحاجة إليك، ولكنك خذلتها، ودائماً النساء لا تنسى مهما بدا غير ذلك وأكثرهن لا يسامح، لم تعد قادرة على الاستمرار في هذا المنزل ولا أن تحيا هذه الحياة، فضلت الانسحاب كلياً هذه المرة وقع الانفصال لينفصل جزء آخر من روحك، لم يتبق منك إلا جسد لا قيمة له عجز عن العثور عن خاطف ابنه وفشل في الاحتفاظ

بحبيته، وانشغل بالحصول على رجل يجسه مقيداً في غرفة لهدف
كامن في صدرك.. لم يعد لديك إلا هدف واحد تعيش من أجله
هو العثور على سالم الذى اختفى كما لو لم يوجد أصلاً.. ترفض
أن تستسلم لإمكانية هروبه من برائتك للأبد، لو حدث ذلك
فأنت لا تستحق أى حياة ولا تستحق شهيقاً أو زفيراً يجدان سبيلهما
في صدرك وأن موتاً عاجلاً هو أشرف لك من أن تعلن عجزك،
تستيقظ لاعناً عجزك وتلعن حياتك، تستيقظ تلعن الملك.

ستستمر في البحث الباقي من أيامك التى باتت عديمة القيمة
أو يأتيك الموت ذات مساء، وقبل أن تتبه من صدمة انفصالك
عن داليا يتلو ذلك صدمة أخرى تبعثر الباقي من كيائك وتفتح
جرحاً يكفى لإخماد ألف حياة هى وفاة والدك، وجدت الجثة
متعفنة في شقته بعد أن أهملته تماماً كابن وحيد، خطأ جديد لم
يرحم ضميرك في الباقي من عمرك.

قبل وفاته قلت زيارتك له واكتفيت بالرد على مكالماته بين
الحين والآخر، لم يعلمك شيئاً بشأن مرضه ولا بالأزمات القلبية
التي تعرض لها ونجا منها بأعجوبة كان يعرف مدى حزنك
بما حدث لك بعد أسر، هكذا أخبرك طبيبه الخاص بعد العزاء
ليمنحك طعنة جديدة بقلبك الذى لم يعد به متسعٌ لجرح، لتذرف
دمعة هاربة زحفت على وجهك في تحدٍ قبل أن تلقى حتفها أسفل
ذقنك، تعود إلى بيتك وتنظر لحياتك التى لم تعد تستحق هذا
اللقب، وتعترف لمرأتك بأنك ميت عقب وفاة أسر مباشرة بينما
هذا الواقف شيخ عاجز لبقايا إنسان لم يعد له وجود .

بعد إهمالك لعملك على مدار عامين واكتفاءك بمجرد التواجد والحضور دون القيام بشيء حقيقى يُذكر، صدر قرار نقلك للعمل بسيئاء على سبيل العقاب، إما الامتثال وإما الرفض، كنت على وشك الرفض لكنك فكرت لم لا ترحل إلى مكان جديد، ربما يهون ولو قليلاً من عذابات ذكريات أصبحت دائمة لأناس كانوا هنا ورحلوا، وفي قرار مفاجئ لك ولرؤسائك تمتثل للنقل مصطحباً معك عدة صور وجمع من ذكريات سعيدة لحياة ذهبت بلا عودة ومتابعة من بعيد لقضية ظل مرتكبها طليق ينعم بالأمان بينما أنت روح ميتة تسكن جسد حي.

وبالطبع تصطحب حسام الميرغنى الذى تغيرت ملامحه كثيراً واستطال ذقنه وشعره ونحف جسده، صار أقرب لمجاذيب الشوارع والحدائق، تركته يعيش فى قبو فيلا لا يسكنها سواكما ولا يصل إليها إلا نور الشمس ونسمات الهواء، وغير مسموح لأحد بولوجها، الغرفة التى تقود للقبو مغلقة دائماً مفتاحها لا يغادر جييك إلا كل يومين أو ثلاثة وأنت تضع له طعاماً فقط يقيه حياً، مرة وحيدة حاول الامتناع عن الطعام وكنت على وشك فقدته، لكنك تمكنت من إنقاذه، لن تسمح له بقتل نفسه، ليس من أجل هذا احتفظت به، سيعيش حتى حين، أنت نفسك لا تعلم متى سيفوز بالموت.

بعد استقرارك فى سيناء تتعرف على شاب مجتهد يصغرك بعقد كامل ولكنه اقترب منك كثيراً دائماً تتساءل بداخلك ما الذى يجعله يظن بأنكما قريبين، لسبب ما اعتبرك كوالده أو أخيه الأكبر، بالطبع كان أكبر من أن تعتبره ولدك ولكن ليس مستحيلاً اعتباره أخاً لك لم تلده أمك، كان يدعى عاصم شجاعاً مقداماً لا يخاف الموت أو يعنيه،

صمتك الطويل معه واكتفاءكما بحديث العيون جعلكما متفاهمين تماماً، كان يوقرك ويستعين بك في الكثير من أموره.

مع الوقت أحببت العمل معه، ولكنك لم تبح له بسرك أو بذلك الكامن في قبوك، تعددت عملياتكما معاً في سيئاء، وضح مدى الانسجام والتفاهم بينكما، كان قناصاً بارعاً لا بد وأن له عينى صقر، لم تره يخطئ مطلقاً، يودع الرصاصة في أى قطعة من الجسد كيفما شاء كما لو كان يغرسها بيده، قبل كل عملية تدرس الأمور جيداً، تعقد معه لقاء، تختاراً سويًا نقطة تركزه المثلى، تتيح له حرية الاختيار أحياناً، وكان دومًا عند ظنك.

استكانت حياتك رغم زهدك فيها، كم مرة تمنيت الموت؟ كم مرة وددت لو جرؤ أحدهم على منحك إجازة دائمة من عالم لا ترغب فيه، غريب أمر الموت يتمنع عن منتظره، من هم بأمس الحاجة إليه ويسرع الخطى إلى كل ساهٍ عنه لديه خطط ومشاريع تحتاج أعماراً وليس عمرًا واحدًا لتحقيقها.

حياة سقيمة كترعة راكدة عديمة الفائدة بحاجة لحجر واحد يعيد إليها حركة توقظها من ثباتها، تُرى هل صار العالم بلا أحجار، أم ليس لأحدهم القدرة الكافية لحمل حجر فضلًا عن إلقائه؟

كنت متيقنًا من الإجابة حتى أتاك زائر غريب في منزلك يطلب الحديث معك، مجرد سماعك لدقات الباب أثار لديك قلقًا لا تعرف سببه ربما لأنها المرة الأولى التى تسمع فيها طرقات على هذا الباب، فواتير الماء والكهرباء تدفعها مسبقًا، حاجياتك تجلبها معك، طعامك تعده بنفسك، أما نظافة المنزل فاقترت على غرفتك التى تنام بها ومنضدة تتناول عليها الطعام، هذا البيت لم ير سواك،

من هذا الطارق؟ اتجهت إلى الباب وسلاحك وراء ظهرك، صحيح أنك ترغب في الموت ولكن عليك أن تفهم، لا مزيد من الألغاز في القليل الباقي من العمر، تفتح الباب بهدوء يطالعك وجه يتحدث بعربية فصحي ولكنة غريبة بعض الشيء فارع الطول وجهه أشقر وعينه زرقاوان وشعره مائل للصفرة:

- يجيى باشا، أسف على إزعاجك، أود الحديث معك قليلاً في أمر بالغ الأهمية

تردد في دعوته للدخول ولكنه بذكاء يلحظ ذلك فيقول:

- لا أريد أن أذنب محرابك، سأنتظر في السيارة بالخارج، يمكننا الحديث في أى مكان يروق لك.

- من أنت؟

- ستعرف كل شيء فور أن نستقر في مكان ما

بعد دقائق تغادر المنزل، تقود سيارتك وهو يتبعك، تصلا إلى مطعم هادئ اعتدت المكوث فيه، يتبعك الرجل في هدوء حتى تستقرا على طاولة في أحد الأركان بعيدة نسبياً عن أقرب الحضور:

- يمكنك مناداتى مروان، أسف على مفاجأتك بهذا الشكل ولكن الأمر يستحق.

- تفضل

- أعلم أنك تعيش حياة صعبة بعض الشيء، أكاد أرى روحك في حدقة عينيك، ظلام يسود داخلك، وعذاب تنضح به قسمااتك لا أقصد التدخل، لكن ما سيطرح عليك الآن سيجعلك تغفر لى ولكن في البداية هل لى بجوالك الشخصى؟

- ؟؟؟؟؟؟

- أعدك لن تندم ولكنى فقط أتوخى الحذر
تُخرج هاتفك وتناوله لهذا الغريب الذى بادر بإغلاقه، سيندم
لو لم يكن لديه ما يستحق، وأنت تعتقد أنه سيندم طويلاً
- أهنتك على نجاحاتك هنا فى العمل منذ قدومك، كنت
إضافة قوية جاءت فى الوقت المناسب.
- أشكرك

- حقيقة أنا أعلم عنك الكثير بشكل لا تتخيله، أعلم عن
ابنك وموته، زوجتك وانفصالك عنها، والدك الراحل، أعلم كم
أنت متعب وحن الوقت لترتاح.
- لا أعلم من أنت ولا أظن أن راحتى بيديك، لكن ما تعرفه
لا يخفى على أحد.

- ربها، لكن قل لى ما الذى تحتاجه الآن؟
تضحك وأنت تردد:

- أن أترك وشأنى

- حسناً ولكن ربها لدى بالفعل ما تريد.

- حالياً لا أريد إلا الموت، لكنى لن أسمح أن ينضم قتيلى
جديد للعائلة

- وماذا لو أقنعتك بضرورة أن تُقتل؟

لا تتذكر آخر مرة ضحكت فيها بهذا الشكل، ثوانى دقائق
ضحكاتك تجلجل فى أركان المكان، تلفت أنظار الحضور القليل
إليكم، وأنت لا تأبه وتواصل الضحك، وحين انتهت نوبة

الضحك لم تكن تظن أبدًا أن لديه بالفعل ما يقنعك بضرورة أن تُقتل.

- تعلم لولا وجود الناس حولي لحولتك إلى أشلاء، لقد تحملت الكثير من هذا السخف دون داعٍ، لا أعرف كيف أضعت وقتي معك

- عاصم باشا نحن نريدك للعمل معنا؟

- العمل معك وأنا ميت، ما هذا الهراء الذى تقوله مستر شبح؟

- بالطبع لا، نريدك حيًا بالتأكيد

- لديك دقيقة واحدة توضح سبب هذه الجلسة والهدف منها بوضوح، وإن لم تفعل أعدك بأنى لو وقعت عينى عليك ثانية ولو صدفة فلن تغادر السجن حيًا.

- يجيى باشا، لذي شيء تحتاجه بشدة وتبحث عنه بضراوة فى سنواتك الأخيرة، شيء قد تستعيد به توازنك، قد تريح به قلبك، ولكن الثمن الذى ستدفعه للحصول عليه غالٍ بعض الشيء.

- وما هذا الشيء؟

- فى الحقيقة هو شخص، أظنك تعرفه جيدًا هو سالم الملاح.



الإسانية فعل فاضح، شر مستطير آثرنا أن نجعله وصفًا جميلًا، رغم
غلبة المقرز في كل ما تأتيه من أفعال.
هشام الخشن

(15)

روبرتو روسي^س

(1990 - 1985)

أن تفعل ما يتعين عليك فعله شعور جميل يعرفه كل طالب مجتهد وموظف مثالي ومسئول شريف وحاكم عادل (والأخير لم يعد له وجود على سطح الأرض) وكان هذا هو شعوري وأنا أدير هذه المؤسسة، لم أعد مجرد غاضب وجانق بل صرت رجلاً فعالاً لم يكتف بالشعارات، خصصت جزءاً غير يسير من أرباح البيزنس الخاص بي لتمويل هذه المؤسسة، صارت كياناً عظيماً له إسهامات كبرى في دول أوروبية عديدة، ثم بدأنا التوجه لاحقاً إلى دول أخرى في أفريقيا وآسيا، الجوع والجفاف يسيطر على مساحات كبيرة فيهما ويلتهدأ أعداداً كبيرة من الأطفال، لم يكن الأمر صعباً، بل على العكس كان مثيراً وأنت ترى ثمرة مجهوداتك، أرواح تُنقذ وأطفال تُشفى ورجال ونساء يستعيدون العافية والأمل، حينها أيقنت بأن اللجنة كانت ممكنة على الأرض لو تضافر الجميع وأخلص النية وأحسن العمل، لو تخلى الجميع عن بعض أطماعه، لو استحوذ

فقط على ما يكفيه، لا ما يكفى أجيالاً قادمة من نسله، لو لم يحصل البشر على أكثر من حقهم، لحصل الآخرون على ما يكفيهم وبقية السؤال ويمنعهم الحاجة.

كان أخى يؤازرنى ويساعدنى وقد راققت له الفكرة، لقد عانى كثيراً وهو طفل ورأى أن الأمر يستحق، لم يألو جهداً تجاه المؤسسة، كما لم يألو جهداً تجاه العمل، يمكن القول بأنه الشخص الوحيد طوال عمرى الذى حاز ثقتى ولم يخذلى، اعتبرت عائلته عائلتى، وكل من هم غيره أكن فى غاية الحرص فى تعاملى معهم بما فى ذلك لويجى الذى يقف فى خانة يظنها تجمع بين الصديق الوفى والمساعد المخلص.

عقب تأسيسى لهذه المؤسسة، جالت بخاطرى أفكار عدة بشأن المستقبل، بوجه عام لا يبدو الغد أفضل من اليوم، كما أن اليوم ليس أفضل كثيراً من الأمس، الأوقات السعيدة قصيرة خاطفة قد لا تتجاوز اللحظة وذلك لأن أنفه خبر سيء يمكن أن ينهيها وأقل حبة تراب جديرة بأن تعكرها، لذا فلماذا لا أمنحهم لحظات قليلة ينسون فيها همومهم وأوجاعهم، ومن هنا جاءت فكرتى بالعمل فى مجال السياحة، مجال رائع يسبب السعادة لكل المتصلين به ضيوف، مضيفين أو عاملين، وبالفعل بدأت فى أواخر ثمانينات القرن الماضى باستقدام السياح لبلدى إيطاليا، فهى تحتل موقعاً بارزاً من السياحة العالمية كواحدة من أهم خمس دول سياحية فى العالم وبها العديد من الأماكن التى يشتهى رؤيتها الكثيرون، كيف يعيش المرء دون أن يرى برج بيزا المائل الشهير

في مدينة بيزا الذي تم بناؤه منذ حوالي تسعمائة عام، أو مدينة فينسيا وقنواتها وممراتها المائية المبهرة أو يرى الكولوسيوم (المدرج الرومانى) أحد عجائب الدنيا السبع الحديثة، والكولوسيوم هو الاسم اللاتينى للمدراج الكبير الذى تم بناؤه فى العصر الرومانى فى قلب روما القديمة فى القرن الأول الميلادى بين عامى 70 و 72 بعد الميلاد وكان وقتها المدراج الخرسانى الأكبر فى العالم، واعتبر حديثًا واحدًا من أعظم الأعمال الهندسية المعمارية على مستوى العالم، دائمًا ما يثير هذا المكان فى نفسى رهبة ما، إنه بناء فريد من نوعه بالفعل، حلبة موت رومانية صممت ببراعة فى الأصل لتشهد معارك دموية بين أسرى الدولة الرومانية وجنودها، تلتف الجماهير حول الساحة تهتف وتزأر وتشجع وتحث الجنود على سحق الأسرى فى لقاءات عنيفة غير متكافئة، حيث يُمنح الأسرى أسلحة بسيطة بدائية بينما الجنود مدججين بأقصى الأسلحة وأقوى الدروع مما يعنى موت محقق للأسرى لا محالة. ثم سرعان ما تطور الأمر لنزالات وألعاب أكثر دموية، طريقة بشعة للفتك بالأسرى وسط صيحات جماهير متحفزة متعطشة للدماء، كان هذا قائم فى العصور القديمة وعلى أرض روما فى العصر الرومانى، أما فى وقتنا الحالى فقد صار الكولوسيوم فى إيطاليا مجرد مزار سياحى عظيم يروى فترة مهمة ليست بالقصيرة من تاريخ روما، لم تسلم إيطاليا شأنها شأن الدول الأخرى من الظالمين المتصارعين على الحكم والنفوذ، الراغبين فى التوسع، الطامعين فى أملاك الغير، لكن يبقى المكان نفسه تحفة معمارية مبهرة ملهمة، ولكن أسىء استخدامها بالطبع.

حاضرة دائماً وأبدًا وحشية هذا المخلوق المسمى بالإنسان، يقدم على أفعال أكثر دونية، ويرتكب حماقات لم يقدم عليها حيوان، تلذذ بالتعذيب واختراع وسائل سادية للقتل، مصاصو الدماء يبدون أقرب للرقعة مقارنة بهؤلاء، عشت عمراً بأكمله تمنيت أن يسود العدل هذا العالم الكريه، ماذا لو نال كل مجرم جزاءه العادل؟ ماذا لو قتل القاتل واغتُصِبَ المعتصب، ماذا لو مورست الوحشية ضد من يستحقها؟ ماذا لو نال الآثمون ما يستحقون؟ ماذا لو كان جزاؤهم من جنس عملهم؟ هل سيكون ذلك وسيلة رادعة؟ هل سيقدم حمقى آخرون على ارتكاب نفس الجرائم بعد علمهم بالعقاب المستحق المنتظر؟ هل كان سيتغير شكل الحياة على الأرض؟

في اعتقادي نعم لو عاد الكولوسيوم من جديد وصار ساحة معروفة للقتال يلتقى داخله كل مجرم خسيس في مواجهة مع مجرم آخر، لو كل ديكتاتور وحشى ظالم، أو مجرم قاتل، أو معتصب غادر، ألقيناه في الساحة في مواجهة مذنب آخر وسط حشود غفيرة من البشر تنعم بعدالة مفقودة وهى ترى النهاية المؤسفة لكل ظالم متجبر، ربما تغير الأمر كثيرًا.

وصلت لهذه القناعة مع إتمامى لعامى الخامس والخمسين من العمر، الأرض تحتاج لكثير من العدل، تقديم المساعدات وعلاج المرضى وإغاثة المحتاج والمواساة والتعاطف ليسوا كافيين، فذلك لن يمنع فسادًا مستشرًا فى الأرض، بل يجب ردع المجرمين العتاة من لا يملكون ذرة واحدة من الرحمة، يجب أن ينالوا بعض ما اقترفوه،

يجب أن يلاقوا نهاية شنيعة تليق بأفعالهم، هؤلاء يستحقون
الوحشية والجنون، الثأر منهم عدل والقتل فيهم حلال، الموت
هو سبيل الخلاص منهم ولكنه لن يكون قتلاً رحيماً أبداً، يجب
أن يكون قتلاً قاسياً مؤلماً، يشفى غليل المظلومين ويرهب جميع
الظالمين، يجب على الكولوسيوم أن يعمل ليس كمزار بل كساحة
تنتصر للعدل، سيطرت على رأسى هذه الفكرة وتملكتنى تماماً،
ولكن كيف السبيل لتحقيقها، كيف؟ كيف؟

كيف لا يكون دجالاً من يعلم الجائعين شيئاً آخرًا غير
تعليمهم كيف يتخلصون من الجوع؟



«من ليس في قاربه مكاناً للغارقين فلا مكان في قلبه للشفقة.

من لا يعرف كيف يقدم العون فعليه أن يسكت.»

برتولت بريشت

(16)

عاصم - الجزيرة

أبريل 2015

لن أنسى ما حييت ما تعرضت له من عذاب، وما كنت أنا مقبل عليه، حتى نجاتي من هذه الحادثة حملت في طياتها عديد من الأمور غيرت مجرى حياتي، حين عدت وتم نقلي إلى المستشفى اضطر الأطباء لاحقًا لبتراً أصبعين من قدمي نتيجة تجمد الدماء بهما وتلوث الجرح لفترة طويلة وهو ما اعتبر السبب الرئيس لتركى الخدمة بعد ذلك، إصابة كهذه لن تتمكنى من مواصلة عملي بنفس الكفاءة ويصعب معها استمرارى فى أداء مهامى وتمت إحالتى للمعاش بعدما تم تكريمى تكريمًا بدا ودودًا مستحقًا ولكنه مجرد تعويض عن قرار تقاعدى الجبرى، حياتى تحولت بوصلتها مائة وثمانون درجة وهذا التغير هو الذى قادنى إلى هنا فيما بعد.

وفى عام 2013 حصلت على مكافأة لا بأس بها تصلح نواة لبدء مشروع تجارى، بدأت فى الإعداد والإجراءات وسط دعوات والدتى التى تشعر من فترة بأنها ليست على ما يرام، تتوالى الأيام ويزداد شعورها بالإعياء وإصابتها بالدوار، طلبت منها مرارًا

البقاء في فراشها، وعدم إجهاد نفسها، حتى وجدتها ذات يوم بينما كنت عائداً من الخارج فاقدة للوعى على عتبة غرفة نومها، تملكنى الفزع في برهة حالكة من هول ما أتخيل من خسران مبهم وخيف، هرعت إلى الشارع لا جأً إلى أول عيادة قابلتني، اقتحمت غرفة الطبيب رجوته ثم أمرته ثم عدت لأتوسل إليه، وحين لمس جنونى رافقنى على عجل طلب الإسعاف بعد قيامه بالكشف عليها، جاءوا وحملوها وأنا معهم، فور وصولنا نقلوها إلى غرفة الإنعاش، شبت النيران بداخلي، كانت أعصابى تحترق حرفياً، حتى جاءنى أحد الأطباء المشرفين على حالتها وأخبرنى بأن الحالة استقرت ولكنها بحاجة لبعض الفحوصات للوقوف على أسباب ذلك.

بعد يومين أذنت المستشفى لها بالخروج على أن أعود لأتسلم نتائج الفحوصات بعد يومين، فعلت كما طلبوا وعدت واستلمت الفحوصات وقابلت أحد الأطباء، اطلع عليها في صمت أربكنى، ظل يقلب في الأوراق ويتفحص الأشعة ويسترق النظر إلى خلصة وحين طال الصمت سألته في غيظ «ماذا تقول الفحوصات؟» فأجاب في حرج «لا أدرى ماذا أقول ولكنه دورى، حقيقة والدتك تعاني من حالة متقدمة من ورم سرطانى بالمنخ، وهى بحاجة لفحوصات جديدة للتأكد هل يستلزم تدخل جراحى فورى حتى لا تتفاقم الأمور ويؤثر ذلك على حاستى السمع والبصر، أخطر أنواع الأمراض تلك التى تصيب الرأس»

حين أنهى كلماته كانت الغرفة تدور بى والأرض تميد تحت قدمى، لا شىء ثابت فى مكانه، كدت اختنق جراء كلماته وساد الظلام أمامى، ظلام لا يحمل إلا خيالات تتجول بها أشباح مجنونة تسخر منى وتخرج لسانها فى محاولة للتشفى على ذنب لم ارتكبه.

عدت إلى المنزل وعيناي تفران من عينيها، حاولت جاهداً ألا يتلاقيا، كيف سأخبرها؟ بمزيد من الجهد أخفيت تلك الأنباء وعبثاً حاولت الانغماس في موضوعات مختلفة نتجاذب الحديث فيها ولكن كان شرودي يقطع كل الخيوط.

في اليوم التالي خرجت من المنزل لإحضار بعض الحاجات، وحين عدت، طرقت الباب مرة وراء أخرى، لإجابة، كررت المحاولة، لا جديد، انتابني القلق فجأة، هل أغشى عليها من جديد؟ بسرعة أخرجت المفتاح، فشلت في إيلاجه من جديد، استجمعت تركيزي وكانت أشبه بمحاولة الاحتفاظ بالماء في راحة يدك، أخيراً نجحت، هرولت إلى الداخل، تفحصت أنحاء المنزل، لا وجود لها، أين ذهبت؟ ما الذى جعلها تغادر المنزل دون إخباري؟ لقد نصحتها الطيب بالراحة التامة، كانت الساعة تقترب من التاسعة ليلاً والحيرة تنهش كل ذرة في عقلي، جلست على أقرب مقعد قرب الباب وعيني معلقة على ساعة الحائط، عقرب الثواني يتلكع في دورانه بينما عقرب الدقائق بحاجة لمعجزة من أجل حركة، بعد قليل فوجئت بهاتف والدتي يرن كان رقماً غريباً

«عاصم زيدان؟»

«نعم.. من معي؟»

«والدتك بخير حال لا تقلق.. إنها بانتظارك في مستشفى

..... تتلقى عناية فائقة »

«من أنت؟ ولماذا هي هناك؟»

«ستفهم.. حين تأتي، نحن بانتظارك»

مرتابًا وقلقًا اتجهت إلى المستشفى وهى نفسها التى اصطحبتها إليها أول مرة، قابلت الطبيب فأخبرنى بسوء حال والدتى وأنها بحاجة لتكون تحت رعاية، ثم جاءت إحدى الممرضات تخبرنى بوجود من ينتظرنى بالاستقبال.

تذهب إلى حيث أشارت لك الممرضة لتجد بانتظارك رجلًا فارع الطول وجهه أشقر وعيناه زرقاوان وشعره مائل للصفرة.

تتجه إليه بوجه مقتضب وتقول فى حدة «من أنت؟»

ليأتيك الرد بعربية فصحي ولكنة غير معتادة

«ارجوك، أعطنى الفرصة وستفهم، نحن هنا لأجلك ولأجلها»

«وكيف جئت بها إلى هنا؟»

«قمنا بالاتصال بك ولكن هاتفك لم يكن متاحًا، فذهبت فى زيارة إليك فى منزلك، وفتحت لنا والدتك الباب ودعتنا للدخول حين علمت بأهمية الأمر وبينما نحن بانتظارك، سقطت مغشيًا عليها، فجئت بها إلى أقرب مستشفى، فوجدتهم على علم بحالتها وشرحوها لى»

«وما الذى تريدنى فيه، ولا يجتمل الانتظار؟»

«أريدك فى عمل»

«أى عمل؟ لدى عمل بالفعل»

«عاصم باشا، نحن نعلم عنك كل صغيرة وكبيرة، نعلم بشأن تركك لخدمة وتقاعدك، حتى المشروع الذى تتوى البدء فيه، لا أظن أن هذا مجالك، نحن بحاجة إليك»

«من أنتم وفيم الحاجة إلى؟»

«لا أظن أننا يمكننا الحديث هنا، هناك مكان يصلح للجلوس
بالجوار، هلا ذهبنا إليه وشرحت لك الأمر!»

«والدتي؟»

«إنها بحاجة للراحة، ونحن لن نتأخر أكثر من اللازم»

اتجهت معه إلى واحدة من الكافيتيريات الشهيرة في هذا الحى،
وجلسنا متقابلين، شيئاً ما يخبرنى بأن هناك شيئاً غريباً لا أدرى
ما هو، بعد أن طلبنا مشروبين لكل منا، وضع يديه على الطاولة
واقترب منى قائلاً:

- والدتك تعانى حالة متقدمة من السرطان، علاجها عسير هنا
وعلى الأغلب سيجعلها تمر بأوقات عصيبة وهذا ما لا نريده لها،
عليها بالسفر للخارج لاستكمال علاج فعال ودقيق وغير مؤلم،
ونحن سنتكفل بذلك

- نحن، نحن؟ من أنتم بالضبط؟

- لا يمكننى التصريح الآن بكل شيء، ولكنى سأعطيك ما
يهمك، يمكن اعتبارها مؤسسة مهمتها الأولى تخفيف الألم بشتى
أنواعه بكل وسيلة ممكنة، لقد جاء البشر إلى هذا العالم وجاءت
معهم المعاناة التى تختلف من فرد لآخر ومن مجتمع لآخر، نحن
هنا للتدخل بأية صورة تحد من الألم والمعاناة التى يعانىها البشر
كان كلامه عجيبياً ينم عن جنون يتخذ شكلاً جدياً فقللت
ساخرًا:

- هل تعلم عدد الذين يعانون من المرض الذى أصاب
والدتي؟ آلاف.. هل ستعملون على تخفيف آلامهم جميعاً، وحتى
لو فعلتم، فلا بد من ممول أو مجموعة ممولين

- اسمع أستاذ عاصم، نحن بالفعل نساعد العديد من المرضى هنا وبالخارج بتبرعات عينية دائمة، ولكن والدتك صارت تمثل لنا أولوية قصوى

- لماذا؟ هات ما عندك .. ما المقابل لذلك؟

- إننا نريدك أن تتعاون معنا وتنضم لنا في المؤسسة.

- ما هذه المساومة؟

- كلا لا تعتبرها مساومة، والدتك ستلقى العلاج سواء قبلت أو رفضت، ليس هنا ولكن بالخارج كما أوضحت

- ولكن لماذا أنا؟

صمت الرجل وابتسم ابتسامة خفيفة ثم أردف:

- ليس بوسعى منحك كل الإجابات ولكن تأكد من رغبتنا القوية في انضمامك لنا، أنت رجلنا، ولديك الوقت الكافي لدراسة الأمر، وبالتأكيد لديك حق الرفض، نصيحتى لا تفوت هذه الفرصة، ستعيش كأمر وسنرتب لك أمورًا بالخارج تمهيدًا لاستقرارك هناك بوحدة من الدول الأوروبية

- أنا أريد والدتى الآن .. أنفهم؟

- بالطبع أنفهم ولذا نحن سنقدم لها كل ما تحتاجه بغض النظر عن قرارك النهائى بشأن عملك معنا وتذكر دائماً كنت تقوم بعمل نبيل يحتاج شجاعة وعزم وما أدعوك إليه لا يقل نبلاً عنه بل يحتاج رجلاً ذا سمات خاصة نرى أنها تتوافر فيك، بالمناسبة هناك طبيب ألمانى فى زيارة للقاهرة سيتابع حالتها عن كثب، سينتهى عمله بعد أسبوعين من الآن وهو الوقت المتاح لك للرد بشأن هذا العرض، وحتى تتخذ قرارك رجاء حاول ألا تخبر

أحدًا بشأن العمل معنا ونرجوك لا تسبب لنا أو لنفسك المتاعب،
تذكر هدفنا تخفيف الألم وليس التسبب فيه والآن يمكنك العودة
لوالدتك.

تركنى حائرًا.. ما المؤسسة التي تريد خدماتي وتصر على
ذلك بل ستتحمل أيضًا تكاليف علاج والدتي؟ ما الذي يريدونه
تحديدًا؟ ولماذا أنا؟ وماذا لو رفضت؟ كيف سأترك علاج والدتي
بيد هؤلاء؟ ولو قبلت أى مفاجات سألقى؟ وما الذي يضمن لى
ألا أندم على قرارى هذا؟

وها أنا جالس وحيدًا فى زنزانة حقيرة بحصن فريد على سطح
جزيرة نائية فى أقصى أطراف الأرض، ومعى كل الوقت لأمارس
الندم فى تمنع.



«دائماً ما تبدو الأسئلة كشموس مشرقة في سماء العمر بينما تتجمع
الإجابات جميعها على سطح القمر، ولم نكن يوماً رواد فضاء!»

(17)

يحي

هل دبت الحياة فيك من جديد، حين سمعت جملة الأخريرة؟
عاد نبضك ليتسارع وكأن قلبك بُعثت فيه الروح بعد غياب
طويل، لمعة في عينيك التى ازدادت اتساعاً بعد انكسارها أياماً
طويلة، أفكار كثيرة فى رأسك تتسارع وأنت بادى الاندهاش،
فضول ينهش جسدك لتسمع المزيد، ليدلك على هدفك، رغبة
عارمة كاسحة لا تقبل الشك فى أنك مستعد لتقديم أى شىء، أى
شىء يطلبه هذا الزائر الغريب فقط لو كان ما يقوله صحيح،
الآن تعادل فى جلستك، تشد ظهرك، تميل برأسك للأمام مستنداً
بكوعك على الطاولة، عيناك مثبتة عليه:

- سالم الملاح؟ هذا ما قلته.. صحيح؟

- بالطبع

- متى يمكننى الحصول عليه؟

- عقب أن نتم اتفاقنا

- وما المطلوب؟

- الباقي من عمرك!

لماذا يصر هذا المعتوه على إثارة غضبك؟

- لا أفهم، تحدث بوضوح من فضلك

- سأمنحك سالم الملاح ولكن بعد أن تقبل الانضمام لنا في العمل.

- أى عمل؟ بالتأكيد ليس لدى ما يمنع من مساعدتك فى أى أمر تطلبه.

- أنا لا أطلب مساعدة، بل أقدم لك عرضًا بالعمل معنا، عمل يتطلب تفرغ كامل وإنهاء عملك الحالى وعدم البقاء فى مصر، ستعمل بالخارج، كلامى واضح يا يحيى باشا.
- أى عمل هذا؟ ربما لا أجيده، كل خبراتى عسكرية، قتالية.

- وهذا بالضبط ما نريده، لن أعطيك المزيد من التفاصيل، إلا بعد اتخاذ قرارك النهائى، بالمناسبة سالم ليس فى مصر ولكنه بحوذتنا، لذا أى محاولة غير محسوبة بتبعى أو تهديدى أو التعرض لى بأى شكل، فلن تجنى من ورائها أى مكسب بل ستخسر الكثير وبعد أن كنت هدفًا للعمل معنا، ستصير هدفًا لنا، لا تعتبر هذا تهديدًا بل مجرد توضيحًا للأمر، يمكنك الرفض كما يمكنك القبول دون أن يسبب أحدنا الضرر للآخر وتذكر لا إجبار هو الشعار هنا.

- ألا تلاحظ أنه من العسير ترك عملى هنا؟

- لذا تبدو فكرة موتك فكرة ممتازة، فكّر فى الأمر جيدًا!
وخذ هذه الصور ستسهل من حسمك للأمر!

ثم يخرج من جيبه مجموعة من الصور المختلفة لم ترها من قبل لشخص واحد، تدقق النظر جيدًا، إنه هو سالم، لقد تغير قليلاً، لكنك تعرفه أكثر، تحفظ ملامحه.

يقطع لهاثك وتسارع أنفاسك بسؤال حاسم:

- كم من الوقت يلزمك لاتخاذ قرارك؟

- ماذا لو اكتشفت أن في الأمر خدعة؟ أو أنكم تعملون لصالح دولة ما؟

- يمكنك العودة لبلدك ومعك رأسى إذا رغبت، ولكن تذكر لا أحد أيضًا يخدعنا، سنمنحك هدفك مقابل مبتغانا.. واضح؟
في حقيقة الأمر لم تكن بحاجة لوقت للتفكير، لا مجال للتردد هاهنا، فقط تريد أن تفهم من هم؟ كيف عثروا عليه؟ كيف علموا بأهميته لديك؟ ما نوع العمل الذى يريدونك فيه؟ هل يمكن قبوله؟ كيف ستترك عملك الحالى؟ دائماً أسئلة أكثر وإجابات أقل، دائماً ما تبدو الأسئلة كشموس مشرقة في سماء العمر بينما الإجابات تتجمع جميعها على سطح القمر، ولم تكن يوماً رواد فضاء!



«الإنسان هذا المبيد، يلاحق كل من يعيش، كل ما يتحرك، قريباً
سوف نتحدث عن آخر قملة.»

إميل سيوران

(18)

روبرتو روسي^س

(1990 - 1995)

كانت تقارير المؤسسة تصل إليّ مع رصد لما تم إنجازه، وجدنا أطفالاً ملقاة في الشوارع بأيد ذويهم، وشيوخاً مطعونين بيد أبنائهم، نساء اغتصبت، ورجال قهّرت وأطفال تكابد، الألم يحتاج، والبؤس يسيطر على أعداد غفيرة، بلا رحمة ودون تراجع.

ذاع صيت مؤسسة الأيادي البيضاء في إيطاليا وأوروبا ومناطق متفرقة من آسيا وأفريقيا، صارت عوناً حقيقياً لمئات وآلاف، رسمت بسمّة على الوجوه وأزالت الهموم عن كثيرين، منحت اليائسين أملاً، والمرضى شفءاً، والجوعى طعاماً، والمشردين مأواً والعارين كساءً، أغثنا الملهوف وقضينا حاجة المحتاج، قدمنا أفضل مردود، صرنا رد فعل مثالي يحتذى به، عملنا بجد واجتهاد، أخلصنا لهؤلاء المكافحين، الكادحين الذين لم يسلموا من بطش الحياة واختباراتها الكاسحة، دخلنا

رغمًا عنا في صراع مع وحوش ضارية تسحق بدون سبب هؤلاء الذين فقط أرادوا أن يعيشوا، وصارت تلك الوحوش تجرح ونحن ندأوى، ترهب ونحن نظمئن، تهجم ونحن ندافع، كنا رد فعل ممتاز ولكن هذا لا يكفي، الطاغى مستمر في طغيانه، والظالم لا يتوقف عن ظلمه والطامع لا يشبعه ما لديه من كنوز تكفى أحفاد أحفاده ليعيشوا ملوگًا، لا يكفي أن نواسى فقط، علينا أن نهاجم، أن نبرز أنيابنا ونغرسها في أعناقهم، سنترفع عن الصغائر، فالبشر دائمًا خطاءون، ولكن المجرمون الكبار الذين ألحقوا بالبشرية العار، الذين تخلوا عن إنسانيتهم طواعية وازدادوا حيوانية أكثر من الحيوان، الذين لطحوا الأرض بالدماء، أولئك لهم حساب عسير، رويرتوروسى لن يرحمهم، سأنتزع أنيابهم وأقطع أيديهم، سينالون حظهم من المعاناة، سيرون العذاب المقيم قبل الوصول للجحيم.

يجب أن يكون لمؤسسة الأيدى البيضاء ذراع بتار كما لها يد عطوف، ذراع يبطش كما لها يد تهدد، وهكذا خططت لوضع حجر الأساس لمنظمة فرعية داخل مؤستى الكبرى، منظمة تحارب الفساد والمفسدين، تنتهج أساليبه وتمارس وحشيته ضد من يستحق، لن تأخذنى بهم شفقة أو رحمة، القاتل سيقتل، والجلاذ سيجلد، والعاتى لن يذوق مثقال ذرة من رحمة، دائمًا ما كانت تمارس القسوة والوحشية ضد من لا يستحقونها، لماذا هم أكثر من يتعذب على هذه الأرض، بينما من هم جديرون بها يحيون حياة رغدة مرفهة يتنعمون

فيها بأموال وأقوات من أفقر وهم وأذلهم؟ لذا ما المانع بأن يحظى هؤلاء المجرمون ببعض مما كسبت أيديهم من ظلم، سأمزقهم قطعاً قطعاً وأفرق أعضاءهم على من يحتاجونها، سأمص دماءهم لأحقن بها من هم بحاجة ماسة لها، سأمنح الحياة لمن يستحقها وأقطعها عن من يطيح بالآخرين ويستتهن بأرواحهم، حان الوقت ليدوقوا وبال أمرهم وفي ذلك سلوى كبيرة للمطحونين المهمشين المقيدون في سجلات الأحياء دون حياة،

الأمر ليس يسيراً، لكنه ليس مستحيلاً، لن يعوقه حاجة مال، ولكنه بحاجة لرجال أكفاء، الخطأ ليست كلمة واردة في قاموسهم، ولكن كيف يمكن الحصول عليهم؟ لن أبدأ إلى رجال العصابات والمافيا بالطبع، هؤلاء من سأحاربهم لن اعتمد عليهم، فكرت في المرتزقة ولكن هؤلاء غدرهم أكبر من وفائهم، يمكن شراؤهم وولاؤهم لمن يدفع أكثر، من يمكن الوثوق فيه والاعتماد عليه؟ نحن بصدد تكوين فرقة قتال، جيش من الأسود التي لا تكف عن الزئير، لا يسمحون بالخطأ ولا يهابون الموت، رجال تخوض المعارك وتريق الدماء، رجال لا تأخذهم رحمة بأعدائهم أين أجدهم؟

برقت في بالي الفكرة، وشرعت أقلبها يميناً ويساراً، حتى نضجت في رأسي، العسكريين ورجال الشرطة لهم باع طويل في محاربة الجريمة ومطاردة مرتكبيها، وحماية أهداف بعينها، عقيدتهم ثابتة وولاؤهم مضمون هذا ما تعلموه ومارسوه،

ولكن كيف يمكن استمالتهم وإقناعهم، خاصة وأن لديهم عمل يدر عليهم أموالاً بالفعل ليست بالقليلة، يعملون في العلن ويتمتعون بالسلطة والنفوذ، بل على العكس قد يرى بعضهم فيما أبغيه انتهاكاً للقانون وتعدياً عليه، قانون لا يصل إلا لعدد قليل من المجرمين ويفشل مع المخضرمين منهم، قانون لا يردع أحداً ولا يعول عليه في الإصلاح، لا بد من طريقة ما، إنهم الوحيدون دون غيرهم القادرون على تحقيق أهداف بدقة، هنا سطع الحل في رأسي معلناً عن نفسه، لماذا لا نلجأ للمتقاعدين منهم؟ يتقاعد أغلبهم لأسباب متباينة ليست جميعها عدم القدرة على إنجاز المهام، ربما يتقاعدون بناء على رغبتهم، ربما يبحثون عن عمل ينجي ربحاً أكبر، حسناً سأبدأ بأعداد قليلة منهم، حتى وإن لم تتجاوز أصابع اليد الواحدة، المهم أن أبدأ وكلّي ثقة بأنهم سيتزايدون سواء كانوا من إيطاليا أو خارجها، سأغدق عليهم الأموال، سأقنعهم بعظمة ما هم بصدده، بأهمية تجاوز ثغرات القانون للوصول إلى عدالة لا يستهان بها، ولكن حتى هؤلاء كيف سأصل إليهم؟ من العسير إدارة أمر كهذا وحدي، لذا كان لابد من عرض الأمر على اليّساندرو وكذلك لويجي، هكذا فعلت، لكن كليهما لم يتحمس، لويجي رأى مبالغاً وأحمل نفسي ما لا أطيق «إصلاح الكون ليس بمقدور أحد، الشر باقٍ بقاء البشر، كما أن ما تقترحه سيعرضنا لمخاطر نحن في غنى عنها» كانت كلماته واقعية محبطة ثبّطت من عزيمتي وإصراري، أما أليّساندرو فبرغم عدم تحمسه، إلا أنه التمس لي العذر،

إنه يعرفنى كما أعرفه، يعلم كرهى للظلم والظالمين، يعلم سخطى على البشر والعالم، لذا هداً هو لويجى وبدأ فى التفاهم معه، لم يكتف بذلك، بل قال أنه لديه صديق تنطبق عليه الشروط، كان رجلاً عسكرياً لم يتجاوز الأربعين ونتيجة لخطأ ما تم الاستغناء عن خدماته، سألته «ماذا لو تكرر الخطأ؟» فأجاب بثقة «ليس من الرجال الذين يخطئون مرتين» «ما اسمه؟» «كلاوديو، كما أنه يجيد عدة لغات» بدأ الأمر هكذا رجل ثم آخر ثم آخر من إيطاليا وخارجها، حتى استطاع كل متقاعد منهم على جلب آخر للمشاركة معنا، ووضعنا قواعد وأسس للعمل، من هم الذين سيقعون تحت طائلة أهدافنا؟ كيف سنوقع بهم؟ كيف ستتعامل معهم؟ ما المسموح وما المنوع فى عملنا؟ كيف نحصل على معلوماتنا؟ وهكذا صرنا نتبع أى جريمة تفشل فيها الشرطة أو يتم كسر عنق القانون تفادياً لإقرار العدل سواء كان ذلك مقابل دفع رشوة أو اعتماداً على واسطة أو تبادل مصالح على مستويات عليا، انضم إلينا عدد من رجال القوات الخاصة لاحقاً، اختيارنا لم يكن عشوائياً، والانضمام لنا لم يكن يسيراً، لا بد من الثقة، أى خطأ قد يهدد المنظمة بأكملها، لن تصدق كم المجرمين الذين يفلتون من العقاب، أو الذين لا يصل إليهم القانون من الأساس، لن تصدق كم المجرمين الحاصلين على براءة غير مستحقة، لن تصدق إلى أى مدى يقف القانون عاجزاً عن إثبات تهمة الجميع يعلم مرتكبها، ليس هناك أسهل من حكم بالبراءة لعدم ثبوت الأدلة أو كفايتها، حين اقتربت من

الحقيقة أدركت كيف تسير الأمور، كيف يتجرأ الناس على ارتكاب جرائمهم، كيف يمنون أنفسهم بالإفلات وكيف يتحايلون للهروب، وكيف ينجح أغلبهم في ذلك، لذا لا عجب من ارتكاب المزيد من الجرائم، لا عجب من دهس المزيد من البشر، قتل، تعذيب، تشريد، إرهاب، اغتصاب، تجارة أعضاء وكل ما تصادفه من أهوال لا تصدقها العين في صفحات الحوادث ونشرات الأخبار.

لم نتبع صغار المجرمين اللصوص والنصابين والمخادعين، أولئك أكثر من أن نحصيهم، أولئك دائماً لديهم فرصة للتراجع، جرائمهم محدودة وقتية ليست ذات تأثير خطير ولكن كل من تتبعناهم أفرطوا في القسوة ولم يخطر ببالهم مجرد خاطر التراجع عن جرائمهم، ما إن ينتهوا من جريمة حتى يخططوا لغيرها، بل وقد يشتركون في عدة جرائم دفعة واحدة في أوقات متقاربة جداً، محترفي إجرام بحق، في بداية عملنا كان هدفنا الحصول على هؤلاء المجرمين وقتلهم ليكفوا أذاهم عن المزيد.

ولكن كانت هذه مجرد بداية في حربى معهم، ما ينتظرهم مساوٍ لمقدار وحشيتهم، وإن سألوني الرحمة سأملأ أفواههم بالتراب، روبرتو روسى سيضع عقوبات جديدة يقشع لها أبدان المجرمين وعلى مختلف القوانين أن تحذو حذوها، صدقونى ستنالون العدالة وتنشرون العدل بأسرع مما تتخيلون.

وبعد شهر صار لدينا عدد كبير من المتبعين وعدد من المحققين الباحثين عن المجرمين، وعدد من رجال أكفاء

ذوى مهام خاصة، صار للمنظمة جيش من المقاتلين الأفذاذ من مختلف الأنحاء أمريكيين، أفارقة، أوروبيين، ينقلون كثيرًا ويجوبون أراضٍ كثيرة بين المهمة والأخرى، لا تتكرر عملية لنفس الفرد على نفس الأرض لفترة فعندما تفصل بين العمليات مئات الأميال والعديد من سلطات التحقيق، يتضاءل احتمال ربط الجرائم ببعضها، قد يبدو المشهد من نافذة طائرة واضح مترابط، بينما يتعسر ذلك من رجل على الأرض.



«رائعة هي العدالة وأروع ما ستكون لو لم تأتِ متأخرة سنوات
طوال..»

(19)

عاصم - تكساس

يونيو 2013

علمت أن اسمه مروان ذلك الرجل الذى يبدو وكأنه مرسل من السماء لإنقاذ أمى، مندوب مؤسسة «الأيادى البضاء» فى الشرق الأوسط، مؤسسة لها باع كبير فى الأعمال الخيرية، تبينت من تلك المعلومة ولكن ما الذى يمكننى تقديمه لهذه المؤسسة؟ طالبنى بعدم القلق وأخبرنى بأن والدتى ستذهب لأكبر مركز طبى متخصص لعلاج الأورام فى أمريكا والعالم، وهو مركز إم دي أندرسون فى هيوستن بتكساس على السهل الساحلى الواقع فى جنوب وسط الولايات المتحدة، ويعتبر هذا المستشفى جزءاً من مركز تكساس الطبى، والذي يعتبر بدوره أكبر مراكز الرعاية الصحية والبحثية فى العالم. سألته «ولكن هذا سيتكلف كثيراً جداً»

«لا تقلق، نحن متكفلون بكل شىء»

بداخلى شعرت بالخرج، هذا الرجل ومؤسسته يتكفلون بعلاج أمى ولديه عرض لى للعمل، هل من الحكمة رفض هذا

العمل؟ على أن أفهم طبيعة العمل، ولكننى فوجئت برده، «لا تقلق، ستعرف كل شىء فى وقته»

فى يونيو من عام 2013 أنهينا إجراءات السفر واصطحبنا كافة الأوراق التى توضح حالة أمى واتجهنا إلى هذا المركز، على أن يلحق بنا مروان فى أقرب وقت لم تكن هذه زيارتى الأولى للولايات المتحدة، زرتها من قبل أثناء التحاقى بعملى السابق، غير أنها زيارتى الأولى لتكساس، تعتبر ثانى أكبر الولايات مساحة بعد ألاسكا، يتميز مناخها بالاعتدال ولكن كما علمت من الوارد حدوث تغير مفاجىء فى درجات الحرارة، لذا اصطحبنا معنا مزيج من الملابس الصيفىة الخفيفة والملابس الشتوىة الثقيلة، وكانت المفاجأة حين علمت بأن الأعاصير ضيف دائم على هذه الولاية فى أشهر معينة والجميع يتضرع كى تمر بسلام.

حين وصلنا إلى المركز كانوا بانتظارنا وفقاً لخطاب مؤسسة (الأيادى البيضاء) بعد إدراج اسم أمى فى الكشف، استقبلونا أفضل استقبال، لم يهدروا وقتاً، واصطحبوها إلى غرفة مخصصة لها، كما أعدوا غرفة خاصة بى كرفيق لها، مستشفى فخم وأنيق، نظيف بشكل لا يمكن تصوره، يهتم بكافة التفاصيل، أحد الأطباء أخبرنى بأن حالة والدتى تستلزم تدخل جراحى، وهم فى طور إعدادها فى خلال أيام صحياً ونفسياً لدخول غرفة العمليات، كانت والدتى صابرة راضية وخاصة مع اشتداد المرض وقدام العون على يد مروان الذى حكيت لوالدتى عنه،

نظراتها إلي باتت غريبة كانت تحديق البصر بى طويلاً وكأنها تُملئ عينها منى، شعورٌ يخيفنى حين يراودنى مجرد التفكير بأن أفقدها، ليس لى سواها، هى حياتى وكل أهلى، هى من جعلتنى رجلاً، فى الحقيقة أنا مدين لها بكل شىء، اعتيادى وجودها جوارى أغفلنى مدى هشاشتى دونها، مرضها كارثى إن لم يود بحياتها، سىبب لها ألماً لا تحتمل، هذه هى سمعة هذا المرض لدينا، أتمنى أن يكون المرض أكثر رأفة بها هنا وسط جهابذة الطب وأحدث التقنيات، بعد ثلاثة أيام وصل مروان، اطمأن على حالة والدتى، وفى نفس يوم وصوله أخبرنا الطبيب بأن عملية ستجرى لوالدتى بعد غد، كان قلبى يرتعد خوفاً عليها، لم أجد بجوارى سواه يوم العملية، كان يتعامل بحميمية ومودة لا تتناسب مع الفترة القصيرة التى أعقبت تعارفنا، استمرت العملية ثلاث ساعات لم أتوقف فيها عن الدعاء، بينما مروان يرمقنى بنظرات عطفوة، خرج الطبيب ليخبرنا بنجاح العملية ولكن والدتى مازالت تحت تأثير المخدر، بكيت من الفرحة كالعجائز وعانقنى مروان وهنأنى بفصحته العربية العجيبة، عقب ساعتين استفاقت أمى وبادلتنى الابتسام دون كلمة واحدة، كان الأطباء والمرضات حولها يطمئنون عليها وعلى كافة وظائف الجسد، بدوا وكأنهم مجموعة من الملائكة ليس لهم دور سوى رعاية أمى.

عقب اطمئنانى عليها، اصطحبنى مروان لحانة قريبة من المركز تنبعث منها أضواء هادئة وموسيقى خفيفة تكاد لا

تلاحظ، اخترنا طاوله بعيدة عن الزحام وطلبنا فنجانين من القهوة، عقب وصولهما بدأ في الكلام:

- والدتك ستحتاج لفترة من الرعاية هنا قد تصل لشهور لضمان سلامتها ولعدم حدوث انتكاسة لها، تكاليف إقامتها والعملية تم سدادها بالكامل، ولن يتأثر ذلك بموقفك من العمل معنا.

- أخيراً، سأفهم ماهية العمل الذي تحتاجونني فيه.

- إنه ما برعت فيه طوال عمرك.

- كيف يفيدكم ذلك، أنتم مؤسسة خيرية؟

بدا كشخص على وشك إلقاء قبلة، خفت صوته واقترب مني وهو يهمس:

- ما سأقوله سيبقى سرًا مهما حدث لمصلحتك، وعليك القبول أو الرفض، مؤسستنا خيرية بالفعل، تعالج المرضى وتدعم الفقراء ولها أنشطة خيرية متعددة في كل مكان، ولكن دورها لا يقف عند هذا الحد، لسنا مجرد رد فعل تجاه الكوارث والأزمات، كما نقدم الدعم لمعدومي الحيلة من البشر، فإننا لانترك من أوردتهم المهالك، كل قاتل، ظالم، سفاح من النوع الذي لا يمكن للقانون أن يردعه أو لضميره أن يستيقظ، من لا يتوقفون عن سفك الدماء أو زهق الأرواح، أولئك صيد لنا، ولن نجد قناصًا أفضل منك ليساعدنا في ذلك.

- قاتل مأجور؟ هذا ما تريدونني فيه

- ليس كذلك، نحن لن نطالبك بقتل إلا من يستحق القتل، الذين يعيشون في الأرض فسادًا، رجل قتل عشرات لماذا نتركه لقتل المزيد؟ مجرم حرب أنترکه يفر بفعلته؟ نحن لا نستهدف أى قاتل، تحت أى ظرف يمكن للإنسان أن يتحول لقاتل كما فعل ابن آدم، ولكن من يحترف القتل، من لا قلب له، من يستهين بأرواح الآخرين ولا يتوقف، من الحماقة تركه بل إننا نرى في تركه نوع من التواطؤ، خاصة وإننا لا نستهدف أحدًا إلا في وجود أدلة دامغة، أنت رأيت بنفسك ما نقدمه من عون، وما أحادثك بشأنه نوع من الوقاية لعدم وقوع مزيد من الضحايا. صعقت من المفاجأة التي اختصت رأسى بالسقوط عليها، هل سأتحول لآلة قتل متحركة، تقتل بمجرد الضغط على الزر، لا لن أنضم لهم مقابل مساعدتهم لأسمى، لقد أوضح لى حقى في الرفض.

- آسف، لن أستطيع، يمكنكم الاعتماد علىّ في أى أمر آخر غير القنص، لم أعد صالحًا لذلك، وإلا ما كنت تركت عملى.

- ما فقدته في قدمك لن يعيقك عن تادية مهمتك معنا، يمكننى أن أضمن لك ذلك، ستكون مهمتك اصطيادهم فقط، أنت لست أول المنضمين لنا، هناك غيرك كثيرون، ولكن ليس لديهم دقتك في التصويب، وبعض الأهداف يصعب اصطيادها عن قرب، صدقنى لو أخبرتك بجرم كل هدف لنا، لسبقتنا لقتلهم، هذا هو العدل، ولا تنس أنك نفسك وقعت ضحية لواحدة من الجماعات أفلت منهم بما يشبه المعجزة، ترى كم

قتلوا من البشر؟ ألا يستحق هؤلاء القتل بضمير مرتاح؟ إذا ما صادفت أحدهم، ستقول له انتظر من فضلك كي أقدمك للمحاكمة؟ ومع ذلك يبقى لك حق الرفض كما أخبرتك ولا تحمل همًا بشأن والدتك، ما ندفعه لعلاجها نقطة في بحر إمكانياتنا ولن نتوقف عن دعمها هي أو غيرها، لا أريد منك ردًا الآن، خذ وقتك في التفكير، ولكن ابق الأمر بصدرك مهما كان!

ثم تركنى وانصرف بعد دفع الحساب.

لم أتصور أن يكون هناك شيء كهذا في الحياة، منظمة تحاول إرساء قواعد العدالة عن طريق قتل من يستحق، لقد تأكدت تمامًا من إسهاماتهم الخيرية وضيع صيتهم في كل مكان ولكن القانون هو الموكل بإعادة الحقوق وعقاب المجرم، صحيح أنى أعلم كغيري عجزه كثيرًا أمام أصحاب النفوذ والمكانة، وأن هناك الكثيرين يصعب وقوعهم تحت طائلته وأن مجرد قتلهم يجنب البشرية خسائر كبرى ولكن ما الذى يضمن دقة حكمهم أو عدم وجود خطأ في بياناتهم مما يوقع في القتل من لا يستحق، وتزامنًا مع تحسن حالة أمى، شغل الموضوع أغلب أوقات يومى وأنا أقتله دراسة وبحثًا.

بعد أسبوع هاتفته وطلبت لقاءه، جاءنى إلى المركز قابلنى بابتسامة تجهنها إلى نفس الحانة:

- ألا ترى أن هناك مجازفة سرية ما اطلعتنى عليه، من الوارد أن أرفض ويفتضح أمركم وقد لا يخيفنى تهديدكم؟

- عاصم باشا، هل تعلم كم رجل ممن عرضنا عليهم الانضمام لنا رفض العرض؟

-

- صفر .. لا أحد عرضنا عليه ورفض، لدينا رجال من كافة أنحاء العالم عراقيين وأتراك وكوريين وإيطاليين وجنسيات أخرى كثيرة، جميعهم يحفظون سرنا، لسنا بالسذاجة التى تتصورها لنمشى فى الشوارع نذيع سرنا، لم نعرض عليك الأمر، إلا ونحن متيقنون بقبولك العرض.

- ما هذه الثقة؟ ربما طلبت لقاءك لأخبرك برفضى.

- قبل مقابلتك فى القاهرة عكفنا على دراسة الأمر لمدة شهرين، وكان السؤال الأهم هل ستقبل أم سترفض؟ وكانت الإجابة ستقبل بنسبة 90%، هناك آخرون انضموا لنا وكانت نسبتهم 70%، أنت ستتعامل مع مؤسسة ضخمة محترفة لا تخطو خطوة قبل حسابها ولديها كل المال والإمكانات لتحقيق أهدافها.

- واضح، ولكن لى شرط للعمل معكم، أن أحصل على نفس المعلومات التى تجعلكم على يقين من استحقاق الهدف للقتل.

- ليس هناك أيسر من ذلك.. متى يمكنك البدء؟

- أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر.

عقدنا الاتفاق، وبرغم ذلك كان هناك تردد مازال يساورنى، أن يكون بيدك الحكم على استمرار حياة أو اجتثاثها هو أمر

غاية في الصعوبة، ربما يفوق قدرة البشر، أى خطأ ثمنه حياة، وأى ندم سيلاحقك الباقي من عمرك، انضمامي للمنظمة نقطة تحول جريئة، خطيرة في منحنيات حياتي، نقطة قد تساعد في تغيير العالم للأفضل كما يظنون وقد تقضى على حياتي في أى وقت.

كانت الاتصالات متبادلة بيني وبين مروان حتى طالبني ذات يوم بتجهيز أوراقى والسفر إلى أمستردام هولندا.. أخبرني أيضاً بأننى صرت واحداً من العاملين بمؤسسة «الأيادى البيضاء» هذا سيسهل كثير من انتقالاتى، سأزور مستشفيات، دور أيتام، مخيمات لاجئين، إنها مؤسسة دولية وترسل مندوبيها ذوى الجنسيات المختلفة لشتى بقاع الأرض، إقامتك ستكون في إيطاليا أغلب الوقت، هذا لن يحول بينك وبين زيارة والدتك في الولايات، حين تصل إلى هولندا، ستعرف كل شىء»

أعددت أوراقى، وسافرت إلى هولندا للمرة الأولى في حياتي، نزلت بأحد الفنادق كان مروان بانتظارى، وفي الجناح الخاص بى، عرض عليّ صورته «إدجار ألفيتش» قال لى «هذا هو هدفك، ضابط صربى هارب منذ عشرين عاماً يعيش في بلجيكا بشكل متخفٍ تماماً، متهم في جرائم حرب في البوسنة، جرائمه لا توصف، لو أخبرتك بها ستفرغ معدتك على الفور» ثم عرض عليّ واحدة من الصور، كانت صورة لامرأة يبدو عليها المرض والإنهاك ترتدى ملابس بيضاء، ولها وجه شاحب كالموتى، شعر أسود قصير بعض الشىء، وبشرة لم تعد نضرة،

أمعنت النظر فيها قبل أن يواصل حديثه «هذه واحدة من ضحاياه، يمكنك تصور ما فعله بها هو وجنوده، تركوها حاملاً قبل أن تُصاب بصدمة عصبية حادة، عثرنا عليها في واحدة من المصحات التي تتلقى منا مساعدات، هي الآن على حافة الجنون منذ تلك الحادثة لم يعد بوسعنا استعادتها، جهود عظيمة تبذل لمحاولة علاجها دون جدوى، تصرخ كلما رأت طفلتها التي صارت فتاة جميلة الآن، يكفيك أن تريها صورة هذا الجنرال كى تفترسك بأسنانها، حياتها دمرت تماماً، واحدة من الحالات التي ترعاها المؤسسة ولم ننجح في علاجها ولكننا مازلنا نحاول، منذ سنوات ونحن نبحث عن هذا الرجل، يمكنك كتابة اسمه والبحث عنه وستأكد من كافة المعلومات بشأنه وهروبه وتخفيه منذ سنوات، يمكن الإبلاغ عنه، لكن تأكد أنه لن يلقى المصير المناسب لجرمه، هو الآن في الخمسينات من عمره، وحان الوقت ليغادر عالمنا، يمكنك الاطلاع على الميل الخاص بك، ستجد مقاطع لهذه المرأة وهى منهاره تماماً، وابنتها تبكى كلما زارتها، مأساة بالطبع، وللتأكد أكثر يمكنك الاتصال بمستشفى ... ، ستأكد من كل حرف قلته، سأنتظر اتصالك بى غداً لأخبرك بباقي التفاصيل.»

تأكدت من كل حرف قاله، كما أنهم ليسوا فى حاجة لتزييف هذا الكم من المعلومات لحشى على قتله، من السهل تخمين أن هذا الوجود لم ينعم بلحظة واحدة من تأنيب الضمير، هو فقط يعيش المتبقى من عمره تحت حراسة واحدة من شركات الأمن، فى أوروبا يمكن التخفى لألف عام مادمت لم تعد مثيراً للمشاكل

ومتى كف الآخرون عن البحث عنك. هناك أرواح إن لم يبادر الموت بقطفها، فالجميع سيعانى.

في اليوم التالى أخبرنى بكافة التفاصيل، العملية ستتم بعد أسبوع، هناك من سيتظرنى في مدينة شارلوروا البلجيكية، هناك شقة تم تأجيرها منذ شهرين أمام مقر إقامته، قاموا بمراقبته حتى حفظوا تحركاته، متى يغادر؟ وإلى أين؟ ومتى يعود؟ سأكون بانتظاره فوق سطح البناية المواجهة، المطلوب رصاصة في الرأس دون غيرها لاحتمالية ارتدائه واقٍ من الرصاص في خلال الثوانى المحدودة التى تعقب ترجمه من السيارة، مهمة لن ينفذها إلا قناص، أى خطأ سيعنى فشل العملية للأبد، لأنه حتماً سيختفى من جديد في مكان جديد، وكما ترى فإن عملية العثور عليه استغرقت سنوات ومجهود شاق، رصاصة واحدة فقط، لن يثيروا ضجة بشأنها، لن يبحثوا عن منفذ العملية، لأنه سيسبب حرجاً للدولة التى تأويه، بالطبع لم أحتج إلى توصية، لدى ما يكفينى من دوافع لانتزاع روحه، ولكن ما كان يقلقنى أنى لشهور لم أصوب، هل أنا بحاجة للتدريب، أم أنى مازلت بارعاً بعد التوقف لشهور؟

كانت البندقية الروسية أورسيس T-5000 في انتظارى فوق البناية، واحدة من أفضل الأسلحة في القنص في العالم، تمتاز بدقة التصويب لمسافة تصل 1650 مترًا، تدربت عليها من قبل، كان التخطيط ممتازًا، خاصة وأن فور الإطلاق، هناك من سيحمل السلاح ليفر به، بينما أنا سأعود للشقة المؤجرة في ثوان لمشاهدة التلفاز.

وفي العاشرة مساءً بينما السيارة تتهادى أمام المنزل أقف على سطح البناية، حاملاً السلاح الموجه ناحية بوابة البناية المقابلة، في انتظار هبوطه من السيارة، ضغطت واحدة على الزناد الصلب ستنتهى حياة هذا الوغد، غادر السيارة بعد فتح أحدهم الباب له، ظهره للسيارة التى يستعد سائقها للانطلاق، رأسه كلها داخل دائرة صغيرة هى عدسة السلاح، شهيقاً أخيراً قبل التسديد وأحبس أنفاسى لثوانٍ، يعقبها انطلاق الرصاصة لتستقر فى رأسه الذى صار على الأرض عقب سقوطه، أنظر لرفيقى، أشير له بإبهامى، يحمل السلاح عنى، يدفعنى للعودة من جديد للشقة، بينما يستكمل هو مهمته فى الهرب عبر الأسطح، ليعود إلى حيث لا أعلم، ضربة موفقة شعرت معها بالارتياح. رائحة هى العدالة وأروع ما ستكون لو لم تأت متأخرة سنوات طوال.



«من يغامرون بالذهاب إلى أبعد الحدود، وحدهم من يعرفون
المدى الذى يمكن للمرء الوصول إليه.»

ت. س. إليوت

(20)

يحيى - فرنسا

انتهت جلستكما بقبول عرضه، ولم يتبق سوى خطوات التنفيذ! علمت بأن اسمه مروان، ليس اسماً حقيقياً بالتأكيد ولكن يسهل له العمل في منطقة الشرق الأوسط. عملك الجديد يتطلب تفرغاً تاماً بعيداً عن بلدك، لذا الموت هو أفضل وأشرف حجة غياب، ستمنح نفسك لقب شهيد، لن يكفوا عن قراءة الفاتحة لك والترحم عليك، وستخلف وراءك سيرة عطرة في عالم لم يعد يعينك كثيراً، هكذا كان اتفاقك مع الرجل، تدبير عملية اغتيال وهمية، أمر يسير جداً، طلقات عديدة متناثرة على سيارتك في منطقة هادئة، عجلات السيارة لم يعد لها وجود بعد تفريغ الهواء منها عقب اطلاق النار عليها، دماؤك موجودة في كل مكان، في مقعد القيادة وعلى باب السيارة وحولها، ملابسك تترك على مسافة قريبة غارقة في دمائك مثقوبة عدة ثقوب بعد أن مزقتها الطلقات أحدهم في موضع القلب، ثم تفجير السيارة إمعاناً في تليفيق الأمر لاشك لمن سيشهد كل تلك التفاصيل بأنك ميت ميتة بشعة، حتى وإن اختفت جثتك، أين ذهبت جثتك؟ الإرهابيون لا يأبهون بمثل هذه الأسئلة في الأغلب، هذه مهمة زملائك وليست مهمتك،

سيبدلون جهودًا سدى لبعض الوقت، ولكنك لا تكترث، ستتهز الحادثة الجميع وتحفزهم لانتقام رادع تمناه على نفس القدر من البشاعة.

وبينما تدمع عيون زملائك وتعتصر قلوبهم، تبحر أنت في سفينة عملاقة عبر البحر الأبيض المتوسط مع مجموعة من البحارة الفرنسيين إلى ثانى أكبر مدينة فرنسية بعد باريس وأكبر ميناء فرنسى هى مارسيليا التى تتميز بوجود واحدة من كبرى الجاليات العربية بين مدن فرنسا، لقد قبض البحارة الثمن وتنتهى مهمتهم بتسليمك لرجل سيهتم بشأنك لاحقًا.

تصل بسلام إلى هناك بصحبة رجل تغيرت ملامحه كثيرًا منذ آخر مرة رأى الشمس فيها ولكنه بالطبع واقع تحت تأثير مخدر قوى، كان هذا شرطك الوحيد اصطحاب شرك الصغير وعدم السؤال عنه، كان لذلك تبعات كثيرة فيما بعد حيث صعب ذلك بقاءك بأى فندق فتم إعداد مسكن خاص بك يتيح لك الاحتفاظ بشرك الصغير. منزل واسع من طابق واحد له حديقة معتنى بها محاطة بسور حديدى متوسط الطول، بالداخل هناك ريسيشن عريض أثاثه بسيط وراقٍ فى آن، هناك غرفتان واحدة للنوم وبها كل ما تحتاجه غرفة للنوم، وأخرى تصلح كغرفة مكتب، هناك مائدة اجتماعات وأربعة كراسى فخمة من الجلد وبالطبع مكتب خشبى حديث بنى اللون.

بعد وصولك بثلاثة أيام تقابل مروان من جديد ولكنه يخبرك بأن اسمه هنا هو كلاوديو، مازال كما هو واثق رزين رابط الجأش، كلماته دائمًا تصيب المعنى الذى يريده، حتى الآن تقدره وتعامله بحذر، يبدو أنه سيكون ذا شأن كبير فى المتبقى من عمرك،

رجل أظهر براعة في التخطيط والتنفيذ ونقلك إلى هنا بسلام هو
رجل لا يستهان به بلا شك.

- الآن أنت واحد منا؟

- من أنتم تحديداً؟ حتى الآن لدى العديد من الأسئلة بلا
إجابة، لقد فعلت كل ما طلبتم دون الحصول إلا على قدر بسيط
جداً من المعلومات

- أعرف، حان وقت تقديم الإجابات، كل ما سأقوله لك
سيظل سرّاً تحفظه بصدرك وتعيه بعقلك، لن تبج به لمخلوق مهما
كان الثمن ولا تراهن على حياتك إذا ما فكرت مجرد تفكير النطق
بحرف مما سيقال الآن.

- كفاك تهديداً، أنت تحاطب رجلاً عاقلاً، لن يقدم على حماقة
قد تكلفه حياته إلا في حالتين.

الأولى عدم التزامك معي في أي اتفاق سابق والثانية لو كفت
عن الرغبة في الحياة

- لا أنصحك بالاعتماد علينا في هذا الأمر، إذا ما رغبت في إنهاء
حياتك فيمكنك اختيار وسيلة سهلة سريعة لأن كل وسائلنا عادة
تتنافى مع تلك الصفتين.

- أدخل في الموضوع دون مقدمات، أفهم ما تقصده، لقد كان
عملي يعتمد في الأساس على السرية والالتزام

- حسناً، نحن منظمة متعددة الأهداف ومتشعبة في شتى بقاع
الأرض، تنقسم أنشطتها بين سرى ومعلن، السرية ليس لها أوراق
أو سجلات نحتفظ بها، فقط كل فرد يؤدي دوره بكفاءة وشعور
بالمسئولية، أما المعلنة فستعرف بنفسك كم هي ذائعة الصيت

وتحظى باحترام الجميع هنا لما تقدمه من دعم غير مسبوق لكل ما يمكنها الوصول إليه، بالنسبة لأنشطتنا السرية لا مجال للخطأ لدينا، وإن حدث فأنت مسئول عن نفسك، لا تنتظر منا أن نأتى لإنقاذك ولكن يمكنك أن تأمن على حياتك مادمت تحتفظ بسرنا في صدرك، مهمتنا الأولى هى حماية الضعفاء ونصرة المظلومين، هناك الكثير من البشر يعيشون بيننا في أجساد أدمية بينما هم أعنف من أشرس الحيوانات وأكثر وحشية من أشد الوحوش ضراوة، لا ذرة رحمة في قلوبهم ولا بذرة خير في رؤوسهم، ضميرهم مرفوع دائماً من الخدمة أو في إجازة إجبارية لا عودة منها، لا يتورعون عن ممارسة ذرائعهم ضد إخوانهم من البشر، هؤلاء من نوجه لهم سهامنا ونضربهم بيد من حديد، في البداية كنا أكثر سذاجة واعتقدنا أن هناك مجالاً للإصلاح لكن البذرة العفنة لا يمكن علاجها والأفضل بترها وعزلها قبل أن تفسد باقى البذور، هذا هو خلاصة تجاربنا مع البشر، قسوتهم لا حدود لها وبطشهم يفوق التصور، يظلمون ويقهرون كل ضعيف، لا يردعهم رادع ولا يوقفهم شافع ما دامت مصالحهم تقتضى ذلك، يتعاملون مع الآخر كما لو كان حيواناً بل ربما يعاملون الحيوان معاملة أفضل، الأمثلة كثيرة في كل زمان ومكان .. قتل، اغتصاب، تعذيب، تهديد، تجارة أعضاء، ابتزاز على كل المستويات، والنظام العالمى يقف متفرجاً وربما مشاركاً متواطئاً، على أية حال نحن لا نعول عليه، فقط نشتره، نسكته، لسنا كمنظمة ولكن كجزء من المجموع العام الذى يسعى وراء تحقيق مصالحه بأى ثمن كان.

يتوقف كلاوديو قليلاً عن الكلام قبل أن يضع ساقه اليمنى على اليسرى ويضيف: حجم الشرور التى استطعنا تحجيمها

والسيطرة عليها لم تقم به دول عظمى على مر التاريخ أو مسئولين بارزين ذاعى الصيت ذوى الكلام المعسول والوعود الزائفة والشعارات الرنانة التى يثونها عبر أبنوا إعلامية تصورهم وكأنهم يكثرثون، لكن الحقيقة أنها مجرد شو إعلامى لترديد دعاوى كاذبة تروج لإنسانية غير موجودة، الواقع: الأمر كله خدعة كبيرة يمارسها نظام فاشى لا يرحم موارد حقيقته بكلام فارغ من عينة ضمير عالمى، سلام اجتماعى، منظمات مجتمع مدنى، حضارة، نهضة، إنسانية، كلها كلمات تتردد على الألسنة ويتم تداولها فى الاجتماعات والمؤتمرات، لكن لا شىء حقيقى على أرض الواقع، الوحشية تمارس تجاه العديد من البشر ولا يسعهم سوى أن يقفوا مكتوفى الأيدى مكتفين بالاستنكار والتنديد، هذا هو ما اتفقوا عليه كرد فعل تجاه المجازر والانتهاكات التى ترتكب أينما حل الذئاب.

تبدو مشدوهاً أمام كلماته، لم تفكر أبداً أن هناك شىء كهذا، لا تؤمن كثيراً بالعالم المثالى أو المدينة الفاضلة، إنها أيضاً شعارات يستحيل تحقيقها على هذه الأرض ويتعذر حتى مجرد التفكير فى ذلك.

- هذه منظمة تبحث عن المدينة الفاضلة؟

- كلا بالطبع لسنا سُذج هكذا، ولكننا فقط نبحت عن عدالة مفقودة، مجرد محاولة لتخفيف الآلام التى يعجز بها هذا الكوكب البائس، محاولة لجعل العالم مكاناً أفضل لعدد غير قليل من البشر صارت الحياة أسوأ من أسوأ كابوس رأيت فى حياتك، فقط نريد لهم حياة آمنة، أظن ذلك ليس بالشىء الكثير.

- وما الآليات والوسائل لتحقيق ذلك؟

- كل ما يخطر على بالك أو يتراءى لنا ومن شأنه أن يحقق لنا أهدافنا، لذا نحتاج عددًا من المقاتلين الأكفاء الشجعان، لدينا رجال من شتى البقاع ومختلف الجنسيات، قبلوا العمل معنا بالشروط التي اتفقنا عليها، لا نسمح بأى خطأ لذا فنسبة الخطأ تكاد لا تذكر، حفاظًا على رجالنا وتحقيقًا لأهدافنا فقط نرصد هدفنا ونحدد صيدنا ونخطط لذلك جيدًا، ورجالنا أمثالك هم أدواتنا في التنفيذ

- إذن هناك قتل؟

- وخطف وإنقاذ ودعم ومساعدات وكل ما يخطر ببالك..
لم تقتل من قبل؟ لا تنكر أن هناك من البشر قتلهم أفضل هدية يمكن تقديمها لهذا العالم، التخلص منهم يعنى حياة لعشرات ومئات آخرين.

- وكيف يتم اختيار أهدافكم وما الذى يضمن لى بأنها تستحق القتل؟

- أضمن لك ذلك، وستتحقق منه بنفسك، لسنا مؤسسة ربحية لنتربح من عملياتنا، تمويلنا يعتمد على أناس اهتموا بأن وجود المنظمة أمر حتمى وسيعود بالنفع على الكثيرين ومقابل ذلك يتحملون تمويل كافة الأمور.

- بالطبع غير مسموح لى معرفة من هم؟

- جهلك بهم أضمن لسلامتك.

يعقب حديثكما فترة من الصمت وكأنك تزن الأمر، لا يزال لديك العديد من التساؤلات.

- ولماذا لا تسلك المنظمة السبل القانونية للتخلص من هؤلاء؟

لقد آثرت بسؤالك عاصفة من الضحك لدى الرجل يا يحيى، هذه المرة الأولى والوحيدة التى تراه يقهقه من القلب بهذا الشكل، أغمض عينيه وعاد برأسه للوراء وارتفعت إحدى قدميه عن الأرض وهو مستغرق فى نوبة من الضحك المهستيرى «هل سؤالك ساذج إلى هذه الدرجة؟» تتساءل بداخلك وأنت نادم على طرح هذا السؤال وتنتظر بشغف انتهاء نوبته من الضحك، تبًا يا يحيى لقد دمعت عيناه من كثرة الضحك. وحين انتهى ولملم شتات نفسه عاد لطبيعته

- قل لى بربك متى ارتدع المجرمون الوحشيون بتطبيق القانون؟ بل قل لى كيف تجبر المجرمون فى ظل وجود القانون؟ بعض الجرائم الخفيفة يتوب بعض مرتكبيها عقب الإيقاع بهم مثل اللصوص، النصابين، القتلة أصحاب الدوافع المنطقية وهؤلاء لا يدخلون دائرة اهتمامنا ولا حتى يشغلون حيزًا من تفكيرنا، نحن لا نطالب البشر بأن يكونوا ملائكة، فقط نريدهم أن يكونوا بشرًا ولا يتدنون لما دون الحيوانية، تجار الموت حين يوقع بهم القانون فهو يمنع شرهم لبعض الوقت وحين تعود لهم الفرصة يعودون من جديد لتسلطهم وجبروتهم

- هل لى أن أعرف كيف وصلتكم إلىّ لماذا اخترتمونى أنا تحديدًا؟

- سالم الملاح.

- كيف؟ ونظرات عدم الفهم تقفز من عينيك

- سالم الملاح كان واحدًا من أهدافنا، ذاع صيته فى أفريقيا فى مجال تجارة الأعضاء البشرية عن طريق خطف الأطفال، عقب جريمة

اختطافه للأطفال في وطنكم وتمكنه من التخفى والهروب، أثار إعجاب تجار الأعضاء البشرية بجرأته وتخطيطه المفاجيء المحكم، كان رجالكم يبحثون عنه في كل شبر في كل خندق، ضيقوا الخناق عليه وكادوا يصلون إليه، ولكن توصل إليه قبلهم كبار عصابات تجارة الأعضاء، آووه لديهم وتمكنوا من تهريبه عبر الحدود إلى ليبيا ومنها إلى افريقيا، كان الاتفاق بينه وبينهم أن يحموه منكم مقابل انضمامه للعمل معهم والقيام بعمليات مماثلة تستهدف خطف الأطفال للتجارة في أعضائهم، قبل العمل معهم وطوال السنوات الماضية انتقل من بلد أفريقي لبلد آخر وعاد لبلدكم أيضًا، خاض جولة محترمة في عالم تجارة الأعضاء أهله أن يقع تحت ميكروسكوبنا حتى تمكننا من الإيقاع به هو وبعض شركائه، واحدة من عملياتنا المميزة، ضربة قاصمة لواحدة من أهم شبكات تجارة الأعضاء في قارتكم البائسة، كم طفلاً خطفوه؟ كم أباً أدمعوا عينه؟ كم أمًا مزقوا قلبها؟ كثيرين.. أنت نفسك أحدهم.. وكانت تلك.....

وبينما هو يواصل حديثه تتشكل دمة على سطح عينك وأنت تتذكر أسر، كم كانت حياتك ستختلف، لو لم يقدم سالم على فعلته، لو لم يقدم الميرغنى على جريمته، لو كانت الشرطة تتمكن من العثور على أسر حيًا، لو أن خطأ واحدًا بسيطًا في تسلسل مجريات الأحداث لعب لصالحك لعشت حياة سعيدة تحسد نفسك عليها، لبقيت مع ولدك وفي أحضان زوجتك ولعدت إلى بيتك تنعم بنوم هادئ لا تقطعه كوابيس، وما كنت لتترك عملك سعيًا وراء انتقام عادل، وما كنت لتجلس هنا في أرض غريبة مع رجل عجيب يحدثك عن منظمة لم يسمع بها أحد من قبل، فقط خطأ واحد كان سيجنبك ألمًا سيظل مصاحبًا لك حتى قبرك.

«لذا فإن أول مهامك معنا ستكون ضد واحدة من الجرائم
العنصرية»

تلتقط أذنك كلماته عقب شروذك، لقد مللت من حديثه، أين
سالم الملاح لتنفث فيه غضبك؟ هذا ما تركت بلدك وعملك
لأجله، فلتناله وبعدها تنظر ماذا يريدون، تطرح عليه سؤالك
فيأدر بفتح حقيبة جواره يخرج منها أسطوانة مدججة ويمد يده
لك بها، ترمقه متسائلاً:

- هذه مجموعة من اللقطات والصور لسالم؟

- لا أريد صورته، أريده هو كما اتفقنا

- ليس الآن، أعلم أنك تريده فوراً، ولكن يكفى الآن المصيبة
التي لديك والتي جلبتها معك، لا أفهم من هو ولماذا أصريت
على اصطحابه معك ولكن قد يسبب لنا مشاكل لا داعى لها، كما
أنك أمامك الكثير من التدريب والتعليم لتعرف كيف نتواصل
وكيف سيتم العمل، كذلك أنت بحاجة لتعلم اللغة الفرنسية،
هذا سيسهل عليك الكثير من العيش هنا وسيعينك كثيراً في
مهامنا هنا وبالخارج.

- لم يكن هذا اتفاقنا

- نحن لم نخل باتفاقنا، فقط نريد أن تكون على أتم استعداد
وقت استلامه. لا تتوقع منى أن أسلمه لك وتنتهى منه هنا
كما فعلنا مع ضيفك الآخر، نحن لم نأت بك إلى هنا لتحصل
عليك الشرطة الفرنسية، علينا أن نكون أكثر حذراً، عليك
التعلم والاستجابة لما يطلب منك التدريب عليه، نحن لا نقلل
من كفاءتك ولكنك رجلنا الآن، عليك أن تكون مستعداً لشتى

المواقف، سالم لدينا وستحصل عليه وستترك مصيره لك ولكن بعد أن تتدبر أمورك هنا، فقط لا تتعجل.

- وما المطلوب مني الآن؟

الاسترخاء والتأقلم والاستعداد لأولى عملياتك معنا، بعدها ستحصل على سالم بعد أن تنتهي فترة تدريبك.. سنجتمع ثانية للحديث بشأن أولى عملياتك، بعدها سنقدم لك سالم وسنقدم لك أي دعم تريده.

حين تعي السبب الحقيقي لعدم تسليمك سالم، تثور بحدة وتنفجر فيه:

- ولماذا كل ذلك؟ بعد ما قدمته لكم وتركت بلدى وعملى هل لديكم شك تجاهى؟ حتى الآن أنا ملتزم بكل ما طلبتموه، ولم أناقش حتى الآن تفاصيل لا تحتمل التأخير، وثقت فيكم، ماذا لو كتمتم أنتم من يخدعنى؟

- بالطبع ليس لدينا شك ولا رغبة لنا في خداعك، ماذا سنجنى وراء ذلك؟ لكننا فقط نريد التأكد من انضمامك لنا عن اقتناع، لقد قدمنا لك عرضاً غريباً، مريباً ولم نخبرك حتى بما هو مطلوب منك في المقابل ووافقت على الفور حتى دون فرصة للتفكير، نعلم رغبتك في الحصول على سالم واستعدادك لتقديم أى شىء مقابل رأسه، ولكن ماذا بعد أن تشفى غليلك؟ عودتك لبلدك وعملك ليست مستحيلة، ونحن لن نسمح بأن ننخدع، هذه قواعدنا، وهكذا استمر وتطور العمل لدينا، لا مجال للخطأ مهما كان حجم الثقة، نحن ندير مؤسسة ليست للهو ولا حتى الربح، وأظن أن أمراً كهذا ستنساه بمجرد حصولنا على ضمانات وحصولك على رأس سالم

- انتهى لقاءكما دون أن تحصل على ما تريد، فقط ستصبر وتمثل وقد رأيت أنهم لن يعملوا إلا وفقاً لقناعاتهم، أنت الآن ستشرع في بدء حياة جديدة لا يربطها بالملك القديم سوى سالم وحسام ولأشد ما تكره كلاهما، وكلاهما سيحين دوره، ما حل بهما لا يقارن بما تتويبه لهما، ولكن ما قيمة حياة ليس فيها أسر وداليا، وكلاهما ضاعا من يديك، كم أنت فاشل! هكذا تقول لنفسك، كل ما تفعله ورغبتك في الانتقام مجرد محاولة لجعل الحياة ممكنة ولجعل الأرض قادرة على استيعاب روحك التي ما عادت تطيق حياة، وباتت تشتاق ليوم تلحق فيه بقطعة منها سبقتها إلى العالم الآخر، وحتى تحين تلك اللحظة عليك ترويض نفسك للقيام بما يطلب منها.

- تتلقى دروس تعليم اللغة الفرنسية على يد فتاة لم تتجاوز الثلاثين من العمر، وتعدّد جلسات لتدريبك على طريقة التواصل مع أفراد المنظمة وكيفية تفسير التعليقات وأسباب عقد اللقاءات وأماكنها، تكتسب هوية جديدة واسمًا جديدًا، فهويتك الأولى تركتها هناك حيث كنت تعيش، وما بقى منها سيستقر في صدرك للأبد ولكن هل يتسع له؟!!

في كل يوم تبرز تقدماً لا بأس به، تحصل على معلومة لم تكن تعرفها من قبل حتى يروا أنك صرت مستعداً للقيام بأولى عملياتك، علمت منهم أن من ضمن أهدافهم أن ينال البشر عقابهم ليدركوا فداحة ما اقترفوه من خطأ وليذوقوا وبال أمرهم الذى أذاقوه للناس، عليهم أن يتلقوا جزاء من جنس عملهم، وأنه ليس هناك أجهل من أن يكون الانتقام وتحقيق العدالة بيد ضحاياهم أو على الأقل يشهدوا عقابهم، ففى ذلك شعور لا يقاوم بالراحة، إنه

يعيد للحياة معنى جميلاً بأن البسمة الأخيرة لن تكون لمجرم أو لظالم.

مر أكثر من شهرين على وجودك بفرنسا، الآن بت قادرًا على تبادل أحاديث قصيرة مع أصحاب المحلات، في المطاعم، مع سائقي سيارات الأجرة، لا يزال أمامك المزيد من الوقت كما أخبروك، حسنًا تقضى وقتك في شوارع فرنسا وعلى شواطئ مارسيليا بالأخص، هواء سبتمبر المنعش يخترق مسامك، يفتح وجهك، يغسلك من الداخل، لكنه أبدًا لم يزحزح أو ينسيك ذكرى واحدة جمعتك بأسر، ومع اقتراب الشهر الرابع من الانتهاء يجمعك لقاء جديد بكلاوديو، يقابلك بابتسامة عريضة تحتل وجهه:

- تهانينا يا رفيق، لقد اجتزت فترة تدريبك بنجاح، الآن أنت مستعد للقيام بأولى عملياتنا معًا، هل أنت جاهز؟

- لقد أجبته بنفسك منذ ثوان على هذا السؤال
يدخل في الموضوع دون مقدمات:

- مهمتك الأولى هنا في فرنسا في قلب العاصمة باريس خاصة بجورج أيو هل سمعت عن جريمة قتل الشاب الزنجي جورج أيو؟

جاءت إجابتك بالنفى وهو ما يتوافق مع توقعه بحسب هزة رأسه السريعة ليواصل:

- أيو يعمل في أحد المطاعم بشارع رئيس بالعاصمة باريس في يوليو الماضى تم طعنه عدة طعنات بلغت 20 طعنة في شتى أنحاء جسده إحداها اخترقت القلب لترديه قتيلاً وسط بركة من الدماء، جريمة هزت الشارع الفرنسى لفرط قساوتها،

ولأن أيو اشتهر بطيبة القلب ولطف المعشر، ليس لديه أعداء وكان ذا شخصية مرحة بحسب أقوال جميع معارفه بمن فيهم رواد المطعم، الجميع أصابتهم صدمة شديدة جراء الحادث، وقعت الجريمة أمام إحدى البنايات في شارع هادئ جدًا عقب انتهاء أيو من زيارة صديق له يسكن في هذه البناية، لحسن الحظ وسوءه في نفس الوقت كانت هناك كاميرا مراقبة ترصد التحركات في مبنى مواجه لهذه البناية، في البداية لم يتبته أحد لهذه الكاميرا، بعد 24 ساعة من الحادث تذكروا هذه الكاميرا هرعوا إليها وأعلنوا أنهم بصدد تفرغها، بعد يومين أعلنوا بأنها لم تقودهم لشيء، يليها بعدة أيام ظهور فيديو على الانترنت بعنوان (مقتل جورج أيو) هذا الفيديو تم حذفه بعدها بعدة ساعات، كل من شاهدوه قبل الحذف أكدوا أنه يخص الجريمة ولكن يصعب تحديد المجرم لبعده المسافة بين الكاميرا والحادث وكذلك لقلّة الضوء أثناء ارتكاب الجريمة وإلى الآن لم تعثر الشرطة الفرنسية على الفاعل ولن تعثر عليه.

- هم متورطون إذن؟ تقولها بثقة ليجيبك وسط تركيزك

- الفيديو الذى تم حذفه من الانترنت تمكنا من تسجيله قبل الحذف وبواسطة برامج شديدة الفاعلية ورجال ذوى كفاءة تم توضيح الصورة.

ثم قام كلاوديو بفتح حاسوبه الشخصى ليعرض عليك الفيديو بعد تنقيحه، بعد المشاهدة تبين وجه الجانى شاب أشقر متوسط الطول نحيف البدن يقابل جورج عقب خروجه من البناية يستوقفه، ويبادلّه حديثًا عابراً وبمجرد انصراف جورج، ينقض

عليه الفتى من الخلف وبيعثر الطعنات على جسده في غل واضح ولا يبارحه حتى يتأكد من انقطاع أنفاسه.

يعقب حديثه نظرات متبادلة معك يا يحيى مما أكد صحة استنتاجك الذى طرحته عليه:

- وهذا الفتى هو هدفنا؟ يومىء برأسه موافقاً

- ربما لديه دافع

- دافعه عنصرى بحت، هذا الفتى والده أحد كبار رجال الشرطة، مساعد وزير الداخلية، الفتى يكره الزوج بعنف، يمقتهم كما تمقت النساء الصراصير ويحتقرهم كذلك بلا سبب واضح، للعلم هذه ليست أولى جرائمه، فى الجامعة اختفى زميل له أسود ولم يتم العثور على جثته إلا بعد فترة كبيرة. كل الشهود أجمعوا على وجود خلافات بين الضحية والفتى سببها الأول كره الشاب للزواج بلا مبرر مفهوم، ولكنه أثناء التحقيقات قدم دليل براءته بشهادة أصدقائه بتواجهه معه فى نفس توقيت الحادث .

- ربما كانت هى الحقيقة؟

- ليست هى .. وصلنا إلى أحدهم وانتزعنا منه اعترافاً بأن شهادتهم كانت مقابل المال، لقد تأكدنا دون شك بأنه مرتكب الجريمة، وهناك جريمة أخرى لطفل أسود اختفى فى نفس مدرسة فتانا ولم يتم العثور على جثته أبداً، هذا الفتى يمثل خطراً على آلاف الزوج هنا فى فرنسا، لا أحد يعلم من ضحيته القادمة، والده يعطيه غطاء بكل ما أوتى من قوة، هذا الفتى هدفنا.

- مطلوب قتله؟

- كلا، مطلوب احضاره

لم تفهم سبب الرغبة في احضاره وليس قتله، ناقشته قبل انصرافه بوجود أكثر من مجرم في هذه الحادثة، والد الفتى والشهود الزور وغيرهم، كل أولئك مدانون، فكانت إجابته التي بدت مقنعة «لو استهدفنا كل مخطيء، سيتوجب علينا التخلص من جميع أهل الأرض بما فيهم نحن، مادام هناك بشراً سيظل هناك خطايا وخطاة، فقط نستهدف الخطيرين منهم، الذين لا يقيمون وزناً لحياة أو روح يزهقونها ولا يتوقفون عن إزهاق المزيد، الخطيئة والدناءة سمة لا يمكن محوها من على وجه الأرض إلا بمحو كل أثر لإنسان»

كان كلامه مقنعاً، لن يتوقف بشرى عن الخطأ، ولكن المهم حجم الخطأ ومدى خطورته وقابليته للتكرار.

بعد انصرافه تبين من كلامه بالبحث عبر الشبكة العنكبوتية، وتحصل على نفس النتائج التي تطابق أغلب حديثه، أمذك كلاوديو بعنوان الفتى، بات عليك مراقبته والتخطيط للمهمة، أمامك شهر للتنفيذ، ومع قرب الحصول على هدفك تخبر المنظمة لتحديد كافة الترتيبات اللازمة لتسليم الفتى، لقد صرت صياداً وحن وقتك لتثبت براعة، تراقب الفتى لمدة أسبوع كامل، من بعيد يبدو إنساناً مسالماً، يحيا حياة طبيعية، غير متزوج، يملك متجرًا للملابس، يتنزه مع أصدقائه، يغادر ويعود للمنزل في أوقات منتظمة، ويعربد ليلة الأحد في ملهى ليلي، تبدو هذه هى نقطة انطلاقك؟ هل يزور مكاناً واحداً؟ ستعرف وعندها ستضع خططك، بالفعل الفتى دائم التردد على نفس الملهى في كل عطلة، تنفحص المكان من الداخل والخارج هناك مسافة جيدة بين الملهى وجراج السيارات يحتاج الزائر فيها للمشى مسافة 50 مترًا قبل الظهور تحت الأضواء

الخارجية للملهى. يجب التنفيذ في ليلة الأحد، أى يوم أحد، لأن الفتى دائماً ما يقضى نهاية الأسبوع في نفس الملهى.

لماذا تشعر الآن بهذه الإثارة؟ لماذا كل هذا الحماس؟ كيف دبت فيك الحياة هكذا. هل هى روح المغامرة تعود من جديد؟ الإجابة لا هذه المهمة وهذا الفتى فقط يفصلانك عن رأس سالم ولن تسمح بأى تأخير جديد.

مر الأسبوع الثانى، تدرس كافة التفاصيل، تضع خطتك وخطة بديلة، تسد الثغرات وتقلل نسبة الخطأ إلى أقل نسبة ممكنة.

في الليلة الموعودة ستركن سيارة مستأجرة في نفس الجراج قبل وصوله بساعتين، ستجرى بعض التغييرات على هيئتك باروكة صفراء، ذقن مشعثة، عوينات زجاجية، وبمجرد نزوله من سيارته ستباغته وتستوقفه، اسبراي مخدر سريع المفعول سيسهل الكثير، تسحبه حتى سيارتك بعد فقدانه لوعيه، تنتظر قليلاً في السيارة الآن يمكنك الانطلاق إلى حيث اتفقت معهم، لتسليم الهدف.

لقد أديت مهمتك بنجاح بعيداً عن أعين الشرطة وعدسات كاميرات المراقبة، التالى بعد ذلك لا يعينك.. جريمة اختفاء شاب ترك سيارته في الجراج القريب من الملهى، هناك عشرات الاحتمالات، الخطف واحداً منها ولكن لا وجود لأى رابط بينك وبين الفتى.

بعد تسليمه تعود لمارسيليا من جديد، تتلقى مكالمة من كلاوديو يطلب فيها لقاءك، يمنحك مبلغاً كبيراً من المال، ويعرض عليك تسليمك سالم، ليأتى ردك المفاجيء « هل من الممكن أن يبقى معكم مهلة أخرى؟ »

يندهش من هذا الرد، حاول تخمين ما يجول بذهنك ولكنه لم
يفلح، وفي النهاية امتثل لرغبتك.

كانت هذه هى المهمة الأولى، توالى بعد ذلك مهمات تالية،
عمليات مشابهة وأخرى ما بين التخلص من مجرمين ونقل
مساعدات، دفع تبرعات وحسابات مستشفيات، بدأ كل ما قاله
كلاوديو حقيقياً، المنظمة لها باع كبير فى الأعمال الخيرية. ولها جهود
صريحة فى مطاردة الأثمين. ربما لولاهم ما عثرت على سالم أبداً،
وعما قليل ستعصره بين أناملك.



«وكما نخلو عن الرحمة في الأفعال فسنفقد اللطف في ردود
الأفعال.»

(21)

روبرتو روسي^و

(1995 - 2000)

أنا الآن تجاوزت الستين عامًا، شعري مستمر في السقوط، لم يتبق منه إلا القليل مكتمل البياض على جانبي رأسي، التجاعيد تملأ وجهي أكثر، والوهن يزحف ببطء على جسدي حتى يستولى عليه كاملاً، تباطأت خطواتي وضعف بصري قليلاً، لكنني لازلت أميز الأشياء بشكل جيد بمساعدة عويونات طبية لن تتضح الرؤية بدونها، اعتدت الحياة وحيداً دون رفيقة أو زوجة ولم أطمح يوماً في الحصول على أبناء سأندم لاحقاً على إحضارهم لهذا العالم وربما توجب عليّ تقديم اعتذار على هذا الخطأ الشنيع، صحيح أنى سأترك لهم ثروة عظيمة، ولكن من قال إن المال يجلب السعادة، لو كان كذلك لكنت أسعد الناس، كل الأغنياء ليسوا بالسعادة التي يتصورها الفقراء، فقط يعيشون في ظروف أفضل تحيطهم الهواجس والشكوك من فقدان ما امتلكوه ربما لأن طرق جمعه لم تكن مشروعة، بلا شك الجميع بلا استثناء يطمع في المزيد غنياً كان أو فقيراً، أما أنا فكان أكثر ما يهمنى أن تظل مؤسستي

تعمل وتعمل بلا توقف، لو رحلت غدًا فسأعهد إلى أخى بتكملة المشوار من بعدى والإبقاء على كافة الأنشطة التجارية والسياحية والخيرية التى كنت أمارسها، ولكن إلى متى سيقى أخى فى قائمة الحياء، ماذا لو انتقل قبل أو بعدى للجهة الأخرى، ليس لدى وريث ولكنه لديه اثنان، تونى وماركو، شابان يافعان ممتلآن بالنشاط مفعمان بالحوية كلاعبى الكرة، تونى الأكبر شابًا مرحًا واثقًا طويل القامة نحيف البدن، طويل الشعر، لديه إصرار على النجاح، ذكاؤه حاد، يهتم بكافة التفاصيل، أما ماركو فكان أكثر حكمة واتزانًا، قامه أقصر وشعر أقصر لونه أسود، ممتلىء قليلًا ولكنه ليس بدينًا يشبه أليساندرو كثيرًا، بينما تونى يشبه والدته أكثر، كلا الشابين التحقا بالعمل معنا، فى البداية تعلمنا التجارة رويدًا رويدًا، صعدا السلم من أوله، ثم انتقلا للعمل بالسياحة، راق هذا أكثر لماركو، كان محبًا للسفر والترحال، كثيرًا ما اصطحبته معى فى جولاتى للخارج، والتى لم تكن للعمل فقط إنما للترفيه أيضًا، مولعًا ماركو بالفتيات كذلك، يجيد اصطيادهن والتعامل معهن، على عكس تونى الذى يبدو أكثر هدوءً واتزانًا فى هذا الأمر، جادًا أكثر فى التعامل، يبحث عن النجاح بشتى الطرق ويضع دائمًا لمسة خاصة به، شخصية مستقلة تمامًا تونى، أحببت الولدين وعلمت أنهم يومًا ما بعد رحيلى أنا وأخى سيحملون عبء مشروعاتى ومؤسستى.

ومع تشعب أنشطتى لم تعد إيطاليا وحدها مستقرى ومقامى، بيتًا فى فرنسا وآخرًا فى ألمانيا وفيلا بأمرىكا وقصرًا فى تايلاند، أسطول من السيارات الفارهة بانتظارى فى كل مكان وأسطول من السفن يبحر شرقًا وغربًا شمالًا وجنوبًا كنت دائم التنقل والترحال،

يتتابنى السأم إذا بقيت في مكان واحد أكثر من أسبوع، ولكن حين دعت أعمالي لزيارة نيوزيلندا وأستراليا وجدت وجهًا آخر للعالم لم أره من قبل، أرضًا منسية وعالمًا خاص في هذه الأرض البعيدة وقوانين صارمة لا تفرق بين جنس وشكل ولون، لا صراعات دينية أو قبلية أو سياسية، الجميع هنا متساوٍ في الحقوق والواجبات، سلام نفسى يحياه الجميع ويفر الكثيرون إليه، العالم يؤكد قناعاتى للمرة المليون بأن اللجنة كانت ممكنة على الأرض لو ترفع الإنسان عن دونيته ووحشيته، كم هى ساحرة نيوزيلندا تلك الجزيرة الهادئة ساحرة الجمال المعزولة عن الصراعات، حبتها الطبيعة بمناظر خلابة وجمال أسر، تتكون من مجموعة من الجزر اثنتين كبيرتين وعدد من الجزر الأصغر مساحة، تغطى الغابات مساحات شاسعة منها، وتتميز بتنوع زراعى وحيوانى فريد مما فتح لى المجال لوصول باخراتى بغرض التجارة كما أننى أحببت البقاء فيها والاستمتاع بتلك الطبيعة المبهرة، وبينما أنا فى رحلة بحرية هناك علمت من أحد المرشدين السياحيين بوجود عدة جزر فى جنوب المحيط الهادىء متفاوتة المساحة وأعداد السكان وكانت المفاجأة حين قال بأن هناك عدد قليل من الجزر يتمتع باستقلالية تامة ويخضع لحكم ذاتى، لا سلطان لا قانون عليهم إلا قوانينهم الخاصة سألته «كيف ذلك؟»

فأجاب «قد تخضع لأستراليا أو نيوزيلندا على الورق فقط ولكن ذلك لا يمنع من تمتعها بحكم ذاتى، وذلك لأن الحياة هناك بسيطة جدًا، بدائية بدرجة ما، لا يوجد سفن عملاقة ترسو هناك أو موانىء أو خطوط قطار أو حتى مطار، إنهم كذلك لا يدفعون الضرائب، لا يوجد حتى رعاية صحية هناك وليست لهم مطالب

سوى أن يُتركوا وشأنهم» ذهلت حين سمعت هذا الكلام، بعد هذا العمر الطويل اكتشف أن هناك جزرًا منعزلة لا تخضع لقوانين العالم المنحرف ولا تأبه به، وتنعزل تمامًا عنه، أى نعمة يعيشون فيها؟ حياة بكر تلك التى يحيونها.

هنا فقدت قدرتى على كبح دهشتى وألقيت عليه مطلبى «أريد الذهاب هناك لزيارة واحدة من تلك الجزر ذات الحكم الذاتى» نظرتلى الرجل مليًا، وشعرته يقول بداخله «أى مجنون هذا؟!» ولكنه لمح إصرارى فأوضح لى «الأمر ليس سيرًا كما تظن ليس هناك تذكرة سفر تقودك إلى هناك، كما أن هذه الجزر باللغة الصغر، عدد سكانها قليل جدًا»

«إذن كيف يمكننى الوصول؟»

لقد عزمت الأمر ولن أراجع، إذا لم أستطع أنا فى هذا السن وبكل ما أملك تحقيق رغبة، فمن يمكنه؟

«هناك جزيرة تنقل إليها البضائع عبر السفن، ولكن هذه السفن لا تقترب من الجزيرة، فقد تنقل ما تحمل من بضائع إلى قوارب أصغر تحمل طنين أو ثلاثة، يمكن لواحد من تلك القوارب أن يملك إليها، إنها جزيرة صغيرة للغاية»

«هل يمكنك أن ترافقنى إلى هناك؟»

«أنا لم أذهب هناك من قبل، لكنى سمعت»

«ولكن أظن وجودك سيدل أمورًا كثيرة»

هكذا انتقلت إلى هناك بصحبة توماس المرشد السياحى إلى الجزيرة، كانت تقع فى جنوب المحيط الهادئ شمال نيوزيلندا وشرق أستراليا،

تبعد عن كليهما مئات الكيلومترات، كانت الرحلة إليها مثيرة، من الرائع أن تكتشف مكانًا بعد الستين لم يزره إلا عدد قليل من البشر، وصلنا إلى هناك في مايو، كان الطقس معتدلًا بديعًا، درجة الحرارة لا تتجاوز العشرين درجة، هواء نقى منعش، أخذنا جولة سريعة على الجزيرة التي لا تتجاوز مساحتها ثلاثين كيلو مترًا، كما علمت يعود تاريخ هذه الجزيرة للقرن الرابع عشر حين هاجر إليها بعض البحارة من الجزر الشمالية، عاشوا عليها قبل أن يختفوا لظروف غامضة لتعود الجزيرة مهجورة من جديد، ثم وصل إليها بعض البحارة في القرن الثامن عشر، ومع بدايات القرن العشرين تم ضمها للجزر التابعة لأستراليا، تعتبر الجزيرة آمنة تمامًا وأهلها مسلمين للغاية لم يقع بها سوى جريمة قتل واحدة في أواخر القرن التاسع عشر، وكانت هذه أول وآخر جريمة على سطح هذه الجزيرة، جميع أهل الجزيرة يتحدثون اللغة الإنجليزية وهى لغة المهاجرين الأوائل كما أنه يوجد لغة محلية لا يفهمها إلا سكان الجزيرة، العملة الأسترالية هى المتداولة والتي يتم استخدامها في التجارة، عدد كبير من السكان لم يغادر الجزيرة أبدًا والعدد الآخر لم يغادر إلا لزيارة أستراليا، أو إحدى الجزر القريبة، ولم يذهبوا أبدًا لأبعد من ذلك، تعاني الجزيرة وأهلها من عدم وجود إمكانيات طبية معقولة، لذا فالحالات الحرجة من المرضى تواجه الموت، والأمراض المعتادة تسبب ألمًا لا يحتمل إلا لو تمكنت من الانتقال إلى أستراليا ويعتبر ذلك أمرًا مكلفًا للغاية مقارنة بإمكانياتهم، يعتبر الطقس هنا مثالي، فلا تقل الحرارة عن عشر درجات ولا تزيد عن ست وعشرين درجة، عدد السكان هنا لا يتجاوز ثلاثة آلاف نسمة، يعتمدون على الزراعة والصيد كموردى رزق، أغلب

أرض الجزيرة صالحة للزراعة حتى المرتفع منها، أما ساحلها فلا يستحب السباحة فيه إلا في مناطق قليلة نسيباً آمنة بدرجة كبيرة، يمكن القول إنى فنتت بها، هى ليست أجمل ما رأت عينى ولكن استقلاليتها مدهشة، هدوءها ونقاء أهلها وحفاظهم على استقلالية حكمهم راق لى كثيراً، لاحظت وجود قطع صغيرة من الأراضى القاحلة بغير زراعة أو مبانٍ، مهجورة تماماً، ربما أرض غير صالحة، بعد انتهاء جولتى بمساعدة توماس، طلبت لقاء الحاكم المسئول عن الجزيرة، اندهشوا من طلبى هذا ولكنى أصريت بلطف، بعد تناول الغداء والذي كان عبارة عن وجبة أسماك فاخرة لذيدة المذاق، انتظرته لمدة ساعتين، اسمه بيكوى، ذهبت إلى منزله وحيداً، كان منزلاً واسعاً بسيطاً لا يخلو من أناقاة مكون من طابق واحد تحيط به من الخارج حديقة صغيرة وسور قصير لا يتجاز المترين، الأرضية مغطاة بسجاد يدوى الصنع، والأثاثات أغلبها خشبية مطعممة بالزخارف يوجد فى أحد الأركان انترية يبدو عليه القدم ولكنه يحتفظ برونقه، وصل إلى الرجل وحيانى بابتسامة ودودة، يقاربنى فى السن، غير أن شعره الأبيض الناعم يغطى رأسه ويديه تبدو عليها الخشونة، هل مازال الرجل يمارس أعمال الزراعة؟ لا أدرى، قامته مستقيمة طويل بعض الشىء ويتمتع بوافر من الصحة كما يبدو، عيناه ثابتتان حادثان تطلقان نظرات نافذة، المنزل بلا حراس أو خدم إلا من رجل عجوز قام بإحضار كوب من العصير، حتى الآن لا أعرف من أى فاكهة صنُع ولكنه ذو طعم خاص لم أتذوق مثله من قبل، بعد التحية قادنى الرجل بنفسه إلى غرفة مليئة بالوسائد الوثيرة موضوعة على الأرض لتشكل مستطيلاً كبيراً، هل تتم اجتماعاتهم هنا؟ كم هو بسيط الحال هنا بلا تكلف.

طلب الرجل منى الجلوس فجلست ثم اتكأ أمامى هو الآخر،
ونظرة تساؤل مستقرة فى عينيه، أعلم أهمية هذا اللقاء الذى ربما لا
تأتى الفرصة لتكراره، لذا حرصت أن يكون كلامى واضحاً مباشراً:
- لقد شاهدت الجزيرة وراققت لى كثيراً وعلمت بأمورة عدة،
جعلت رأسى تعمل لتقديم اقتراح أرجو أن ينال قبولك

- بالتأكيد يسعدنا ذلك

- علمت أن الخدمات الطيبة هنا شبه معدومة، عدد قليل من
المنتجات التى تصل إلى هنا، والباقى ربما لم تسمعون عنه، هذه
الجزيرة تستحق ما هو أفضل من ذلك

- أهل الجزيرة قانعون ولكن هل لديك مقترح لتحسين هذا
الأمر؟

- نقل كل المرضى لأقرب مستشفى حديث لتلقى العلاج اللازم
والعودة عقب الشفاء، كما أنى لدى أسطول من السفن، يمكن
تخصيص إحداها للمعاملات التجارية للجزيرة، بجانب عدد من
القوارب، ربما سيزيد تجارتكم فاعلية ويعود بالنفع على السكان.

كان الرجل ذكياً، فصمت قليلاً ثم سألتنى:

- أنت تريد المساعدة كما هو واضح ولكن ما المقابل لذلك؟

كان ذكياً مباشراً دون لف أو دوران، لذا قلت فوراً

- أريد قطعة صغيرة من الأرض على سطح الجزيرة

بدون تردد وباقتضاب :

- لا يوجد أراضى هنا قد تفيدك، الأراضى الصالحة للزراعة لا
نفرط فيها

يبدو أنه ظن أنى أريد الاستثمار على هذه الجزيرة

- لا أشرتط أرضاً بعينها، أى قطعة أرض لا يتم استخدامها ولا تناسبكم فستكون مناسبة لى شخصياً وسأدفع أى مبلغ تطلبه.
- لا أفهم حاجتك إليها ولكنى لا أريد أن أخدعك، هناك قطعة أرض فى شرق الجزيرة، مساحتها ليست كبيرة ولكنها لن تفيدك بشىء.

- لا تقلق، سأحسن استغلالها دون ضرر بالجزيرة وأهلها.

- وما وعدت به؟

- أنا رجل يفى بكلمته ويمكن نقل أى مريض لديكم من الغد.

مادمت تملك المال فلا شىء قادر على إيقافك، فقط عليك الإصرار وستحصل على ما تريد مهما بدا عجيباً غريباً، وهكذا حصلت على قطعة أرض بعيدة كل البعد عن عيون العالم، تعاقدت مع أحد الاستشاريين المعماريين وعدد قليل من الرجال نالوا أضعاف ما يمكن أن يتقاضوه فى أى مكان آخر وذلك لسرعة بناء الكولوسيوم الخاص بمدرجى الجديد، حلم جديد سيتحقق على أرض بكر لم يلوثها شرور البشر، ولكنى سأجعل ساحة القتال الخاصة به مقرّاً للنيل من فُجارهم، الويل الويل لمن ينسى نفسه، لمن سيتخلى عن إنسانيته، لمن يستقوى ويظن أنه لا عقاب، هنا سيرقصون من العذاب، سيتلونون من الوجع، سيذوقون ما سببوه من شقاء، سيظمأون حتى الهلاك ولكنهم لن يشربوا إلا دماءهم وسيندمون حتى الموت، كل منهم سلك طريقاً يقود للهلاك، فلا خلاص سوى أن يسد لنفسه معروفاً ويموت بسرعة، لأنهم كما تخلوا عن الرحمة فى الأفعال فسنتفقد اللطف فى ردود الأفعال.

كانت الأسئلة الفضولية كثيرة وكانت إجاباتي واهية، سأجعل من المكان مزارًا سياحيًا جديدًا، سيتم تصوير عملاً درامياً، بالتأكيد يمكن تصديق كل ما أزعم، فمن سيتصور أنى سأعيد التاريخ ولكن وفقاً لمنطق جديد، مدرج روماني في العصر الحديث سيشهد أسوأ عقاب لأسوأ من أنجبتهم البشرية، تخيل معى لو أن فكرتى قائمة من قديم الأزل، تخيل لو جعلنا هتلر يقاتل ستالين، وهانيبال ليكتر يقابل وحش الإنديز بيدرو لوبيز، ماذا لو التقى جاك السفاح وجزار روستوف داخل حلبة قتال، نريدهم أن يمارسوا وحشيتهم مع من يستحقها وسنبتهج إذا ما مورست وحشية مماثلة تجاههم، تلك هى العدالة والمتعة معاً، فى اعتقادى أن ذلك سيحد من القسوة تماماً وأنت ترى مصيرك القابع بانتظارك، تخيل لو أطلعناك على جهنم، لو سقناك إلهال ترى المعذبين فيها ممن سبقوك من المذنبين، لو رأيت حجم الألم والمعاناة، لو تصورت الندم الذى يشعرون به، أظنك ستتعظ وستفكر ألف مرة قبل الاستهانة بالآخرين، قبل أن تقتل قبل أن تحرق، قبل أن تدمر، لم يرددوا أبداً بما أخبرهم به دانتي عن الجحيم، فلا مانع من زيارة له بلا عودة لتجسيد الصورة بشكل أوضح. هذا هو ما أسعى إليه.

بالتأكيد لن يكون المدرج الحديث بحجم مدرج روما القديم نظراً لصغر مساحة الأرض التى حصلت عليها، فالمدرج القديم يتسع لما يقرب من ثمانين ألف متفرج وطول القسم الداخلى لأرضيته حوالى 80 متراً وعرضه 48 متراً ويتجاوز ارتفاعه 50 متراً، لذا سيتم اختصار هذه الأبعاد إلى النصف أما الارتفاع فسيظل كما هو أو يقل قليلاً، أما المدرج نفسه فسنكتفى ليتسع لبضعة آلاف.

سنستعيد أجواء روما القديمة، وسيصير الكولوسيوم الجديد هو مصير القتلة والسفاحين، لا أسرى، لا فرسان لا جنود رومان، لا ظلم.

يمكن القول بأن عملية البناء تمت تحت سمع وبصر أهل الجزيرة وأولهم بيكوى الحاكم، لا أدري إن كانت لديهم معلومات بشأن المدرج الرومانى، ولكنهم فى أغلب الظن لا يعرفونه ولم يسمعوا عنه حتى، ولكنهم لم يكفوا عن إبداء انبهارهم بما صار عليه المبنى، بالطبع كانوا شاكرين لتحسن الأحوال الصحية للمرضى منهم، وإمعاناً فى المساعدة أكثر وتقديرًا لدورهم فى تحقيق حلم رجل عجوز قمت بإنشاء صيدلية كبيرة واسعة تحوى جميع أنواع الدواء لمختلف الأمراض التى يعانون منها والتى لم يشتكوا منها من قبل تحسبًا لأى ظروف، على أن تُصرف الأدوية بالمجان وفقًا لتقتضيه الحاجة.

وفى شهر أغسطس من عام 2000 دعوت أحدى وولديه لعرض تحفتى المعمارية الجديدة عليهم ليخطو خطواتهم الأولى على سطح الجزيرة، مهما أطلقوا العنان لخيالهم لن يتمكنوا من محاولة تخمين تلك المفاجأة، كولوسيوم جديد على سطح جزيرة منعزلة عن العالم يسكنها عدد محدود من البشر، تواصلهم بالعالم قاصر جدًا اعتمادًا على بعض السفن والقوارب، يقف مبنى الكولوسيوم على منصة مرتفعة فوق المنطقة المحيطة به والمكونة من الحجر الجيرى، أساس المبنى مكون من عدد كبير من حجر الطف، ويصف فى خارج البناء سور من الطوب، تتكون دعائم الهيكل من كتل أعمدة من الحجر الجيرى متصلة بواسطة قضبان معدنية. يحيط المبنى على شكل دائرة يصل قطرها إلى 40 مترًا،

المبنى المواجه للمدرج والذي يتوسطها الساحة مؤلف من ثلاثة طوابق يحمل الطابق الأول أعمدة من النوع الدورى أبسط وأقدم نوع من الأعمدة ويليه طابق تحمله أعمدة أودبايس من النوع الأيونى والتي تسمى كذلك نسبة إلى مدينة أيونيا اليونانية ثم يليها الطابق الثالث الذى تحمله أعمدة من النوع الكورنثى نسبة إلى مدينة كورنت التى اشتهرت قديماً بالترف وتزدان تيجان أعمدته بزخارف تشعب أوراق الأشجار، مع تأطير أقواس كل من الأروقة المعمدة فى الطابقين الثانى والثالث بعدد من التماثيل، كان للمدرج خمسة عشر مدخلاً متجاورين على شكل دائرى من الخارج على غرار ملاعب المدن الرياضية الحديثة، أما الجزء الداخلى فيتكون من ثلاثة أقسام، القسم الأول هو المسرح المدور مكان التنافس والذي يمكن التحكم فى أرضيته بشكل كامل يحده سور من قضبان معدنية فى منتصفها يوجد باب مكونة هيئته من هذه القضبان، وهذا السور يمكن رفعه أو خفضه لأسفل الساحة حتى يتلاشى على السطح وذلك بواسطة روافع تعمل بمساعدة عدد من التروس والآلات تعمل بشكل أوتوماتيكى عقب الضغط على مجموعة من الأزرار، أما القسم الثانى فهو المنصة وهى الخاصة بى وبمن سيصحبني من الضيوف فى حالة تواجدهم، تحتوى المنصة على مقصورة تتوسط المدرج ويمكن القول بأنه لن يتم الاستفادة منها لأن الحضور سيكونون من أهل الجزيرة، لا حكام أو أمراء أو فرسان ليشغلوها كما كان يحدث قديماً، على يمين ويسار المقصورة يوجد القسم الثالث مدرج حجرى لمقاعد المشاهدين، على يمينها يوجد سارى طويل، أعلاه ستعلق لافتة على حامل تحمل معنى ما لم أستقر عليه بعد، بين اللافتة والحامل ستوضع كاميرتان مسطرتان

على الساحة والمدرج، متصلتين بوحدة من الغرف المغلقة لعرضها على شاشات كبيرة، لا أدرى إن كنت سأستخدم هذه الغرفة يومًا ما مع الشاشات أم سأكتفى بالمشاهدة لجولات القتال من المنصة، الأبواب الخارجية للمدرج تقود إلى درج مؤدى إلى عدد من الممرات حتى تنتهى إلى المقاعد في المدرج. بات المبنى الخاص بى قريبًا من المدرج الأصلي وإن كان أقل حجمًا وأصغر مساحة ولكن روعى استخدام نفس المواد المستخدمة في بناء المدرج الأصلي.

أرى نظرات الافتتان تفر من أعينهم جميعًا، معجزة جديدة اختصيتهم وحدهم للاطلاع عليها،
قال اليساندرو في حبور:

- مئات وآلاف سيتحرقون شوقًا لرؤية هذا المدرج العظيم، هذه الجزيرة ستصير واحدة من أهم وأفضل المزارات، ستستقطب عددًا كبيرًا من السياح، مدهش روبرتو، يالك من عبقرى!
ثم قال ماركو:

- عمى يثبت من جديد قدرته على تحويل التراب إلى ذهب.
أما تونى فظل صامتًا، عيناه تدور في المكان في كل ركن، يلمس بيديه كل جدار، كل حجر، يطوف حول المكان من الداخل والخارج وأنا أراقبه، حتى انحنى على الأرض ولا مسها، ورفع بعض من جبات الرمال وهو يتبادل نظرات الإعجاب مع أخيه ووالده ثم طرح علي أسئلته:

- كم من الوقت استغرق بناؤه يا عمى؟
- ستة شهور، لقد واجهنا صعوبة في نقل كافة مستلزمات البناء ولكن في النهاية تم الأمر.

رفع حاجبيه تعبيراً عن دهشته من قصر المدة التي استغرقتها هذه التحفة، ثم طرح السؤال الأهم والذي لم يدهشني كثيراً لأنى أعرف فراسته جيداً:

- لا أظن أنك ستستخدمه لدعم أعمالك السياحية؟ أليس كذلك؟

- يعجبني ذكاؤك تونى، بالفعل ليس الهدف منه جلب السياح إلى هذه الجزيرة فى أقصى الأرض، تكلفة الرحلة للوصول إلى هنا باهظة جداً، عدد قليل من السياح يمكنه تحمل تلك التكاليف. فقاطعنا اليساندرو:

- وإذا لم نستفد منه، فما الداعى لبنائه، لكى نحملق فى جدرانہ وأحجاره وحدثنا؟

- ومن قال إنه لن يستفاد منه يا أبى؟

لوهلة شعرت بأن تونى يقرأ ما بداخلى وكأنه كان على علم مسبق به رغم يقنى من استحالة ذلك، ومع هذا ترك لى الإجابة على سؤال والده المباشر:

- لماذا الكولوسيوم دوناً عن غيره؟ لماذا هنا تحديداً، بعيداً عن أنظار العالم، ربما لو تم بناؤه فى مكان أقرب لجلب لنا ملايين الأموال من كل صوب؟

- لأنى سأعيد التاريخ من جديد أليساندرو، لن يستخدم إلا كما استخدم المبنى الأصلى، ساحة للقتال.

لمعت عينا تونى مع كلماتى انبهاراً بينما ماركو يشارك والده الدهول، فغمغمت بهدوء:

- لدينا مؤسسة تطارد المجرمين وتفتك بهم وتصفيهم في الحال كأى فرد في العالم، هؤلاء لا يستحقون موت سريع عاجل، هؤلاء يستحقون الشرب من نفس الكأس، وهذا هو الكأس.

- هذا أكثر من اللازم يا أختى، لم يعد العالم كما تظن، الأقمار الصناعية يمكنها أن تصل لأى مكان بالعالم، من الصعب إبقاء الأمر سرًا لفترة كبيرة، ونحن نعانى لتيسير أمور منظمنا، لماذا تحمل نفسك أكثر من اللازم وتزيد الأعباء على الجميع؟

كان يقول كلماته بانفعال واضح، جعلنى أشفق عليه حقيقة كعادتى معه خاصة وأنا أرى شعره الأشيب، وقامته المنحنية، كيف لم ألاحظ ذلك من قبل، لقد هرم الطفل الصغير الذى كنت أخاف عليه ومازلت أنا كما كنت دائمًا مشفقًا عليه ولكنى برغم ذلك لم أكن على استعداد لسماع أى معارضة حتى لو كانت من أليساندرو.

- يبدو أنك لم تسمعى جيدًا أليساندرو، هذا المكان مستقل تمامًا، لا سلطان على الجزيرة إلا لأهلها وقد عقدت اتفاقى معهم، سنستكمل أنشطتنا كما اعتدنا، فقط المجرمين الذين ستمكن من الحصول عليهم أحياء، سنأتى بهم إلى هنا، يومًا ما حين يستخدم البشر عقولهم على النحو الأمثل سيفهمون أن هذه هى الطريقة المثلى للحد من العنف، أن يرى المجرم مصيره، لا رحمة مع من لا يستحقها.

- أتفق معك تمامًا عمى، ولا تقلق أبى ستسير الأمور دومًا فى هدوء.

كانت الجملة الأخيرة من تونى والتى لم تتنى أباه عن رأيه،

ولكنها زادتنى إصرارًا، كان تونى متحمسًا لكل تفصييلة تخصص
المبنى، اصطحبته ليرى الثكنات السفلية التى ستأوى المجرمين
ومجموعة الأقفاص والزنازين التى سيقون بها حتى تحين
مواجهتهم، ثم شرحت له عمل آلات الرفع والبكرات والدعائم
التى تحيط بالساحة الداخلية، والتى سترفع المجرمين المتواجدين
داخل أقفاص من أسفل الأرض الخشبية المغطاة بالرمال إلى سطح
الساحة، كيف سيتم فتح الأبواب وغلقها عقب دخول المجرمين
كان منصتًا فى تركيز وقد وعى كل كلمة قلتها وحفظها عن ظهر
قلب. مررنا بغرفة أسفل المبنى بابها مصفح، لم يسأل ولم أعلق على
سبب غلقها أو كنه ما تحتويه، فقط احتفظت بالنسخة الوحيدة
لمفتاحها معى، وبذلك لن يقدر أحد على دخولها إلا بمصاحبتى أو
بإذنى. إنها الغرفة التى تحتوى على الشاشات وتعرض ما تصوره
الكاميرتان المخفيتان أسفل الالفتية.

عقب مغادرتهم وجدت السيد بيكوى يطلب لقاىى، ذهبت
إليه، قابلنى بحرارة وأبدى إعجابه بما تم بناؤه وحين سألتنى عن
أوجه استخدامه، شرحت له ما يدور بالخارج من جرم وقسوة،
وأن هذا المدرج ليس سوى وسيلة للانتقام ليعتبر كل مجرم قبل
الإقدام على ارتكاب جريمته، أبدى تخوفه من انزعاج أهل الجزيرة
من مثل هذه الممارسات، فوضحت له وجهة نظرى بأنهم سيكونون
الجماهير التى ترى وتحضر هذه المواجهات إذا لم يانعوا فى ذلك، إنهم
الأنقياء ومشاهدة هذه المواجهات سترسخ قناعاتهم وتزيد تمسكهم
بالسلام والمسالمة تجنبًا لمواجهات كهذه، لم يقتنع تمامًا ولكنه باغتنى
بسؤال لم أتوقعه:

- ماذا لو أصاب أهل الجزيرة ضرراً جراء ذلك المبنى وما يدور بداخله؟

- سأغادرها على الفور، في حالة شكواكم

اطمأن قليلاً لبياعتني بسؤال آخر

- هل أنتم في حاجة إلى عمال أو حراس لهذا المبنى؟

- بالتأكيد نحتاج لعدد كبير منهم

- حسناً، هل يمكن أن ينضم ولدى أندرو للعمل في هذا

المبنى؟

- بالطبع مستر بيكوى هذا مفيد جداً

وبالفعل عقب فترة من التدريب استمرت قرابة شهرين، بدأ أندرو في الإلمام بكل الأمور الظاهرية الخاصة بالمدرج، كان ودوداً طيباً مطيعاً، قطعة طرية من العجين يمكن تشكيلها كما شئت، رابط الجأش ملامحه هادئة ووجهه يوحى بالثقة، قامته متوسطة الطول وبشرته بيضاء شفافة يبدو أنه ورثها عن والدته التي لم أراها هي أو أى من نساء الجزيرة، كان أكثر من مجرد حارس للمبنى، صار مشرفاً عليه إشرافاً كلياً ومسئولاً عنه كما صار مرافقاً لي في كل مكان في الجزيرة، وأصبح المسئول أيضاً عن منزلي الصغير القريب إلى حد ما من المبنى يشرف على تنظيفه وزراعة الحديقة الصغيرة التي تحيط به وإمدادى بكل ما أرغب، كان المنزل مكون من طابقين فقط، الأرضي والأول فقط، بالأسفل بهو واسع به أنتريه مريح وعدد من الكراسى بجانب غرفة بسيطة للسفرة ومتعلقاتها، وغرفة لإعداد الطعام، وغرفة للمكتب

وتصلح لاجتماعات صغيرة أغلبها سيكون مع أخى أو ولديه أو حراس المبنى، وفي الطابق الثانى ثلاثة غرف واسعة للنوم ملحق بكل منها حمام خاص.

قام تونى باستئجار عدد من الحراس الأقوياء الغلاظ الموثوق بهم، وتم تدريبهم على كافة الخطوات بدءاً من نقل السجناء من القوارب إلى وضعهم في محبسهم مروراً باستخدام الروافع وفتح الأبواب وكل ما يلزم معرفته لتنفيذ عروض القتال بدقة واحترافية، بجانب تدعيمهم بأسلحة نارية مدربين على استخدامها بمهارة وقت اللزوم بالتسديد على قدم وساق أى قاتل يبدى مقاومة، كان أندرو سريع التعلم كذلك، لكنه لم يوكل إليه مهمة حمل سلاح أو التدريب على استخدامه ولكنه بدافع الفضول شارك معهم، وتم الاتفاق مع السيد بيكوى بحضور أهل الجزيرة لهذه العروض، حتماً سيجدون فيها كثيراً من المتعة والإثارة، حقيقةً لن أجد جمهوراً مثاليًا أكثر من هؤلاء الذين لم يرتكبوا فاحشة واحدة يوماً ما، ربما أكثر ذنباً ارتكبه كذبة جالت بخاطر أحدهم ربما أجاد نسج خيوطها ولم تكتشف بعد، حضورهم لهذه العروض سيغرس بداخلهم خوف أبدى من ارتكاب جريمة واحدة، هكذا يجب أن ينشأ الجميع، يشبون على قواعد ثابتة للعدل لا تعرف واسطة أو محسوبية، لا تفرق بين فرد وآخر، تطبق قوانينها على الجميع بحزم وصرامة، خبرة كهذه ستجعلك تفكر ألف مرة قبل الشروع في ارتكاب جريمة وإلا عليك قتل نفسك بعدها تفادياً لهذا العقاب.

وفي أواخر عام 2000 تم إقامة أول منافسات قتالية بين

مجموعة متنوعة شديدة الإجرام من المذنبين، قتلة، مجرمى حرب، سفاحين، تجار بشر، تجار أعضاء، منتهكى أعراض، متطرفين لا يتورعون عن سفك الدم.

كوكبة قد لا تجتمع حتى في أشهر السجون خطورة وأكثرها دموية، العديد منهم حتى وإن أُتهم بجريمة فعادة ما ينفذ من ثغرة ما في القانون فيفر من إعدام مستحق، أما هنا فلا فرار. بدأت الفاعليات بحضورى وحضور أبناء أخى بجانب عدد من أهل الجزيرة، لم يملأوا نصف المقاعد ولكنه كان كافيًا لإثارة الحساس وإلهاب المعركة بين طرفين مستحقين للهلاك، بينما تغيب أخى الذى ظل معارضًا تمامًا للفكرة بأكملها.

نشوة اعترتنى وأنا أشاهد دماء تتناثر وصرخات متأوهة، وعظام تُكسر وأعضاء تبتتر، لقد برع تونى في إضفاء وحشية على القتال بأفكار عدة، هناك جولات يتم فيها القتال وكلا المتصارعين معصوب العينين، أو مربوط القدمين، أو مقيدة يده، أو يمنع كل متصارع سيف أو خنجر، وكان ينتشى أثناء العرض وكأنه حاكم رومانى يتلذذ بتعذيب أسراه، جنون ما ألمحه في نظرات عينيه المفتونة، لا أنكر أنى أملك وميضًا منه، لكن تونى جُنْ بالكامل وتعلق باللعبة التى منحها له العم رويرتو.

ومع استمرار القتال وتساقط القتلى واحدًا تلو الآخر لم تأخذنى شفقة بهم، جرائمهم أمامى حاضرة لا تفارق ذاكرتى وكلما خالجنى شعور بسادية خفية تنمو بداخلى تذكرت سيلفيا وآخرين راحوا دون أن ينال الجناة ولو ضربة بعصا على راحة

اليد كما أنى لم ألمح أبداً نظرة ندم في عين مجرم واحد من المتقاتلين داخل الساحة، جميعهم يحمل نفس النظرات المتوعدة الشرسة التى لا تبث إلا تهديدات مسمومة، ماتت قلوبهم ودفنت ولا سبيل لإحيائها، كل ما علينا إلحاق هذه الأجساد بقلوب ميتة فى العالم الآخر بأسوأ طريقة ممكنة.

لاحقاً لم أتمكن من متابعة كل الجولات القتالية التى تدور على سطح الجزيرة ولكنى بين الحين والآخر أكتفى بزيارة أتابع معها سير العمل فى تحفتى التاريخية المعمارية، بمجرد وصولى اصطحب أندرو، يروى لى كل ما دار أثناء عدم وجودى ويمنحنى صورة كاملة عن أوضاع الكولوسيوم بجانب تلك التى كنت أحصل عليها من تونى وماركو فى لقاءاتنا بإيطاليا أو خارجها، كانا الأخان يديران المؤسسة وفروعها بإخلاص فى ظل متابعة بعيدة منى وانحسار دور اليساندرو رويداً رويداً، فى عمرٍ كعمرى وعمره يجنح المرء للهدوء والعزلة والبعد عن كل السخافات التى تحيط بعالم يحاول التظاهر بالتحضر، بينما تكون أنت كونت فكرة بالفعل عن مدى قذارته وتفاهته.

فى عام 2005 ساءت حالة اليساندرو الصحية نتيجة لمشاكل قلبية، كان بحاجة لتركيب دعامات وتغيير شرايين، أخى الصغير يعانى ومازلت أرتجف من فكرة أن يصيبه سوء.

كنت بجواره دائماً، لا بد أن وجودى بجانبه يعنى له شيئاً مثلما كان دوماً يعنى لى وجوده، فى واقع الأمر لا أجد غضاضة أبداً فى الاعتراف بأن الملياردير روبرتو روسي الذى يأمر فيطاع، يشتهى

فينول، يلحم فينغد، يشير بأصبعه فينتفض من حوله لتلبية رغبته في سرعة وإتقان، هذا الرجل الذى هو أنا ليس له سوى نقطة ضعف واحدة ترقد في وهن في واحدة من كبريات مستشفيات أوروبا، يتلقى علاجًا لا أحد يدري إلى أى مدى قد ينقذه من الموت، ثلاثة أسابيع في المستشفى واليساندرو في غيبوبة مخيفة، لا يجد لها الأطباء تفسيرًا واضحًا، حتى استفاق ذات يوم وتمكن من الابتسام لنا، ابتسامة خافتة شاكرة ممتنة لوجودنا جواره، وفي الحقيقة أنا الأكثر امتنانًا منه لوجوده في حياتي، اليساندرو هو الذى يجعلنى أتمسك بأن تصير الحياة أفضل من أجل هؤلاء الذين فقط أرادوا أن يعيشوا دون أن يسببوا قط ألمًا لغيرهم.

لا أدري إن كان قاسيًا هذا الاعتراف الذى أنا بصدده الآن، ولكن يتعين عليّ قوله، بأنى رغم كرهى لهذه الحياة فعينى لم تذرف دمعة واحدة منذ مقتل سيلفيا وطوال نصف قرن حتى جاء اليوم الذى تلقيت فيه نبأ وفاة اليساندرو في أواخر عام 2006، عقب هذه المكالمة عدت طفلًا صغيرًا ينفجر في البكاء دون توقف، أنهار الدموع المتجمدة في عيني سألت جميعها دفعة واحدة محدثة طوفانًا لا شىء قادر على إيقافه، رحل أخى في هدوء مثلما عاش في سلام، وتركنى وحيدًا بانتظار رسول الموت ليلحقنى به. لا أعلم لماذا تأخر هكذا، لقد انتظرته طويلًا من قبل، ومررت عليّ أوقات عديدة أتمناه ليريجنى من هذا العالم، على ما أظن يريد الموت أن يباغتني كعادته ليضحك عقب قبض روحى ويبلغنى بالخبر مبتسمًا «مبارك أنت الآن ميت، ما رأيك بهذه المفاجأة؟» فكرت في تلك

الجملة هل يأتي الموت لقبض الروح مباركاً أم معزياً؟ هذا يتوقف على موقفه منك، هل جاء كمنقذ لك أم ليخلص العالم منك؟ يقينى بأنه سينقذنى، لقد سئمت مبكراً جداً من هذا العالم. وددت دوماً الاستقالة من هذه الحياة. لم أعد أريد أن أكون، ولم أعد قادراً على أن أكون، كنت أجبن من ذلك. حاولت دوماً تغيير العالم للأفضل ولكنه صار أسوأ من أن يمكن تغييره، سيبقى هكذا حتى يفنى وهو فى أسوأ حال.



«مراوغة هي الحياة ومخادعة دائماً وعصية الفهم غالباً ففي
أحلك ظروفك تعطيك فرصة للانتقام حتى لتبدو وكأنك قد نلت
حقوقك وتحققت عدالة مزعومة..»

(22)

عاصم - الجزيرة

أبريل 2015

مر أسبوعان على وجود عاصم على سطح هذه الجزيرة وأربعة أيام على المواجهة الأولى وعاصم في زنزاته يواسى نفسه بذكريات قديمة أسعفه فيها الحظ بشكل لم يتخيله، ولكن ها هنا يبدو المكان بلا ثغرات ينفذ منها الرجاء جالبًا معه الأمل، حتى الحظ لم يعرف لهذه الجزيرة عنوانًا فسقطت من ذاكرته سهوًا، وحدها براعته في القتال في مواجهات غير معتادة يشوبها لذة في الإذلال وإمعان في التعذيب هي ما تضمن له أيامًا أخرى من بقايا حياة بائسة، لذته الأولى هنا هو النوم واللذة الثانية نسمات هواء تحمل رائحة المحيط يملأ صدره بها فتمنحه شعورًا مفقودًا بحرية متوهمة، لم يندم على جريمته التي قادته إلى هنا أبدًا ولو تكررت نفس الأحداث لقام بنفس رد الفعل، لذا لا تأنيب ضمير يعتريه أو شعور بالندم يسيطر عليه، فقط دهشة وسخرية من التحولات التي شهدتها حياته.

مستسلم هو لقدره ولا حيلة له داخل هذه الزنزانة، بانتظار

جولة جديدة تعيده إلى الساحة، لم يطل انتظاره، فمع دخول الحارس نهاراً لوضع الماء الذى يتلقاه بشفاه جافة، والطعام الذى لا يشتهيهِ أخبره بأن هناك فى الغد لقاء جديد له، تحدٍ آخر عليه أن يجتازه إن أراد الحياة، لم يبدِ عاصم أى رد فعل تجاه الخبر سوى سؤال وجهه للحارس بدافع الفضول

«ما هى جريمته؟»

نظر له الحارس من خلف اللثام متردداً أيجيب أم لا، بعد ثوان تخلّى عن جموده

«قاتل، مات بسببه مئات وربما آلاف، فى جولته السابقة ضد منافسه أخرج عينى غريمه من محجريهما، وهو مشهد لا أود مشاهدته ثانية على أية حال» ألقى جملته ثم انصرف، إجابته أعقبها سؤال لم يُتَح له الوقت ليُطرح ولكنه برق فى ذهن عاصم «ما هى جنسيته هذا الذى قتل المئات والآلاف؟»

فى واقع الأمر إجابة هذا السؤال لن تشكل فارقاً سواء كان أمريكياً أوروبياً أفريقيًا هو فقط قاتل يبغى قتله، ولكنه استنبط دعماً ولو قليلاً من الحارس حتى لا يسمح بتكرار هذا المشهد، ومن رحم سؤاله الأول توالدت أسئلة أخرى «لماذا لم يخبره تونى كما فعل فى المرة الأولى؟ أشعر بصيانية ما فعله فى المرة السابقة؟ أم تيقن من حسم النتيجة لصالح خصمه غداً؟ أم خاب أمله من اللقاء الأول فلم يبالغ فى التحدى بنفسه وترك الأمر للمواجهة نفسها غداً تفصل بين رغبته فى موتى وما ستؤول إليه المواجهة؟» فى هذه الليلة لم يغمض لعاصم جفن، جلس مستنداً على الجدار الجانبى للقفص فى محبسه شاردًا فى فتحة الجدار العلوية وكأنه يحصى

الدقائق والساعات التى تفصله عن لقاء الغد، ومع هبوب نسيمات الفجر، سرت قشعريرة فى جسده ولامست روحه نفسها لدرجة أشعرته بالوهن، خدر يسرى فى أوصاله مع انسحاب الليل، لاحت له بواكير الصباح قبل أن يسقط فى نومة طال انتظاره لها، لم يفق منها إلا مع وقع خطوات الحراس قادمين من الخارج، حينها نظر لأعلى فبدى له النهار ساطعاً «كم هى الساعة؟» سؤال طرح تلقائياً فى ذهنه ولكنه لم يبالي بالإجابة، دخل الرجلان قفصه واقتاده من جديد فى الرواق ثم الممر، الشمس تتسلل لأنحاء المكان عبر فتحات صغيرة فى الجدار لا ترقى لأن تكون شبابيك، لاحظ أنه لا أفنعة اليوم، راق له ذلك، ومع اقترابه من الساحة ترامى لمسامعه أصوات جماهيرية بالخارج، وحين وصل إلى الباب كانت الشمس تنظر لعينه مباشرة مما سبب له ألماً بسيطاً قبل أن يدارى أشعتها بكفيه، بينما الحارسان يدفعا عنه، رأى بوضوح الساحة والسور الحديدى والمدرج الحجرى الذى امتلأ بالحضور، مواجهة نهائية تحت ضوء شمس غابت عنه كثيراً، ولا يعلم أسيلقاها ثانية أم لا، أفضل له بكثير من مواجهته السابقة، دلف إلى الساحة وهو يدير بصره فى الأنحاء، فى مواجهة الباب الذى قدم منه تبدو مجموعة مقاعد فى المدرج أفضل من جاراتها تشبه المقصورات فى الإستاد ولكنها أصغر بالطبع، يشغلها مجموعة من الرجال ذوى ملابس أنيقة نوعاً جميعهم من البيض، لم يميز أحدهم ولكن يبدو عليهم الإثارة، من هم؟ هل هم من أهل الجزيرة؟ هل حضروا مواجهته الأولى؟ لا يدرى، يحد المقصورة يميناً ويساراً عدد من الجماهير عراة الصدر طوال الشعر، يصفرون ويصفقون فى حماس. توسط عاصم الساحة بين الحارسين بانتظار المقاتل الثانى الذى

لم يظهر بعد، وكانت تلك فرصة ليرفع ناظريه للسماء الزرقاء الصافية، لونها يخطف الأبصار من روعته، شعر وكأنه كلما أمعن فيها غاص في أعماقها، إنها ترفعه إليها، تضمه، تحتويه، يأنس بها، لا يستطيع مقاومة هذا اللوحة البديعة فيغمض عيناه شاعرًا بلذة جديدة عليه لم يستشعرها من قبل، قطعها دوى من الحضور تصفيقًا وتصفيرًا مع دخول المتنافس الآخر، ومعه حارسان يحملان السلاح يقتادانه لداخل الحلبة، حافٍ مثله، طويل الشعر والذقن أيضًا، أسمر البشرة قليلًا، متناسق الجسد لحد بعيد، وكان كلما اقترب من مركز الساحة، يمعن فيه عاصم النظر، وبينما يقوم الحراس بربطهما معًا عبر سلسلة معدنية تمنع هروب أحدهما أو كليهما من المواجهة، وقف عاصم متمسّرًا وقد فغر فاه من الدهشة رامقًا خصمه الذى بادله نفس النظرة وقد تعرف كل منهما على الآخر، نظرة استهزاء تعلو وجه خصمه وهو يثبت عينيه على قدمه المصابة وكأنه يذكره بما فعله فيه من قبل، بينما عاصم وقف مأخوذًا مدهوشًا إنه هو أمير الجماعة الذى دق قدمه بعنف حتى تكسرت عظمه، مراوغة هى الحياة ومخادعة دائمة وعصية الفهم أحيانًا ففى أحلك ظروفك تعطيك فرصة للانتقام حتى لتبدو وكأنك قد نلت حقك وحققت عدالة مزعومة، المفاجأة ألجمته بينما الحراس يعدونها للمواجهة «هذا هو من مات بسببه المئات وربما الآلاف، هذا هو من حطم عظامى وهو من أعطى الأمر بإعدامى، هذا هو من أخرج عين خصمه فى المواجهة السابقة» كان يردد عاصم ذلك بداخله وقد عزم على أنه لن يموت اليوم، طال انتظارهما للمواجهة وقطع شروده نباح ثلاثة كلاب ممتلئة الجسم والعضلات تبدو عليها الشراسة، اندفعت إلى الساحة بصحبة ثلاثة حراس وسط صخب جماهيرى،

اعتري المتنافسين ذهولاً، فيم ستستخدم هذه الكلاب؟ هل ستعدو ورائهم في الساحة؟ جاء الرد سريعاً من قبل الحراس وهم يجرون تلك الكلاب العنيدة من فصيلة البيتبول ليقيدوها عبر سلسلة معدنية طولها يبلغ خمسة أمتار تقريباً بواحد من القضبان الحديدية التى تحيط بالساحة بشكل دائرى، وزعوا الثلاثة كلاب بشكل متساوٍ تقريباً على النصف دائرة التى تحيط بالساحة، فصيلة البيتبول هى واحدة من أشرس فصائل الكلاب وأخطرها سريع الغضب ومتحفز دائماً للافتراس، ما إن قيد الحراس الكلاب حتى اندفع كل كلب منهم يجذب السلسلة على آخرها لعله يستطيع الوصول إلى واحد من كلا المتنافسين، نباح الكلاب اختلط بصيحات المتفرجين مكوّناً مزيجاً عجيباً من الجنون يذهب العقل دون خمور، سرت رعشة فى جسد كلا الرجلين عاصم وخصمه، لن تكون المواجهة سهلة كما ظننا، لن يكون هناك موت فقط بل ذل وألم أيضاً، الجماهير الحاضرة تزار، تشجع ويبدو أن هذا التشجيع ليس من نصيب أحدهما، إنه من نصيب الكلاب، انتهى الحراس من الإعداد للمواجهة ورحلوا خارج الأسوار الحديدية لتبدأ جولة جديدة، كلا الرجلين تحفز للاشتباك بينما هيمنت الشمس فوق الرؤوس، ضاقت كثيراً الساحة عليهما وصغرت المساحة التى سيتقاتلان فيها بعيداً عن عضات البيتبول، كل منهما يحاول جذب الآخر فى تحدٍ عبر السلسلة المعدنية، لف عاصم السلسلة حول معصمه وكذلك فعل خصمه مرة وراء أخرى حتى قصرت المسافة بينهما إلى ما يقارب متر ونصف ثم فجأة قفز عاصم تجاهه ليضرب صدره بكتفه، سقط الرجل على ظهره بينما عاصم ارتقى فوقه بعدما حرر السلسلة المعدنية مع الحركة السابقة، وجه له لكمات متتالية يميناً

في الجزء الأيسر من وجه ثم انتفض الرجل فجأة ليلقى بجسد عاصم وراء رأسه فسقط عاصم أرضاً وبينما يهم الرجل بالنهوض ومحاولة استعادة السيطرة جذبته عاصم فجأة ليضع يده على رقبته وقبل أن يحكم قبضته عليها جاءت ضربة من الرجل بقبضته في أنف عاصم قوية مؤلمة، جعلت السائل الأحمر ينسال منها بغزارة ثم أتبعها بضربة أخرى أسفل العين اليمنى لعاصم أفقدته اتزانته ليركله الرجل بيميناه في جانبه ليسقط على ركبته بينما وجه أحد الكلاب ينبح في وجهه لا يفصله عنه سوى نصف متر

فنهض عاصم مسرعاً متجهًا إلى الجهة الأخرى تبعه الرجل بضربة من ذراعه الذي تلقاه عاصم بيسراه وقبض على ذراعه واضعًا إياه تحت باطنه ليشل حركة هذا الذراع وبالذراع اليسرى حاول الرجل توجيه ضربة لعاصم فاستقبلها بيميناه وبذلك كلا يديه يشلان حركة خصمه فجذبته عاصم تجاهه بقوة ثم قابل وجهه بضربة من رأسه، كررها ثانية وثالثة لدرجة أوجعته هو نفسه، خارت قوى الرجل وفقد اتزانته فانحنى عاصم غائصًا في جسد الرجل ثم قام بحمله على كتفيه وراء رأسه ليطيح به تجاه أحد الكلاب ليشتد معها صيحات الحضور وقد اندفع الكلب إليه مكشراً عن أنيابه ليهزول الرجل حتى آخر الساحة مبتعداً عنه وقد تمسك بالقضبان الحديدية ليقترب منه كلباً آخرًا ويقف الرجل في المنتصف بينهما تمامًا، وكل كلب منها شد سلسلته عن آخرها وود لو طالت قليلاً حتى ينال نصيبه من لحم هذا الرجل، لاحظ عاصم ذلك فجذب الرجل من السلسلة تجاه واحد من الكلاب بينما تشبث خصمه بواحد من القضبان، عاصم يجذب من الذراع الأخرى حتى هجم الكلب على الذراع المشدودة ويقوم بعضها

فيعود الرجل مندفعًا للوراء باتجاه السور ليباغته كلب من الناحية الأخرى ليجرى الرجل بقفزة متفاديًا الكلب ليقابل الأرض فيطير عاصم عليه جاثيًا على ركبته جالسًا وراء رأسه ويلف السلسلة حول رقبته، محاولة ناجحة، حاول إحكامها عليه ولكن الرجل مديده وراء رأسه جاذبًا عاصم من فروة شعرة، ضربه من قبضته بوجه عاصم، كاد الرجل يختنق وهو متشبث بأذن عاصم، ولكنه سرعان ما جذبته لينقلب عاصم من خلفه إلى أمامه وينفك القيد عن عنق غريمه وبينما ينهض يتلقى ركلة في بطنه ثم في رأسه أطاحت به ناحية واحد من الكلاب كاد ينهشه لولا تفاداه ببراعة مستديرًا للخلف ليقفز عاصم كواحد من المصارعين المخضرمين ويغرس كلتا قدميه في صدر الرجل الذي يعود فجأة للوراء ليلتصق بالقضبان شاعرًا بألم لا مثيل له، ينزاح قليلًا مبتعدًا عن الكلب وبعدها يجد عاصم في مواجهته وكلب عن اليمين وآخر عن اليسار يصرخان في جنون، بدا عاصم يتحرك وسط الكلاب بسهولة ويسر وثقة دون أن يمسه فقد تذكر تدريبات القتال وسط النيران، فلتكن هذه الكلاب هي النيران، سيقاقل دون أن تقلل من براعته ودون أن تذوق لحمه، فقط كل ما كان يحتاجه أن يتكيف مع تلك المسافات بين الكلب والآخر، توالى ضرباته وركلاته في شتى أنحاء الجسد الآخر ثم أمسكه من رأسه ليصدمه بالقضبان، ضاعت ملامح الرجل وسط الدماء في وجهه وسقط مغشيًا عليه، ليقرب منه أحد الكلاب بارزًا أسنانه ليزجره الرجل بقدمه من بقايا وعى أو شك على الغياب، وقف الرجل بينما عاصم يتقافز وسط الساحة يشير له بيده «أن تقدم إليّ» قام الرجل واقترب منه

حاول أن ينقض عليه ولكنه يفلت منه مع منحه قفزة مصحوبة
بركلة، بدا مسيطراً ومستمتعاً وهو يشير له بالاقتراب من جديد
وقد راح عن عاصم كل وجع ومعاناة منذ جاء إلى هذه الجزيرة،
بدا كما لو كان مولوداً في ساحة قتال، الجموع الحاضرة كانت تتابع
باهتمام وتفاعل كبيرين رغم ما بدا لهم جلياً من تفوق واضح
من طرف مهيمن على حساب آخر صار يترنح كقرد سكران،
قام بمسكه من ملبسه وكال له الضربات، حتى سقط مغشياً عليه
في محيط أحد الكلاب الذى اقترب منه ويبدو بأنه أشفق عليه،
فأخذ يتشمم جسده، وعند هذا الحد سيطر على الحاضرين حالة
من التذمر بعد رجوح كفة أحد المتنافسين، لذا وفي حركة مفاجئة
قام أحد الحراس بناء على إشارة من قائده بإلقاء خنجر في وسط
الساحة، وهى إشارة واضحة لعاصم بأن ينهى الصراع لصالحه،
لكن وقبل أن يلتقط الخنجر ذهب إلى الجسد المكوم على الأرض
وجره في إصرار لمركز الحلبة بعدها التقط الخنجر وعندها أمسك
بيد الرجل الراقد من أطرافها وجعلها ممدودة بشكل رأسى
قبل أن يقوم بجزر أربعة أصابع بالنصل الحاد مرة واحدة بشكل
خاطف كما يفعل بائع الموز لتنفجر شلالات من الدماء على وجه
الرجل وجسده وراح يصرخ في هستيرية من الصدمة والألم، بينما
عاصم يتألم من ذكرى لم تسطع سوى بباله، لو علمها الحضور
ربما شجعوه وصدقوا له تعاطفاً معه، ولكنهم الآن بدوا متعاطفين
مع هذا المقطوع أصابعه، شربت الرمال دماءه حتى ارتوت
وتلونت بالأحمر القانى، ولكن عاصم تذكر أيضاً صوت الرجل
وهو يقول مرة من قبل «أعدموه، ليكون عبرة لغيره من أسرانا

وموالينا» تذكر المقدم يحيى وجثته التى لم يجدوها أبداً ولكن دمائه
أغرقت ملابسه لتتعطش روحه للدماء من جديد وهنا فعل ما لم
يفعله من قبل حين أنقض على الرجل ولف ذراعه حول رقبته
وفى يده الثانية الخنجر، وبسرعة أزاح ذراعه ومر بحد الخنجر سريعاً
على رقبة الرجل الذى جحظت عيناه ألماً بينما يراقب عاصم ذبيحه
وهو يسلم روحه ببطء وسط شعورين متناقضين من الجماهير، ما
بين مشجع لعاصم ومستنكر له بينما الكلاب توقفت جميعها عن
النباح لأول مرة منذ دقائق وهى تراقب الدماء وقد بدا لها الأمر
يفوق قدرتها على إلحاق الأذى.



«أنت تعتقد أن ما عشته قبل قليل هو الجحيم، ولكنك مخطئ، هذه
ليست إلا وجبة مشهيات.»

غيوم ميسو

(23)

يحيى - فرنسا

ستعود ومعك سالم.. كان هذا عنوانًا مكتوبًا بالخط العريض في صحيفة عمرك لكنك لم تطلع عليه سوى اليوم، حدثًا طال انتظاره، دفعت لأجله الكثير سنواتك عمرك زوجتك وعملك وبلدك.. وها هم يوفون بوعدهم، قابلته في أحد أطراف مارسيليا ومعه رجلين، ما إن توقفنا سياراتيكما حتى قام الرجل بحمله داخل كيس جلدى طويل له فتحات تهوية كى لا يموت هذا المقيد داخله، حذرك كثيرًا قبل أن يغادرك» لا أنصحك بالعودة به لهذا المنزل، فهو غير مناسب لذلك ولا ينقصك مزيد من الجلبة وإثارة الشكوك، أعلم مقدار غضبك وأقدره، يمكنك التهامه حيًا لو أردت، أو تقطيعه كقطع الناجتس، يمكنك أن تفرمه كذلك حتى يصير وزن أكبر قطعة منه لا يتجاوز جرامًا واحدًا، لكن لا تجعل انتقامك مصحوبًا بنهايتك، لا تخسر نفسك بسبب هذا الخثالة، تمتع بانتقامك وابدأ حياتك من جديد، لا مزيد من الخسائر»

هكذا حدثك، لمست صدقًا وودًا في كلامه بعيدًا عن الرسميات ومتطلبات العمل، هل بدالك آنذاك كصديق يريد لك الخير

أكثر منها نصيحة عمل؟ أم أن عدم وجود صديق بجوارك هياً لك ذلك؟ لن تؤثر كثيراً، الأهم أنك عدت بفريستك، صيدك الثمين، كلا لن تذبحه، لن تنهى عمره، لن تمنحه راحة الموت، لن ترسله لنفس العالم الذى أرسل إليه ابنك، كما أنك لن ترجمه.

فى أيامك التى تلت وفاة أسر، لم يكن يشغل بالك سوى ماذا ستفعل بسالم حين تعثر عليه؟

لقد جالت برأسك طرق تعذيب لم تخطر للنازيين أنفسهم ببال، سيحترق بالنار المتأججة فى صدرك، ستذيقه إياها حتى يشمل من الألم، سيتغذى على صديد جروحك التى لم تندمل، لقد مزق فؤادك أنت وكثيرين، وسيتمزق كل ما فيه مرة وراء مرة دون أن يشارف على الموت، ستستخلص الباقي من عمره لنفسك، لراحة يذوقها مادمت حياً، لا نوم يهناً به على ظهر هذا الكوكب، لم تخبر أحداً بشأن ما يدور بعقلك، لقد أخذت وقتاً حتى تكون جاهزاً لهذا اللقاء، لم تعرف المنظمة بشأن بيتك الجديد، لقد نقلت كل ما يخصك لمسكن آخر على أطراف الغابة فى مارسيليا حيث الهدوء يهيمن، لا استغاثة تُسمع ولا استنجد يفيد، لا بد أنك ستتلذذ كثيراً وتمرح كثيراً، لقد أعددت عُدتك، وصبرت حتى نضجت دجاجتك وحن وقت التهامها، ولكنك قبل أن تسن سكينك، ستمنحه حقه، هذا هو العدل، ستفى بعهدك الذى أخذته على نفسك بأنك لن تنال منه انتقاماً إلا بعدما يحصل على حقه فى الثأر، ستهديه حسام الميرغنى على طبق من ذهب، حسام الذى كان السبب لوضع كلمة تمت لحياة والده وكان سبباً فى تحويله لمجرم مطارد ثم مجرم عتيد. حسام الذى لولا جريمته الأولى لكان أسر حى يرزق يحظى بحنانك ورعايتك ويحيا سعيداً فى حضن أمه،

حسام الذى انتظرت كثيراً وقاومت لذة تعذيبه لأنك تعلم بأن هناك من سيتفنن فى تعذيبه أكثر، حسام الذى تركته مقيداً مكمماً فى غرفة لشهور لا يعرف فيها أى جرائمه تلك التى أدت به إلى هذا الحال، أن الأوان ليفهم، ولكنه سيدفع ثمن هذا الفهم حين يرى سالم الذى لو ظل ألف عام يخطط ويحاول ما حصل عليه بهذه السهولة، خدمة فايف ستار لا تلقاها حتى فى أحلامك، ليتك عثرت عليه بنصف بساطة عشوره على حسام.

قادت سيارتك المستأجرة الرمادية من طراز سيتروين سى فايف باتجاه المنزل الجديد على أطراف الغابة وشعور بالنشوة يعتريك، تقود بحذر لا مفاجأت غير سارة اليوم، تصل إلى هذا الحى الهادئ، كل بناياته على الجانبين مكونة من طابقين، لا يوجد جيران لك سوى على بعد خمس بنايات، قليلون جداً السكان الدائمين هنا وأغلبهم من كبار السن، ستقيم حفلاتك وسط أصوات التلفاز والموسيقى الصاخبة ليس بشكل مزعج أو مبالغ فيه ولكن بما لا يسمح بتسرب صراخ أو نداء. تركن السيارة أمام البوابة الصغيرة للمنزل، نترجل لتفتحها، ثم تقود من جديد لتعبر البوابة وتركن بالداخل، تغلق البوابة ورائك تتجه إلى المدخل ماراً بحديقة صغيرة تمتلئ بأحواض زهور مختلفة الألوان تصعد ثلاث درجات ثم تضع المفتاح فى الباب الخشبي بنى اللون، لينفرج الباب تضغط على زر الإضاءة ليغمر ضوء خفيف الريسيشن الواسع وتلقى نظرة على الدرج الذى يقود للقبو، حسناً سيتم الأمر كما تصورته، تعود لحقيبة السيارة، تحمل الكيس الجلدى على كتفك، تضعه على الأرض قبل أن تغلق الباب ثم تعاود همله متجهاً إلى القبو، تهبط الدرج الخشبي الضيق وحين تفتح

بابه والإضاءة الخاصة به تقابل العين التى باتت مذعورة دائماً لصاحبها المكبل جيداً، لا بد أنه يراك مجنوناً أبكماً لا يتفوه بكلمة، إنه حتى لا يعرف بمغادرته مصر ووصوله فرنسا ولا يتصور أن يكون واحداً من أقل من ثلاثين فرداً يسكنون شارعاً هادئاً لا تمر به سيارة إلا كل ساعتين على الأقل.

تضع الكيس وتفرغ محتواه فى القبو الذى تبلغ مساحته أربعين متراً تقريباً ليسقط جسد لا يزال غائباً عن الوعى، ملابسه قذرة ورائحته توحى بعدم تعرضه للماء منذ شهور، فى البداية لا يتبينه حسام، سيأخذ وقتاً حتى يتذكر، تحاول إفاقة سالم دون جدوى، تأتى بإناء من الماء وتسكبه عليه، تخرج منه شهقة طويلة ويبدأ فى الإفاقة، ينظر إليك وإلى المكبل أمامه «لا يتبين أيّاً منكما ويبدو أنكم سقطتم من ذاكرته تماماً، يبدو عليه الخوف ولكنه يتماسك متظاهراً بالشجاعة ليقول لك بالإنجليزية «اقتلنى.. اقتلنى الآن ولا تتلاعب بى»

تضحك حقيقة دون افتعال «تتحدث الإنجليزية أيضاً؟ والدك كان ليسعد أكيد بهذا قبل أن يشنقوه» ليرد سالم فى اضطراب «من أنت؟ وماذا تريد؟»

«ستعرف لا تقلق، وستتذكر لأنى لم أنس فعلتك أبداً، لقد عشت سنوات طوال بانتظار هذه اللحظة، من العسير أن تنسى أيضاً أولى جرائمك، جريمة خطف أتوبيس مدرسة بطلابه، أتذكر السبب أم أذكرك؟» يصمت ويطول صمته لتمنحه قبضة يدك فى فكه العلوى ويشعر بمذاق السائل الأحمر «هنا حين أسألك تجيب، أتفهم؟» يواصل الصمت ذاهلاً ليتلقى ضربة أخرى أقوى من الأولى صبغت شفاه بالدم «واضح أنك صرت بطيء الفهم»

ليعاجلك هلغًا «نعم، فهمت فهمت»

«تذكرت إذن؟»

«نعم تذكرت»

«أتذكر أول ضحية راحت بسببك؟» وقبل أن تهم بضربه «نعم أذكره» في فزع يقولها.

«رائع.. أنا والده» تبدو عليه حسرة زائفة بينما أنت تراقبه.

«أتذكر من كان السبب في ذلك؟ الذى دفعك للخطف وجعل منك مجرمًا ولفق تهمة لوالدك وكان السبب في شنته؟»

«حسام الميرغنى؟» قالها وعينه على حسام الذى كان يراقب الحديث حتى عشر على حل ألغاز وإجابات أسئلة لم تجبو جذوتها منذ اختطافه

«غريب أنك لم تنتقم منه هو ودفع ابنى ثمن ذنب كان أصغر من أن يعيه حتى، ولكنى مع ذلك لم أتركه، كلاكما سيدفع الثمن» ثم تبدأ يا يحيى فى فك قيده وتقول له «والآن هو لك، يمكنك أن تلهو وتقسو معه كما تشاء، أترى لقد احتفظت به لك كل هذا الوقت، لم يكن لى شك بأن لحظتك قادمة» تنهى جملتك بينما نظرات الهلع تنبعث من عين حسام ووجهه يوشك على الصراخ والبكاء، بينما سالم ينظر إليه وقد أدرك حقيقة الوضع بعد أن صار حرًا من القيد، تخرج من القبو وتصعد الدرج بينما توسلات حسام تتهادى إلى أذنك، تتعد ويعلو صراخه وعويله، الآن تدير أسطوانة لمطرب فرنسى لا تبالى باسمه وإن كان غناؤه يحدث الضجيج المطلوب وتذهب لتسترخى على أريكة ناعمة الملمس. وبينما تغوص فى الأريكة مطلقًا العنان لخيالك متصورًا ما

يدور بداخل القبو، مستمتعاً بالموسيقى التى تسرى فى أرجاء البيت لتغمره كما يغمر الماء إناء خاوى، هل يمزق سالم حسام؟ هل يأكله بأسنانه أم يكتفى بخنقه؟ كيف نال انتقامه؟ هل نال حسام أخيراً جزاءه؟ لقد احتفظت به طويلاً لأجل تلك اللحظة، لولا أفعاله القذرة ما قام سالم بفعلته و لكنى تتناول عشاءك الآن مع زوجتك وابنك، نمت فى مكانك، تابعت أحلاماً فى ذهنك، رأيت سالم يلوك لحم حسام بين أسنانه والدماء تحيط بفمه، رأيت نفسك وأنت تنفرد بسالم وتتلذذ بتعذيبه، كان فى عذابه راحتك، ثم ينتقل المشهد لآسر وهو يلعب بدراجته فى حديقة متناسقة الأشجار والزروع والشمس تغمر المكان بالدفء بينما أنت وداليا تتبادلان الدعابات وتشيران إليه ويشير إليكما والسعادة ترفرف بجناحين وتلهو حولكم، لم تشعر بوقت ولم تحظ بنوم هادئ طوال سنوات كتلك الليلة، لقد دفعت الثمن غالياً ونثرت البذور زمناً طويلاً و حان وقت جنى الثمار، بالتأكيد لن تعود لك جنتك، لكن ستجد سلوكك، ستسقط عبئاً ثقيلاً عن كاهلك، صحيح أن الثأر لن يعيد إليك ابنك لكنه سيطفئ نيران صدرك.

رحت فى النوم لمدة لا تتبينها ولكنك تستيقظ على صوت الهاتف، كان كلاوديو أو مروان أو أيا كان اسمه، إنه يطلبك فى مهمة عاجلة لا تحمل التأجيل على غير العادة، تبدل ملابسك فى عجلة، قميصاً رمادياً ذات أكمام طويلة، وبنطالاً من الجينز الأسود مع حذاء رياضى خفيف، لا وقت لمتابعة ما يدور فى القبو، حين تعود ستهنأ بالمشهد المنتظر، تقابله فى حانة صغيرة بشارع جانبى بوسط مارسيليا، يطلعك على تفاصيل المهمة ويمنحك مبلغاً من المال، تنغيب عن القبو ليومين لتنجز مهمتك، تعود فى الصباح، الموسيقى

تصدح في أرجاء المنزل ولا صوت يعلو فوقها، دقائق وتتجه إلى القبو متحسسا سلاحك الجلوك الألماني، تجحظ عيناك وأنت ترى المشهد الغير متوقع والذي لم يخطر لك ببال والذي يحتاج إلى تفسير.

كان حسام مقيداً كما كان دائماً، وسالم يجلس بجواره في هدوء، حتى لبدو ان كصديقين التقياً بعد غياب، هالك المنظر، كيف يجلسان هكذا؟ لماذا لم يجهز عليه سالم؟ إنه بطريقة ما قاتل والده أو المتسبب الأول في إعدامه، كيف يتركه دون أن يدق عنقه، دون أن يمسك عنه الهواء، دون أن يخنقه، دون أن يقتلع قلبه من صدره، هل نسى والده؟ أم صار حسام مجرد مجرم لا يفرق عن سالم كثيراً؟ هل تعاطف معه لأنه شعر بدنو أجله وسوء مصيره على يدك بعد قتله لحسام؟ هل عفا عنه ليفتح لك المجال لتصفح عنه وتغفر له خطأ قديماً لا يدرك أنه لن يغتفر؟

ما الذى يدور؟ تريد أن تفهم وبسرعة، عقلك يعمل ويفكر وكلاهما ينظر إليك في خوف، لا يتوقع ردة فعلك التى جاءت هادئة عاصفة لتنزل على كليهما ركلاً وضرباً في شتى أنحاء جسديهما، ولا صوت سوى صوت توجعهما معاً وصوت ضرباتك الطائشة تطيح بهم ثم تمسك بسالم توسعه ضرباً قبل أن تلقى به قرب الحائط ليرتطم بها ظهره وجزء من كتفه بينما أنت تصرخ وتضرب في آن واحد وقد أحمر وجهك بالكامل من أثر الانفعال:

- أظن ان أنكما ستخدعانى بهذا الاستسلام؟ سينال كل منكما عقابه، سيتمنى الموت كل يوم ولن يراه بعينيه، القادم في أيامكما لن يتجاوز حدود هذه الجدران الأربعة، في كل ليلة عذاب جديد، ستعانيان كما جعلتاني أعانى، لقد دمرتما حياتى تماماً والآن جاء

دوركما.

ثم تمسك بسالم من رقبته وتعتصرها طويلاً وتبرق عيناه وكأن روحه موشكة على وداع جسده ولكنك تدعها في الوقت المناسب لتدفعه على جسد حسام المكوم على الأرض يرتجف من الخوف، ثم تهم بمسك سالم بتلاييه من جديد، وقد جعله حماسك كطائر مذبح في يدك لا يكف عن الارتعاش تلقى به على الجانب الآخر ليرتطم بأحد الرفوف لتسقط عليها عدد من الأواني العتيقة بينما يصرخ حسام باكيًا

- وما شأني أنا في كل هذا؟ هذا رجل اختطف ولدك المريض وتركه حتى الموت، بينما أنا لا أفهم ما جريمتي ليطم سجنى في غرفة طوال هذه المدة، لقد دمرت حياتى دون حتى أن أعرف من أنت، كل ما تظنه برأسك ليس إلا أوهامًا أوحى إليك بها هذا الرجل، لم ألقق تهمة لوالده كما حسبتهم، والده من قتل وسالم يعلم ذلك جيدًا، أنت خطفتنى وحسبته بناء على خدعة انطلت عليك، أنت مدان لى، وعليك أن تصوب خطأك فورًا.

لماذا تسمرت في مكانك بعد كلماته يا يحيى؟ هل صدقته؟ لماذا أصدرت عليه حكمًا دون دليل؟ لو صح كلامه، لماذا اندفعت ومشيت وراء اتهام باطل من خاطف وقاتل؟ ألهذا الحد صرت ساذجًا؟ أى وزر تحتمله الآن بعد أيام أذقته فيها العذاب؟ إنك حتى لم تمنحه الفرصة ليفهم، لعله لو فهم لأوضح، أنت قاضٍ فاشل كما كنت أب وزوج فاشل، كيف تتحمل نفسك هكذا مع هذا الكم من التخبط؟ يبدو أنك تستحق كل ما أنت فيه.

- هل ما يقوله حسام صحيح؟ هل والدك هو من قتل تلك المرأة؟ هل خدعتنى كما قتلت ابنى؟

ثم تنقض عليه كالفهد وأنت تضربه بقبضة يدك في كل جزء من وجهه بينما هو في استسلام تام، لا يقاوم ولا يجيب، الدماء تتفجر من وجهه وتلون يدك، لكنك لا تأبه، فقط كل ما يعينك ألا يموت، هذا هو شاغلك الأول، لن يفر بهذه البساطة، وبعدها فرغت فيه جام غضبك، تركته يسقط أرضًا، هامدًا، يتنفس بصعوبة، ستركه حتى يفيق لتعاود الكرة من جديد، وقبل أن تغادر القبو تقيد يديه خلف ظهره وتضع قطعة من الورق اللاصق على فمه، حتى لا يتمكن من الصراخ أو إلحاق الأذى بحسام، تغادر القبو وصدرك يعلو ويهبط ودقات قلبك تنافس تلك الموسيقى علوًا، تحرس هذه الأنغام المتعالية وتلقى بنفسك على نفس الأريكة لتحديق في السقف وأنت مذهول من تلك المفاجأة، لا عقاب يكفى جرمه بعد أن قتل أسر ودفعت لارتكاب جريمة خطف حسام، يالهذا الكم من التعب الذى يتكدس برأسك، كنت تظن بأنك سترتاح بعد العثور على سالم ولكن موجة جديدة من الندم كانت بانتظارك تلفح رأسك وترتكك في دوامة من الألم، لماذا لا تموت وترتاح؟ لم يعد يعينك هذا العالم بأسره، لا رغبة لك في مزيد من العيش، أسر بانتظارك على الضفة الأخرى من نهر عذب، مياهه صافية يتسم ابتسامة افتقدتها عيناك والدك أيضًا يقف بجواره مادًا يده فأنحًا ذراعيه لقد أوحشته كما أوحشك، يشيران إلى قارب أبيض صغير بمجدافين خشبيين مبسوط طرفيهما إلى الماء، لماذا لا تغادر الآن؟ المسدس بجوارك ومحشو بالطلقات، ضغطة واحدة وتنهى هذا الصراع، الخيار يستحيل أن ينتصر للبقاء مع سالم وحسام، إنهما هناك والدك وأسروا يلوحان بسعادة لك، فقط تأخذ القارب وتعبر، تمسك بالمسدس وتبتسم بينما تراهما يدنوان وتقترب.



«أنا وهذا العالم لم يعد كلانا بوسعه أن يدع الآخر وشأنه، لا أكف
عن محاولة إصلاحه ولا يكف عن تخييب أمني..»

(24)

روبيرتو روسى^٣

(2015-2010)

غريب هذا العالم، كل أمر يمكن تجاوزه مهما بدا مريعاً وقت حدوثه، لم تتوقف الحياة على أحد وليتها فعلت بدلاً أن نقاسى بدونه، نعانى فقدته، ونبكى غيابه، صرت وحيداً تماماً رغم كل هؤلاء المحيطين بى ولا شاغل لهم سوى تحقيق رغبات لم يعد لها وجود، زهدت الحياة بما فيها، ويئست من كل أمل فى التغيير، المنظمة تصطاد المجرمين وساحة القتال تفتك بهم تباعاً ولم تتوقف الجريمة بعد، منذ آخر مرة فى عام 2010 لم أزر الجزيرة، لماذا لا أتجه إليها لعل أحظى ببعض مشاعر الرضا عن النفس؟ أنا فى أمس الحاجة لتلك اللحظات، قابلت أندرو من جديد فى عام 2013 كبر قليلاً وصار رجلاً ذى بأس ولكنه مازال محتفظاً بنقائه وبرأته، لم يقتصد جهداً فى توفير سبل راحتى، اطمأنت منه على والده وسألته عن أخبار الساحة.

أخبرنى بأن هناك عشرة سجناء فى الثكنات وأنهم بانتظار عدد آخر قادم هذا الأسبوع، وستقام المواجهات عقب وصولهم، وطلب

منى البقاء حتى مشاهدة هذه العروض، ذكر لي بأن المشاهدات أسطوريًا مع ازدياد أعداد الجماهير.

- يبدو أن جميع أهل الجزيرة حريصون على حضور المباريات؟

- ليسوا وحدهم سيدي، القوارب في كل مرة تأتي محملة بأناس كثيرين لمشاهدة المتصارعين، أنت لم تسمع صيحات الحماس وهى تتصاعد من الحناجر، الصراخ يصير مدويًا كالبرق

- أى قوارب وأى أناس؟

- هؤلاء السياح الذين يأتون لمشاهدة المباريات، فكرة ممتازة نفذها مستر تونى، أعطت حيوية للمبنى وللفاعليات وجعلت الجميع يلهث مع الأحداث، فى البداية كان أهل الجزيرة يشاهدون وهم صامتون، أما الآن فالكل يردد هتافات ويصب غضبه على هؤلاء المجرمين، لن تصدق روعته حتى ترى بنفسك سيدي.

لم أفهم ما يدور بشكل كامل وقتها يبدو أننى كبرت فعلاً وصرت بطيء الفهم، لقد تركت لتونى دفة السفينة وهو من يقود خاصة تلك الأمور المتعلقة بالجزيرة، يبدو أن هناك مستجدات لا علم لى بها.

بعد يومين وصل تونى إلى الجزيرة، كان أنيقًا واثقًا كما عهدته دومًا، يتحرك فى الجزيرة كصاحب مكان، الجميع يحترمه ويسعد به من أهل الجزيرة، والحراس يأتمرون بأمره، غريب هذا.. المكان ملكى ولكنى أشعر أننى كضيف عديم الأهمية بداخله، لقد تجاوزت السبعين عامًا بالفعل، لكنى مازلت فى وعيى وفى أتم صحة وكل شىء هنا ملكى، أنا من وصلت لهذه الأرض وصنعت هذه الأسطورة على سطح الجزيرة، لو أن هناك طاووسًا

سيمشى مزهواً بنفسه فلا بد أن يكون أنا، بالطبع لست أغار من تونى، هو ابن أختى ولكن فليتظاهروا ببعض الاحترام، لولا أندرو لشعرت بأنى عابر سبيل غير مرغوب وجوده، تحاملت على كرامتى ودفنت اعتراضى فى صدرى، ولم أفاتحه فى الأمر بالرغم من أنه ينام وأخيه فى الغرفة المجاورة لى وانتظرت حتى يوم المواجهات، من نافذة منزلى القريبة رأيت عشرات تتوافد على بوابات المدرج، رجالاً ونساء من مختلف الأعمار من الثلاثين وحتى الخمسين، ليسوا من أهل الجزيرة بالطبع، من هم؟ وكيف علم هؤلاء بما يدور، كيف سُمح لهم بالحضور من الأساس؟

بصحبة حارسى الخاص اتجهت إلى المقصورة الأمامية للمدرج، استقبلنى تونى وماركو بود مصطنع، وساعدانى فى الجلوس فى صدر المقصورة على المقعد المخصص لى، وجلسا بجانبى، ثم انصرف تونى للحديث مع عدد من الرجال الأغرأب، هل هم أصدقائه بالطبع ليس كل هذا العدد، كيف لم يخبرنى بذلك من قبل، كيف واتته الشجاعة ليتصرف كما لو لم أكن موجوداً، جلست ببصرى فى المكان، نظرت إلى ماركو، كان يتفادى النظر لى، يدير عينيه فى أى اتجاه غير الذى أنتظره فيه، تابعت ما يدور والجولات تتوالى بين مجرم وأخر، وصوت فى المذياع يعلن اسم المجرم وجريمته قبل أن يدلف المتصارعين، ومع كل ضربة تتنفض الجماهير صياحاً، يبدون كمجموعة من المصطافين، أو أعضاء رحلة، أما على جانبى المدرج وفى أماكن محددة يجلس أهل الجزيرة فى حماس أقل وإن ظل ظاهراً للعيان، لقد اعتادوا المشهد إلى حد ما بعكس هؤلاء الذين يبدون فى زيارة أولى للمكان.

مرت جولة وأخرى والجميع يهتف بالموت لجميع المشاركين، بعض من الحضور يبدى حماس أكبر عند قتل مجرم ما، يبدو أن

جريمته أكثر من بشاعة من غيره في نظرهم، أنظر إليهم شذراً، هؤلاء ضيوف جاءوا دون دعوة منى أنا صاحب المكان واقتحموا منزلى وافترضوه، بل ويتمتعون بكل ما أعددته من عدة، لا شك أنه انتابتني رغبة ما في حضور الجميع لطقوس تحقيق العدل على هذه الجزيرة، ولكن بناءً على رغبتى وحدى في ذلك.

خمسة جولات من القتال تمت داخل الحلبة مع سقوط خمسة من المجرمين صرعى غارقين في دمائهم وقد استجابوا للافقة المرفوعة على السارى وقد تحولت مساحات من الرمال لبقع حمراء، حتماً سيتم إزالتها وتغييرها في اللقاءات القادمة، هناك خمسة منتصرين، نجوا من الموت اليوم، لكنهم لم ينجوا من الجراح والإصابات، لم ينجوا من القسوة التى شهدها في عيون منافسيهم، لم ينجوا من الرعب الذى يخالجهم مع الشعور بأن لحظاتهم الأخيرة تقبع بانتظارهم، لم ينجوا من لحظات مقبلة من الاستمرار في العيش لأيام أخرى في ظروف تتماشى مع حقايرتهم في زنازينهم الضيقة، فات أو ان الندم وحن وقت دفع الثمن.

هذا هو الجزء الأفضل من اليوم، ولكن في المساء كنت بانتظار نقاش حامى الوطيس ليس عليّ بل على الأخوين، الذين تصرفا وكأنهما بلا كبير، وكان المبنى بلا صاحب. أعطيت تعليماتى لهما بعدم مغادرة الجزيرة اليوم.

- من حكم في ماله فما ظلم، وحين يكون المال مالى والأرض أرضى فلا يصح أن تتصرفا في أرضى دون استئذانى، أليس كذلك يا أبناء أختى؟

- نحن فقط لا نريد أن نزعجك بشأن أمور العمل يا عماء ..
قالها ماركو

- لقد قلت بأن المدرج ليس له علاقة بأنشطتنا السياحية،
أليس كذلك؟

جاء سؤال استنكارياً انفعالياً مدوياً.

- كنت أظن أنه يجدر بك شكرنا على ما نبذله من جهود
وتصارييف للحفاظ على المؤسسة، وليس تأنيينا ومعاملتنا كأطفال
لوثوا ملابسهم بالصلصة

قالها تونى بجفاء واضح وبلهجة باردة زادتني انفعالاً

- نحن نعمل معاً، ولا يجب خلط الأوراق، التجارة لا علاقة
لها بالسياحة ولا لأحدهما علاقة بالأيدى البيضاء، وجميعهم يجب
أن ينأوا بعيداً عن الجزيرة، هل هذا مفهوم؟ لم يحن بعد وقت
الإعلان عن الكولوسيوم الجديد.

- تأكد عمى بأن الموضوع مازال سراً وجميع من حضروا اليوم
ملتزمون بذلك

- كيف ذلك؟

- أرجوك عمى لا تشغل بالك بتلك التفاصيل المرهقة وتأكد
بأننا لا ننشغل سوى بالحفاظ على كل ممتلكاتك ومؤسستك
- أريد أن أفهم كيف تضمن حفاظ كل هؤلاء على سر المدرج؟

أعقب سؤالاً صمت بصحبة نظرات متبادلة بين ماركو وتونى،
لم أفهم منها شيئاً سوى أن هناك مزيد من الأمور لم يخبرانى بها.
- ما الذى يحدث يجب أن أفهم؟ قلتها وقد انتابنى الحنق أكثر
على كليهما.

اتخذ ماركو قراره بالصمت، لا يقوى على الإجابة كما هو
واضح، بينما تونى يتطلع ريقه والكلمات تغادر فمه بصعوبة.

- والدى كان محققاً، من العسير إبقاء الأمر سرّاً كل هذا الوقت

- هل علموا بأمر ساحة القتال؟

ليس ذلك ما أقصد.

ثم صمت من جديد، فاستحثيته على المتابعة

- تحدث تونى، تكلم .

- بعض الأجهزة الأمنية نما لدي عدد من أفرادها علم بشأن

الأنشطة الخفية للأيدى البيضاء كاد هذا يكلفنا خسارة رهيبية،

وفضيحة كبرى، تمت مراقبة أنشطتنا ووضعت تحت المجهر، كان

يجب أن ننقذ ما يمكن إنقاذه فتم شراء سكوتهم، صاروا يروننا

ويتظاهرون بالعكس، بل زاد اعتمادنا عليهم فى تسهيل أمورنا،

وكانوا مخلصين لنا، حافظين لعهودهم، صاروا يلعبون فى صفوفنا،

ولم يكن جائزاً إخفاء أمر كالجزيرة عليهم خاصة مع الاختفاء

المتوالى لعدد من المجرمين الذين كانوا قاب قوسين من العثور

عليهم، نجاحنا فاق التصور عمى، كان من الصعب تفسير الأمر

على غير حقيقته، هؤلاء بحاجة لفهم ما يدور كى يرتبوا أوراقهم

وفقاً لمصلحتنا معاً، لكن أن يتم الأمر دون علمهم فذلك سيفتح

علينا فيضاً من التحقيقات الغير معلنة حتى يصلوا إلينا ويوماً ما

سنكون جميعاً بما فى ذلك أعمالنا الأخرى فى خطر.

سقطت كلماته كالحجارة فوق رأسى، ألقى بى من فوق حصان

يعدو، ربطنى بمؤخرة قطار وتركنى أسحل وراءه، الكيان الذى

ظللت لسنوات أبنيه، السر الذى احتفظت به لمواجهة الشر المطلق

بات مهدداً، هؤلاء لن يهدأوا حتى يفسدوا ما صنعت، حتى

يدمروا ما شيدت، حتى ينسفوا ما وضعت، أعلم هذا وأراه بعينى،

البشر لم تعبت أيديهم بشيء إلا وأجهزوا عليه، لن يتركوا قوانيني ولن يدعوا أفكارى تستمر، لن يكتفوا بمجرد الملاحظة والمشاهدة، سيطلبون التدخل، سيتعللون، سيتحججون حتى يصلوا إلى مساومة مطلوبة، هل أنا أبالغ؟ كلا هذا ما خبرته دوماً من البشر، يتظاهرون بالبحث عن الحقيقة حتى إذا ما وصلوا إليها، طمسوها إن لم يزيفوها، أساتذة فى تزييف البديهي، مهرة فى تحريف المنطق، بارعون فى الخداع.

هذا المغفل تونى، يظن بأن مجرد الدفع لهم سيخرسهم للأبد، زيارتهم للجزيرة ليست بغرض الترفيه فقط بل ولن تكون نهاية المطاف.

- ولماذا جعلت الحراس ملثمين هكذا؟

هنا ضحكا هو وماركو ثم لاحظا مدى حنقى فقال ماركو:

- إن نصف الحراس تقريباً صار من النساء، ولا يجب أن يراهم المجرمين وإلا تجرأوا عليهم، تخفيهم وراء اللثام يعطيهم رهبة أكثر، لقد كان من العسير أن نترك الحراس من الرجال بلا نساء طوال مدة مكوثهم الطويلة هنا، سيُجنوا بلا شك ولا نريد مشاكل مع أهل الجزيرة، لقد اشتكى الحراس من هذه النقطة وقد اهتمتنا لحلها دون ضوضاء.

انتهى حديثى مع الأخوين، لم أعد قادراً على سماع المزيد، يكفينى ضجيج الشكوك الذى يمرح برأسى والخوف الذى يعبث بصدري، سعدت إلى غرفتى وأنا أتساءل متى يكف هذا العالم عن إصابتى بالخيبة، يبدو أن كلينا لم يعد بوسعه أن يدع الآخر وشأنه، لا أكف عن محاولة إصلاحه ولا يكف عن تخييب أملى.



«المجرمون الأفتذار ممثلون بشكل ممنوع وعلى نحو واسع على هذا
الكوكب»
بات كونروى

(25)

عاصم

(2013)

لا شك أن هذه الجولة كانت أفضل ما وقع لي على سطح هذه الجزيرة، حتى في أحلك الظروف يمكن لأمنية عظيمة أن تتحقق، طالما تركت حادثة اختطافي بداخلي غصة، وطالما تشوقت لسحق كل من قابلتهم أثناء ذلك.

عقب القيام بأولى مهامتي مع المنظمة توالت العمليات في أفريقيا وأمريكا وآسيا، يتبدل الهدف ويتغير المكان والزمان ولكن دورى معروف التصوير في المكان الذى تحدده لى المنظمة، طلقات فى الرأس أو القلب لمن ينوون التخلص منه مباشرة وذلك يكون محاط بمجموعة من الحراس ويصعب الإمساك به فلا حيلة سوى قتله مباشرة، أو طلقات فى القدم أو الساق أو حتى الكتف وذلك للإيقاع بالضحية ثم يقوم مجموعة من الرجال على الأرض بالتظاهر بمعاونته ثم خطفه إلى حيث تريد المنظمة.

فى هذا الوقت كانت أكثر إقامتى فى إيطاليا، فى منزل خاص

بى فى أحد أحياء روما، كان بمثابة قاعدة للانطلاق إلى حيث تكون أهدافى، كان كل هدف جديرًا بالموت مستحقًا له، فى الحقيقة لا أدرى كيف تتم عملية الاختيار ولكنى تمنيت لو تمكنت من المشاركة فى هذا الأمر، مستحقى الموت أكثر من مستحقى الحياة على هذه الأرض، لم أفهم بعد هذه القسوة فى التعدى على حقوق الآخرين، والرغبة فى الاستحواذ على ما بيد الآخر، الحيوانات لا تقتل حين تشبع ولا تخزن من الطعام ما يكفيها لقرون.

بالطبع لم يمنعنى عملى عن زيارة والدتى بضعة أيام شهريًا لقضاء أوقات هادئة تُعيد إليّ طيف حياة فى بيت صغير مع أم حنون ليس لها همًّا سوى إسعادى، باتت حركتها قليلة تقضى أغلب أوقاتها فى السرير، تساقط شعرها ونحل جسدها وذهبت عنها الميكانيكية الآلية لأعصاب وجهها، التناسق الفطرى لحركاتها وإيائها لم يعد كما كان، افتقدت وجهها الذى أعرفه قبل أن تدهمها تلك الآلام تتحسن حالتها ببطء ولكن الخوف كل الخوف من معاودة ظهور هذا المرض،

فى فبراير من عام 2014 تلقيت نبأ وفاتها، ماتت بين وجوه أطالت التحديق فيها ولم يعد بوسعها تقديم العون، طرت إليها ودفنتها فى تراب أرض غير أرضها، كان نعشها خفيفًا طائرًا، ترى كم من الآلام احتملتها لتصبح بهذه الخفة، رحلت من حياتى واختفت كما تختفى السحابة بعد أن تاطر السماء، راحت أمى ولم يعد يستطيع المرض أن يمسخها بسوء، وصار بعدها العالم عصيًّا على العيش فيه، لم أكثرث بعدها لأى شىء من يحيا ومن يموت، سئمت من البحث وراء المنظمة عن دوافعها للقتل وتحولت لآلة للقتل بما تعنيه الكلمة، فقط تشير المنظمة لى على من تريد التخلص

منه ليصير في خبر كان، وهو ما ندمت عليه لاحقاً، لا بد وأن ما أنا فيه الآن عقاباً على ذلك الاستهتار في قنص الأرواح، تماديت في حزنى وغضبى أكثر من اللازم حتى قابلتها في أحد المطاعم بإيطاليا، إنها ليلى أمها تركية ووالدها إيطالى وكلاهما فارقا الحياة، كما علمت فيما بعد.

كان المطعم مزدحماً عن آخره، استأذنها الجرسون أن أشاركها الطاولة، كنت محرجاً جداً، ولكنها بدت شاردة، والطعام أمامها كما هو، يبدو أنها طلبته ولم تذق منه شيئاً سألتها:

- هل الطعام سىء إلى هذا الحد؟

- لا ليس كذلك.

كانت شاردة وشرودها ملفت، عيناها بلون العسل، شعرها مضفر في غير اهتمام، تقاطيعها مليحة، جبهتها البيضاء ووجتها الحمراء وان يكادان يضيئان المكان، أهملت الطعام أنا الآخر واستغرقت في النظر إليها في دقائق من الصمت:

- لا أظن أن هناك من يجروء على جعلك حزينة بهذا الشكل؟

ابتسمت دون أن تنظر إليّ وبدأت في العودة لتناول الطعام

- ظنك في غير محله

- إذن هو أعمى وبلا قلب.

ابتسمت بعدها وهى تنظر إليّ.

- لماذا توقفت عن الأكل؟ التحديق في وجهى لن يغنيك عن

الطعام.

- من الحماقة الانشغال بالطعام في حضورك، هذه الدقائق التي جاءت من القدر لا بد أن تستثمر، بالتأكيد ليس في مضغ البيتزا

ثم ضحك كلانا

- هكذا الشريون ينهرون بكل شقراء تقابلهم

- كلامك صحيح لو كان في بلدى، هنا أكثر من أن يُعدوا،

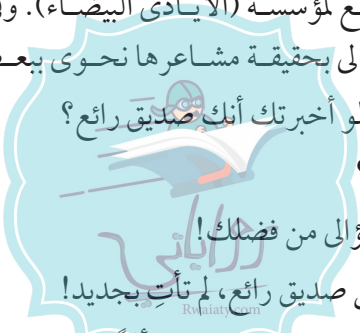
إنهم في كل مكان

بعد قليل من النقاش ارتاح كلانا للآخر وتبادلنا أرقام الهاتف، احتلت مساحة كبيرة في عقلى، اعتادت عيناى رؤياها، وكان حالى يتبدل للأفضل في حضورها، أغادر عالمى وأدخل في عالمها والأجمل أنها صارت تبحث عنى، وفتحت لى قلبها، ظللت مديناً للمكان الأول الذى جمعنا وللنادل الذى دعانى للجلوس أمامها، لم أعرف حياً حقيقياً طوال عمرى، ولكن ليلى تختلف، أنست وحدتى، وأنستنى كثيراً حزنى على أمى، اكتشفت في هذا الشتاء أن الأمطار لا تتساقط إلا لتلامس حبيبتى أو لتمنحها قبلة على الجبين، فُتنت بها أيما افتنان، طلبت زواجها ولكنها طلبت منى تأجيل الأمر، إنها بحاجة لمزيد من الوقت للتأكد من مشاعرنا نحوى، لم أحزن، المهم أن تبقى بجوارى أمام عيني وهذا يكفى.

كانت ليلى عادة حزينه على غير إرادتها، والدها قُتل منذ عام والشرطة لم تعثر على قاتله، سألت هل من أعداء له، هل هناك دوافع وراء قتله، لم تدر سبباً لقتله، ولكن بالتأكيد هناك سبب جعل أحد يطلق عليه رصاصتين من مسافة خمسة عشر متراً كما جاء في التحقيقات، ذكرت لى أن والدها كان بشوشاً دؤوباً في العمل، ولكنه في الأيام الأخيرة من حياته صار قلقاً صموئلاً،

بدأت هذه المرحلة عقب زيارة أحد الأفراد له والذي بالصدفة رآته ليلى أثناء عودتها، في هذه الليلة توجه والدها إلى الفراش ولم يتفوه بكلمة، وظل غريب الحال بعض الشيء حتى تم قتله بعد أسبوعين. أغلق التحقيق دون الوصول للفاعل، وظلت ليلى تعيش وحيدة، لها أخ يعيش في أمريكا، أما هي فتعمل في معرض لبيع اللوحات، جها للرسم والفن تشكيل استحوذ على مساحة كبيرة في حياتها.

ظلت علاقتنا هكذا مع استمرارى في العمل الذى لا تعرف عنه سوى أنه يتبع لمؤسسة (الأيادى البيضاء). وفي إحدى المكالمات قررت أن تعترف لى بحقيقة مشاعرها نحوى ببعض الدلال:

- 
- هل يسعدك لو أخبرتك أنك صديق رائع؟
 - فقط صديق؟
 - أجب عن سؤالى من فضلك!
 - أنا أعرف أنى صديق رائع، لم تأت بجديد!
 - أنت سخيف ولكنك حبيب رائع أيضًا

طرت من الفرح عقب هذه الجملة، السعادة بدأت تعرف طريقى، عشت معها شهرين نخطط لحياتنا، أين سنعيش؟ كم ولدًا سننجب؟ وماهى أسماؤهم؟ كانت تدهش من تفكيرى، تريدنى أن أترك كل شىء لوقته، لم أهتم، يكفى أنها معى وتبادلنى الحب، حتى فى أحد الأماسى وبيننا نتناول عشاءنا فى أحد أرقى مطاعم روما، قابلت كلاوديو كان يجلس بصحبة آخر فى طاولة مجاورة، بالطبع تبادلنا التحية وسط نظرات ليلى، ثم استكملت الطعام والحديث ولكنها كانت شاردة، اعتقدت أنه أمر عارض ولكن

رأسها سافرت لمكان آخر، وطلبت أن يغادر على الفور، في سيارتي حاولت أن أفهم منها سبب تغييرها المفاجيء، فوجدتها تبكى:

- الرجل الذى كان بصحبة صديقك، هو الرجل الذى زار والدى وتبدل أحواله عقب هذه الزيارة، لا بد أنه هو من قتله.

حاولت تهدئتها دون جدوى، أرادت أن تعرف من صديقى هذا، ومن هو من كان معه؟ أخبرتها أنه ينتمى لنفس المؤسسة وتقابل أحياناً، أما مرافقه فلا أعرفه، اسودت ليلتنا فجأة وكذلك الأيام التالية، لا داعى بأن الشك ساورنى أنا نفسى، فأنا أدرى بطبيعة عمل هذه المؤسسة، ولكن هل كان والدها هدفاً لمؤسستنا، لذا تخلصوا منه، وكان والدها محامياً، فما علاقتهم به وما الداعى لقتله؟

في أول لقاء لى بكلاوديو، سألته عن الرجل الذى كان بصحبته فى تلك الليلة، تهرب قليلاً وراوغ، لكنى أصريت، فأخبرنى بأنه من الأفضل لى ألا أعرف، زادت شكوكى أكثر فاضطرت لمراقبة كلاوديو نفسه، كان الأمر عسير جداً، أى خطأ سأدفع ثمنه غالباً، حتى مر أسبوعين وانقطعت لقاءاتى بلىلى واكتفينا بمكالمات جميعها تدور حول هوية هذا الشخص الذى كان بصحبة كلاوديو، ولكن بعد فترة رأيته يقابله من جديد، هنا راقبته هو شخصياً، حتى عرفت، إنه ماركو أحد المسؤولين عن مؤسسة الأيدى البيضاء بشتى أنشطتها، تتبعته حتى وصلت لعنوانه ودرست كل شىء يخصه، ولكن قبلها طلبت من لىلى أن يتعد، تسافر إلى أى مكان، حتى تزول مخاوفي من تعرضها للخطر، أخبرتنى بأنها ستسافر إلى أخيها فى أمريكا وأعطتنى عنوانه وهاتفه، كنت أمام أمرين،

إما يكون والدها مجرمًا يستحق القتل وهى لا تعرف وفي هذه الحال من المستحيل أن أخبرها وأصدمها في أبيها، وإما المؤسسة تستهدف المجرمين وغير المجرمين لأسباب غير معروفة ووقتها أنا من سيصدم في المؤسسة.

أن تقتحم فيلا محاطة بهذا الكم من الحراسة، وأنت في غير كامل لياقتك هو أمر غاية في الصعوبة ولكنى فعلتها وانتظرته مثلًا في غرفته في الظلام. حين دخل وجدنى، فوجىء بى، طلبت منه أن يغلق الباب خلفه، استجاب لى، كان مأخوذاً دون خوف، عرضت عليه صورة والدها في يد وفي اليد الأخرى مسدسًا كاتمًا للصوت، حقيقة لم أكن أنوى استخدامه، ولكنى بحاجة لوسيلة ضغط.

- أهلاً عاصم

قالها بالإنجليزية وسط ذهولى، كيف عرفنى بهذه السهولة، كنت على وشك الجنون .

ولكنه غمغم:

- يبدو أنى بحاجة لتغيير هؤلاء الحمقى من الحراس بالخارج، في الحقيقة لم أظن أن تفعل شىء جنونى كهذا، ظننتك رجلنا ولن يؤثر فيك أى كلام.

- كيف عرفتنى؟ وهل تعرف هذا الرجل؟

- أنت تعمل في منظمتى وأنا من يعطى التعليمات لكلاوديو بمن سينفذ كل عملية، أنا من عينتك واخترت لك مهماتك بنفسى، أنت بارع فعلاً

- وهذا الرجل؟

- يجب أن تشكرنى لأننى قتلتته، لقد كاد أن يهد المعبد على

رؤوسنا، لديه شكوك بشأن منظمتنا ولم يتوقف عن البحث وراءنا والأسوأ من ذلك، أنه قدم هذه الشكوك للسلطات هنا، هل هذا كافٍ لقتله؟ أم كنا ننتظره ليدمرنا جميعاً

كان يتحدث بثقة وهدوء بل وبدا يخطو لإنارة الغرفة من جديد ويتحرك حولي أثناء الحديث مما دفعني لرفع اللثام، فلم يعد له داعٍ، اقترب مني وهو يتسّم.

- مؤسف أن يكون لقاءنا الأول هنا، ومؤسف أكثر أن يكون الأخير.

قالها بعد أن انتزع مني المسدس انتزاعاً بشكل فاجأني بعد أن أرخيت يدي نتيجة ما سمعته من مفاجآت، صار مسدس كاتم الصوت بيديه ووجهه لي، لم أتخيل أبداً أن يتطور الأمر لهذه الدرجة: - أنت من جئت لتقتحم غرفتي وتهددني بهذا السلاح، لا أحد يجرؤ على التفكير في ربع ما فعلته، لقد أنهيت بفعلتك عمالك معنا وأنهيت عمرك كذلك، الوداع يا عاصم

هنا دوى صوت رصاصة عالياً رجت أنحاء المكان، من سلاح آخر نزعته في خفة من وراء ظهري أسفل ملابسي، حملته على سبيل الاحتياط في حالة فشلت في دخول المكان أو قابلني حراسه الشخصيين أو نفذت طلقات المسدس الأول مني، لو لم يكن معي هذا السلاح كنت الآن ميتاً ميتة سريعة، لم أتخيل أبداً أن تتطور الأمور بهذا الشكل، سقط ماركو والدم ينزف منه بغزارة بالطبع كان من المستحيل الخروج سالماً عقب هذا الدوى الهائل، تم الإيقاع بي بعد أن أحاطوني من كل اتجاه، وبعد أن أفرغت طلقات كلا السلاحين.

بعد دقائق حضر تونى ليجد أخاه مقتولاً، بكى متأثراً ثم
سريعاً وجهه لى اللكسات بقسوة وهم ممسكين بى:
- أنت ستتمنى ميتة سريعة كهذه ولن تنالها، لن أهدأ إلا وأنا
أراك تتلوى تتألم تئن تشتعل بالنيران تماماً كالعشب الذى يحترق.
بعد حفلة تعذيب وصلت إلى الجزيرة، لألقى مصيرى عقاباً
على جريمة لم أنوار تكابها لكنها وقعت بيدي، الآن علمت بأنى
أنال جزائى جرائم ارتكبتها تخدم المنظمة ولا تخدم العدل والعدالة
كما يدعون، حتى لو كان هناك من يستحق القتل تطبيقاً للعدل،
فلا يجب أن يتم ذلك بيد من تلوثت أناملهم بضحايا أبرياء.
لن يغير الندم من الأمر شىء وإن كان أكثر ما يحزننى يقينى
بأنى لن أرى ليلى من جديد.



«تصور حجم ما مات فينا حتى تعودنا على كل ما يجري حولنا.»

ممدوح علوان

(26)

يحي 2014

برغم كل شىء ما زلت حيًا ترزق، قاومت رغبة شديدة في الانتحار، رغم ما يعتريك من يأس، ما أصعب أن تعيش دون رجاء، دون أمنية تأمل أن تتحقق، حقًا لم يعد لديك ما تطمح إليه، ليس هناك أمر قادر على منح حياتك لونا مختلفًا، تستمر في عملك وتنفذ مهامك هنا وهناك، وأنت لا تدري آخر هذه الحياة، بالطبع لم يعد ممكنًا الاحتفاظ بحسام في نفس المكان مع سالم، ما سيدور بداخل السلخانة الموجودة بالقبو مع سالم يصعب اطلاع حسام عليه، يكفيه ما تعرض له منذ اختطافك له واحتفاظك به هذه الفترة، لقد دمرت حياته تمامًا وكل معارفه احتسبوه مع الأموات، ولكن أيضًا لا يمكن تصحيح هذا الخطأ بالإفراج عنه، هذا مستحيل، لذا ستبقى عليه مع تحسين ظروف حبسه، في غرفة أخرى معزولة قليلًا، أغلقت مخارجها بشكل آمن وضعته، خفت قيده قليلًا بسلسلة معدنية أخف سمكًا، يمتد طولها حتى حمام خاص بالغرفة، ضيق جدًا بلا فتحات على أحد جدرانها مرآة كبيرة، لا تناسب أبدًا مع مساحة الحمام، اهتممت بنوعية الطعام

المقدمة له نوعاً، لا مانع من تبادل بعض الكلمات معه، حاول ذات مرة أن يطلب منك أن تدعه يذهب مع وعد بعدم إفشاء أى سر من أسرارك، إجابتك جاءت عسيرة الفهم أو هكذا فهمت من تعبيرات وجهه، حين قلت له

- خلاصك لا يكمن فى هذه الغرفة، الخلاص ينتظرك فى مساحة بالغة الضيق.

قلت هذه الجملة وكم تمنيت لو تمكن من فهمها.

مزيج من الخوف واليأس وعدم الفهم سيطر عليه، خاصة وأن المفهوم من كلامك يقترب كثيراً من القبر أنت نفسك لا تعرف إلى متى ستحتفظ به هكذا، ولكن فى الوضع الحالى عليه البقاء هنا مع عدم إحداث أى إزعاج قد يؤدى به للعودة داخل القبو ومشاهدة ما يدور بداخله، أنت تعلم بالطبع أن حسام الميرغنى لم يكن ملاكاً فى حياته وبالطبع ارتكب جرائم تمكن من التهرب منها بفضل نفوذه وماله، لكنه كما تبين ليس له صلة بما جرى لولدك، لذا ستبقيه معك حتى حين، أما سالم فصراخه يملأ جلبات المنزل مصحوباً بموسيقى صاخبة تغطى على هذا الصراخ، يبدو أنك شاهدت الكثير من أفلام الجاسوسية يا يحيى لأنك اتبعت معه أساليب كثيرة منها، وعلى سبيل التنويع وقع فى شرك تحديات مهلكة كما يحدث فى الأفلام الأمريكية، لقد برعت كثيراً فى إيلامه، صارت حياته ويلات متعاقبة، لقد جاءتك الفرصة ولن تضيعها، ولكن الأهم أن تبقيه حياً، لقد صار تعذيبه متعتك، وصراخه يطربك، ما ألد الانتقام حين يأتى على نار هادئة، لقد كرست القادم من عمرك لهذا الغرض.

استمرت عملياتك مع المنظمة شهورًا أخرى وأنت تحقق نجاحًا وراء نجاح، تثبتك بنفسك كانت عاملاً أساسياً، ليس هناك ما هو أحب إليك من الإجهاد على مجرم سواء بهدف خطفه أو قتله، كل ما هو من شأنه تخفيف ألم ما أو وضع حد لجريمة ما كان يلقى حالة من الرضا تنشأ بداخلك، بعض المصائب قد تهون حين يعود الحق لأصحابه أو حين يحصل الجاني على جزائه، فما بالك لو كان هدف المنظمة مواجهة القسوة بالقسوة والعنف بالعنف، ورغم أنك طالما احترت في أمر هذه المنظمة، خاصة وأن أصحابها غربيين لم يعانون كما تعاني دول أخرى أقل اقتصادياً واجتماعياً، إلا أن تيقنك بأن هناك من يكثرث بأمر الضعفاء والحصول على حقهم والانتقام لهم كان له مفعول السحر في إنجازك لكل مهمة، مع إضفاء لمستك الخاصة وأنت ترى المفاجأة في عيون أهدافك وأنت تذكرهم بجريمتهم التي يعاقبون عليها، لقد حصلت على حسام واحتجزته لديك دون أن يدري جريمته، وها أنت يثبت لك بعد فترة براءته مما اتهمه به سالم الملاح، لذا وبعد هذه الصدمة لم تكتف بما تخبرك به المنظمة بشأن هدفك أو حتى ما تجده في تحريك عن المعلومات التي تمدك بها، كان هناك ما هو أضمن، ما هو أقوى، تلك النظرة التي تراها في عيونهم حين تفصح لهم عن جريمة ارتكبتها، في هذا الوقت يباغت الهدف بالصدمة وتري في عينيه اعترافاً ضمناً بجريمته وذلك إما بإبداء الندم أو التوسل أو حتى محاولة الفكك منك وكانت أغرب الأمور التي لم تخطر ببالك حين عرض عليك أحدهم أن تتركه يفر مقابل منحك مالاً وفيراً يؤمن حياتك ويضمنها حياة كريمة حتى مماتك، جميعهم أدرك أن نهايته موشكة فكان يحاول إنقاذها بواحدة من الوسائل السابقة،

إنها لحظة الحقيقة، لحظة المواجهة، اللحظة التى يتسنى لهم فيها مشاهدة الموت وهو قادم لقبض روحهم، لا مجال للكذب هنا ولا للخداع، حتى جاء تكليفك من قبل المنظمة باغتيال الأيرلندى جيمس لامبارد والذى كان ضابطاً بقوات حفظ السلام بوحدة من الدول الأفريقية الغير مستقرة والتى تشهد حرباً أهلية ونزاعات، هذا الرجل أشرف وشارك فى عدد من الانتهاكات والجرائم التى تمارسها القوات ضد المواطنين الأفارقة، إنهم الموكلون بحمايتهم ولكن عوضاً عن ذلك كانوا أول من نهشوهم، ورغم ضلوعه فى تلك الجريمة الأثمة، إلا إنهم غضوا الطرف عنه، وهو يعيش آمناً الآن وسط حراسة خاصة بعد ما جنته يده من قتل وعدوان، بالطبع وطنه يوفر له الحماية كى يبقى بعيداً عن أى عقاب، ولكنه لن يفر بفعلته، كل ما عليك هو قتله، حصلت على عنوانه فى إنجلترا وأماكن تحركاته، تم تحذيرك من الحراسة المشددة التى تحيط به، أى خطأ قد يودى بحياتك، كالعادة تحريت حول تلك المعلومات، وجاءت نتائج بحثك لتؤكد تقرير المنظمة هناك بالفعل جرائم من قبل قوات حفظ السلام ضد المواطنين بتلك الدولة الأفريقية، وقائمة من الجنسيات المشاركة فى هذه القوات بالطبع أيرلندا إحداها، وجيمس لامبارد أحدهم، فلتودع هذه الأرض يا جيمس!

تذهب إلى حيث يعيش، تراقب خطواته، تدرس مسكنه والمنافذ المؤدية إليه والثغرات الأمنية إن وجدت، عادة لا يوجد نظام حراسة بلا ثغرات، فقط عليك أن تتبّه جيداً لأن أى ثغرة قد تتحول لفتح، إن لم تحسن استغلالها، تتخذ احتياطاتك وتعد أدواتك، لقد فعلتها مراراً، وستفعلها الآن، كل ما عليك أن تدلف لهذا البرج الشاهق،

تدلف لواحدة من الوحدات السكنية العلوية للطابق الذى يخص جيمس وفي نفس صف شقته، بالتأكيد ما يعلو شقته وما دونها لا يحظون بهذه الحراسة المشددة، فقط الإجراءات المعتادة المتبعة، وهذه لا تشكل أزمة لك فقط بشرط ألا يراك أحد وقت اقتحامك لواحدة منهم.

ومع بدايات العام الجديد وكأمثل ما يكون لشتاء يناير فى انجلترا ووسط درجة حرارة منخفضة للغاية وشعور قارص بالبرودة وريح تجمد الأطراف وتلفح الوجوه بصقيع يكاد يصل لدمائك لولا حركتك السريعة التى تمنحك بعض الدفء، أنت فى أمس الحاجة إليه، أنت الآن فى الشرفة العلوية لشرفة جيمس، أى فى الطابق العاشر كل ما عليك أن تتدلى بحبل مربوط بإحكام للهبوط فى قلب شرفته، هذا الطقس يقيك نظرات قد تحيط بك من شرفات مواجهة، أنت الآن كفأر يزحف على واجهة بناية لا أحد يلحظ وجوده أو يسمع له صوتاً، فقط تشبث جيداً، لا تحدث جلبة أكثر من اللازم، عالج منزلاج الشرفة بهدوء وحكمة وما أيسر ذلك عليك، ستجلس بانتظاره إن لم يكن بالداخل، وستعامل معه فى حال وجوده، ستدعه يفهم بجملة مقتضبة وبعدها ستفرغ طلقة فى رأسه من مسدس كاتم الصوت الذى بحوزتك، ظلام مدلهم يجثم على غرفة نومه، إما إنه بالخارج، أو فى أحد الغرف الأخرى يجتسى الشاي أو يشاهد التلفاز، ستنتظر حتى يأتى لغرفة نومه وهو فى أو هن حالة ممكنة لتسليم نفسه لسلطان النوم، ولكنك فقط ستحول الطريق ليجد نفسه فى مواجهة سلطان الموت، لا يستمر انتظارك طويلاً وراء ستارة سميكة فى مواجهة فراشه، تتمايل أطرافها دون أن تهدد تخفيك مع نسيمات الهواء المتسربة من الشرفة

الغير مغلقة بإحكام، ولكنه نفس وضعها كما تركها جيمس لقد رأيت صورته وحفظت شكله، في أواخر الثلاثينيات من العمر، شعره برتقالي وجه ذو بشرة بيضاء حساسة تتناثر عليها حبات النمش، متوسط الطول رشيق، لا تعول كثيرًا على ضعف لياقته أو بطء حركاته فهو أولاً وأخيراً رجل له خلفية عسكرية يتمتع بلياقة ذهنية وعقلية، لن يكون صيداً سهلاً كآخرين، لم يطل انتظارك، له زوجة وولدين لم يتجاوزا العاشرة من العمر ولكنه تركهما في أيرلندا ويهاتفهم بشكل دوري للاطمئنان عليهم، في تلقائية دخل إلى غرفة نومه، وأثار مصباح الغرفة لتتفرق الأشعة على الأنحاء وتثبت كل قطعة أثاث في مكانها بعد أن كانت سابحة في الظلام، يتجه إلى خزانة الملابس يستخرج منها منامة بنية اللون ثقيلة ليرتديها ويخلع بنطاله وقميصه الصوفي ذا الأكمام، ينظر لنفسه للمرأة الموجودة على يمين الفراش قبل أن يذهب مجدداً ليغلق المصباح ويفتح أباجورة صغيرة على الكومود بجوار السرير ويسحب بطانية عريضة حتى وجهه، تمر دقائق بطيئة حسبتها كافية ليغيب عن وعيه، تتسحب خارجاً من خلف الستارة، كل شيء في مكانه، عدا هذه الإضاءة الخفيفة، تتقدم بخطوات مدروسة حتى فراشه، تخرج المسدس من مغمده، تغرسه في جانب عنقه، يزيحه بيده وحين يلمسه تسحبه بسرعة بينما هو ينهض على الفور ليجد جسداً واقفاً أمامه يصيبه بالرعب على مسافة متر، إنه أنت يا يحيى، تنظر له وتوجه له المسدس وتضع إصبعاً بشكل رأسي على شفطيك كى لا ينطق حرفاً، الذعر واضح في عينيه، يرفع كفيه مستسلماً وبانجليزية واضحة وبصوت مرتعش:

- هيا.. أقتلنى.. بسرعة أرجوك، كنت أعلم أنهم لن يتركونى.

ثم يغمض عينيه بعدها انتظاراً الرصاصك التى تأخرت قليلاً،

لم يطالبك أحدهم من قبل بسرعة قتله، جميع من سبقوه يتوسلون، يقاومون، أما حالة الاستسلام التام هذه لم تقابلك من قبل، كنت على وشك ضغط الزناد قبل أن تسأله:

- هل ندمت على فعلتك؟

يفتح عينيه ببطء، فاجأه سؤالك ولم يعرف أيطالبك بسرعة قتله من جديد أم يجيب سؤالك؟! إنه خائف وضائع ولكنه مع ذلك يجيب في ثبات:

- بالطبع لا، لم أندم، لقد أخطأوا وعليهم دفع الثمن
استفزتك إجابته بشكل كامل دفعتك لسحب الزناد وأنت تقول:

- أى خطأ وأى ثمن هذا؟ أنتم من تعديتم عليهم
يحدق فيك طويلاً وقد اكتسب قليل من الثقة.

- لا أفهم ما تقول، أنا رجل شاهد جرائم من قبل قوات حفظ السلام ولم أستطع السكوت عنها، ماذا عساني أفعل؟ بالطبع أبلغت عنهم، كنت أعرف أنكم ستتعقبونى ولكنى أفضل عيش الباقي من عمرى مطارداً على العيش نادماً
ثم يرجع لخوفه من جديد.

- هيا لا تكن أحمقاً، أطلق الرصاصة الآن!

تراجع في ثبات وأنت غير مصدق، هناك من يخدعك إما المنظمة وإما هذا الرجل، على أية حال نخادعك لن ترحمه، فقط تثبت منه وتسأله بحزم:

- وما دمت بهذا النبل فلماذا هذه الحراسة من حولك والتى

لا تفارقك؟

- الفشلة بالخارج الذين مكنوك منى أو غفلوا عنك، إنهم تابعون لبرنامج حماية الشهود، ولكنى لم أعلم بانعدام كفاءتهم إلى هذا الحد حتى اليوم، من الرائع أن يواصل المرء التعلم حتى قبل موته بدقائق أو ثوانٍ

تقترب منه بسرعة وقد أذهلك كلامه

- وهل لديك دليل على كلامك؟

- بالطبع

يقترب من الخزانة، تحذره، فيبتسم في ود، يزيح بعض الملابس لتسقط من خزانة الملابس كاشفة عن صندوق صغير، خزانة صغيرة داخل خزانة الملابس يفتحها بترو قبل أن يسحب منها بعض الأوراق ويسلمها لك، تقرأها سريعاً في حذر بينما عينك لا تهدأ بين النظر إليه وبين قراءة الورق تحسباً لأى حركة غادرة، لقد تيقنت بأنه لا يتلاعب معك، كلامه صحيح مائة في المائة وفقاً للأوراق بحوزته، بالطبع لم يجهزها لعرضها على أول قاتل يبغى قتله، المنظمة هى من لعبت بك وأرادت توريطك في عملية قتله لصالح من شهد عليهم ومن ورائهم من دول ومسؤولين، بموته لا يكون هناك دليلاً واحداً يدينهم ويفلتوا من العقاب بكل يسر، المفاجأة أبطأت تفكيرك ولم تكن في وضع جيد، يمكنه الآن الانقضاض عليه، لقد شعر بترددك وهى فرصة يعرفها أى مقاتل، ابتعدت للوراء مجدداً، لا تعرف ما هى خطوتك التالية، بالطبع لن تقتل بريئاً

- هل تستطيع أن تختفى؟

- ماذا؟

- أنت مطلوب قتلك، لا أدرى الجهة التى تريد قتلك ولكنها
مصرة على ذلك، لقد أفلت اليوم من الموت، لن ترانى ثانية ولا
أريد أن أسمع خبر موتك فى الأيام القادمة، لا تتأخر، فِر بأقصى
ما تستطيع ساقيك!

ثم تعود إلى الشرفة سريعاً، لتتسلق الحبل المتدلى وتتسند على
جدار النافذة، تتمنى ألا تفاجأ بما يعرقل هروبك أنت أيضاً فى
الطابق العلوى، وتتمنى أكثر ألا تنقلب الدنيا رأساً على عقب
بحثاً عنك بعد أن استدعى جيمس الرجال المكلفة بحراسته،
لقد ارتكبت حماقة يا يحيى بمغادرتك بهذه الطريقة، فما أسهل
العثور عليك، لم تتوقف ستؤجل التفكير فى الصدمة التى تلقيتها
اليوم إلى ما بعد تأمين رحيلك، أما جيمس فارتكب نفس الحجم
من حماقة حين انتظر طويلاً غير مصدق بأنه قد نجا من موت
محقق، جلس يراقبك وأنت تهرب وشعور يسيطر عليه بأنه قد
وُلد من جديد، لقد تأخر كثيراً فى استيعاب الموقف وحين استفاق
اتصل بالرجال المكلفة بحراسته ولكن كنت يا يحيى قد تمكنت
من الفرار، اتصل بكلاوديو، تخبره بنجاح العملية، تطلب لقاءه
فى اليوم التالى، تستقل الطائرة المتوجهة إلى فرنسا، لا تدرى ماذا
تفعل أو ما التصرف الأمثل، لكن المؤكد أن علاقتك بالمنظمة تلفظ
أنفاسها الأخيرة.

كم كنت ساذجاً يا يحيى حين سلمت نفسك لهذه المنظمة،
ترى كم برىء قتلوه! كم هارب من الموت حصلوا عليه! كم روح
أزهقوها! لقد استطاعوا خداعك كثيراً، هناك أسئلة عليك أن تجد
إجابة لها؟ هل هذا أول برىء طلبوا منك اغتياله؟ لو كان لا فمن
من قتلتهم؟ ولو كان نعم فلماذا الآن؟ من الذى يختار عملياتك

وهل هناك وسطاء آخرين غير كلاوديو أم أنه المسئول المباشر
عقب أصحاب المنظمة؟

في صباح اليوم التالى تلتقيه في مارسيليا، يبدو على وجهه القلق
خاصة وأنه غير معتاد أن تطلبه للقاء، تطلب منه الذهاب معك
لمنزلك الجديد بعد أن تقول:

- لقد قررت التخلّص من سالم بعد ما استنفذت وسائل
تعذيبه، لا بد وأن للمؤسسة طرقها أيضًا للانتقام، سأمنحه لك
ولكن بعد أن تطلعنّى ما خططكم بشأن أمثاله.

- الجزء من جنس العمل لدينا يا يحيى، سالم كان يخطف
الأطفال ويبيع أعضائهم البشرية، هذا هو ما سنفعله به تحديداً،
سنأخذ منه عضواً عضواً وهو حي، وحين تخرج روحه لا أظن
سيبقى الكثير فقط جلد بشرى وعظم وأعضاء ليست ذات فائدة،

- رائع سأسلمه لك الآن، هل من مانع؟

- بالطبع لا، فقط يكون مخدراً لوقت كافٍ

يلاحظ ابتعادك كثيراً عن العمار أثناء القيادة ويتساءل ساخراً :

- هل استأجرت كوخاً في الغابة أو شيئاً من هذا القبيل؟

- تعلم المصيّتين اللتين لديّ، ينبغي توخى الحذر ألم يكن هذا

كلامك؟

يبتسم في قلق، تسرع في القيادة حتى تصل إلى منزلك الهادىء
والشارع الذى ليس به سواكها، تترك سيارتيكما بالخارج، ثم
تدلفان إلى منزلك الهادىء، ترحب به، تطلب منه الجلوس فى هيو
المنزل التقاطاً للأنفاس، وما إن تهدأ، تعد فنجاناً من القهوة لكليكما
تحتسيها ببطء وأنت تطيل النظر إليه، يبدو متعجباً كلاوديو.

- فور الانتهاء من القهوة سأحمله إلى سيارتك، لن يستيقظ قبل يومين على الأقل.

ولكن لماذا يشعر بثقل رأسه؟ لماذا أضحت الرؤية غير واضحة، لماذا يرى جسدين وثلاثة في نسخ مكررة منك ترمقه بخبث، هذه القهوة ليست نظيفة، مالذي فعلته يا يحيى؟ ما الذى وضعته فى فنجان القهوة؟ ستندم على ذلك..؟ لم يستطع كلاوديو إكمال باقى الجملة التى دارت فى رأسه، سقط على رأسه ممدداً بنصف جسده العلوى على الأريكة بينما النصف الأسفل يتدلى بشكل مائل مستنداً على الحذاء، بسرعة تخلع حذاءه وسترته وتجره جراً نحو القبو، تفتح نور الغرفة فيبدأ سالم المعلق شبه عارياً بالتأمل وهو لا يكاد يتبين شيئاً من فرط ما يلاقيه، يظن أنه على موعد مع وجبة جديدة لا تتحمل من العذاب، ولكنه يلاحظ انشغالك عنه بضيف جديد، إنه ليس حسام، بالطبع لا يعرف كلاوديو ولا ما هى جريمته وإن كان يظن أنه رآه من قبل، لا بد أنها شنيعة لتأتى به إلى هنا، يشاهدك بينما تقيد يديه خلف ظهره ثم تشبك يديه بخطاف متدلى من السقف، كانت الجرعة المخدرة خفيفة، تحاول إفاقته دون جدوى، فتحضر دلواً من الماء وتسكبه على جسده، ليتنفض ويحاول أن يحرر نفسه بلا جدوى.

- ستندم يا يحيى على ذلك كثيراً

ضربة موجعة فى معدته، تبعثها صرخة قوية من الألم وأنت تضحك.

- لم يُخلق بعد من يهدد يحيى ولكن مع ذلك يمكننى تصحيح هذه المعلومة لك.

لا أحد يعبث معي، ومن يخذعني يدفع ثمن ذلك وكان ذلك اتفاقي للعمل معك قبل الانضمام، جيمس لم ينتهك أو يتعدى على أحد في أفريقيا، فلماذا أردتم قتله؟

- لن أتحدث هكذا يا يحيى، أنزلنى ويمكننا التفاهم

- لن تملى عليّ تعليقاتك مرة أخرى كلاوديو، وستتحدث.

يصمت بينما تنظر له في تحدٍ ثم تخطو خطوات وتنحنى لتلتقط عصا معدنية تضعها في فرن أمامك نقلته إلى القبو كأداة من أدوات تعذيب سالم التي لا تحتمل، بينما تمسكها من طرفها، يراقبك كلاوديو في توتر.

- ماذا ستفعل يحيى؟ لا تتهور، نحن نعمل معًا وأى خلاف

يمكن تسويته.

- فقط سترد على إجاباتي وإلا سأجعل سالم يخبرك أين أضع هذا السيخ، لماذا أردتم قتل جيمس، المنظمة لا تقتل إلا من يستحق، هكذا وافقت على العمل معكم، لماذا الآن؟ ولماذا جيمس؟

- المنظمة بحاجة لحماية، هذه الحماية لن تتوفر إلا من جهات لها طلبات محددة، واحد من هذه الطلبات كان مقتل جيمس.

- وهل هناك جرائم أخرى تندرج تحت هذا البند؟

- من الأفضل لك ألا تعرف يحيى، كلما قلت معرفتك، كان ذلك أسلم لك.

- قلت لك لا أحد يهددني.

- أنا لا أهددك يحيى، فك قيدي وسأنسى ما حدث الآن،

أعدك بذلك.

- كيم لى يونج الصينى الذى اختطفته وكذلك مالدينوف
الروسى أين ذهبوا؟
- قُتلوا.

- أنت كاذب، كان بإمكانكم تكليفى بقتلهم كغيرهم، أعلم
أن هناك من يتاجرون بالأعضاء وهؤلاء تأخذون أعضائهم تبعاً
وهناك من تصفون دمائهم، ولكن من هو متورط فى قتل عشرات
ومئات أين يذهبون كلاوديو؟
- لا تسأل فيما لا يعينك يحيى، ولا تنس أننا من أحضرنا إليك
هذا الكلب الذى تعاملنى مثله.

- وقد دفعت ثمن ذلك، تخليت عن عملى وغادرت بلدى
وصرت ميتاً فى نظر الجميع وكان شرطى ألا أخدع، أنتم من
بدأتم، أجب على سؤالى كلاوديو، كل من اختطفهم لصالحكم ما
مصيرهم، هل كانوا مذنبين أم خدعتمونى بشأنهم؟
تصيح فيه بغضب ولا يقابل ذلك إلا بالصمت، فيزداد جنونك
تضع السيغ على الأرض وتهم بخلع ملابسه بينما هو يتلوى مقاوماً،
وتجذب قميصه وبنطاله وتشدهما بعنف، بينما هو يصرخ «لا يا
يحيى لا تفعل!» تمسك بطرف السيغ من جديد وتنظر له بحزم.
«أنت من اخترت ذلك» فيصيح :

- انتظر، سأقول لك كل ما تريد، هناك جزيرة فى المحيط
الهادىء، لاحتضع لحكم دولى، جزيرة صغيرة يصعب الوصول إليها،
سكانها محدودى العدد، من نحصل عليه حياً، يذهب إلى هناك، وما
يحدث هناك لن تجده فى أى مكان آخر، نهايات بشعة لأناس تجردوا
من الرحمة، ترى المنظمة أن هذه هى الطريقة المثلى للانتقام منهم،
الموت ألماً، المؤسسة لا ترحم من يخطىء ويقع فى براثنها

- ولكنها لا تتردد في قتل أبرياء أيضًا!

- هذا لحماية مصالحها يا يحيى، إنها تعتنى بالألاف في كل مكان، وتنتقم لهم أيضًا، يجب أن تبقى، لقد حاولت دومًا إبعادك عن تلك الجرائم، ولكن نعانى نقصًا الآن في عدد الرجال، وأنت واحد من أكفأهم.

- آسف، كلاوديو ذلك لن يشفع لك عندي، هناك أبرياء قتلوا بتعليقات منك أو من باقى رجال المؤسسة، العدالة تقتضى أن تلاقوا نفس المصير

وبينما تواصلان الحديث، لا تنتبه إلى صوت الهاتف المحمول الخاص بكلاوديو والموجود في سترة بذلته، والذي لم يتوقف عن الرنين منذ وصولكما إلى القبو ولم تقرأ الرسالة التى أرسلت إليه وكان نصها «جيمس لم يُقتل، إنه كذب عليك، احذر منه، نحن في الطريق إليكما»

- أتعلم كلاوديو، دومًا تساءلت «ما نهاية هذه الحياة التى أحيها؟» كنت أتعجب من استمرارى هكذا، لقد حصلت على سالم ويمكننى قتله وقتما شئت، عسير الاستمرار فى هذا العمل وهذه الحياة، لا بد من نهاية، وجاءت بأسرع مما أتخيل وبشكل لا أتوقعه، فقط سأنتهى منكما وأترك هذا البلد وهذا العمل وسأختفى، منظمته لن تعثر لى على أثر ثانيةً.

- لا تقتلنى يا يحيى، يمكننى مساعدتك، يمكننى إقناعهم بأنك مت، لقد فعلناها مرة من قبل وسنعملها ثانية.

كان وجهه محتقنًا محمرًا عيناه متسعتان عن آخرهما وهيستيريا تتباه، هذا رجل على مشارف الموت يواجهه بكامل وعيه بغتة.

تومىء برأسك أن لا فائدة، فمن جديد يلهث والرداذ يتطاير
من فمه في محاولة لإلقاء ما بداخله من كلمات

- اسمع يحيى، لا يزال لدى سر صغير حتمًا سيفيدك، فقط
اتركنى وسأخبرك به.

- لا اهتم بأى أسرار تخص منظمتك

- إنه لا يخص المنظمة وحدها، يخص شخصًا تعرفه جيدًا.

- من هو؟

لقد بدأ بإثارة فضولك، لقد انقطعت كافة الخيوط التى كانت
تربطك بكل معارفك منذ زمن، ولكن لا تنكر بأنك قد اشتقت
إليهم جميعًا، لقد ماتوا فى عينيك من قبل عقب وفاة أسر وأنت
كذلك مت فى عين الجميع، ولكنك تشتاق للحظة البعث من جديد.

- انطق، كلاوديو

- ليس هكذا يتم التفاوض يا يحيى.

تبدأ فى إنزاله من الخطف ليقف على الأرض بقدميه دون أن
يحفظ توازنه بشكل كامل ويسقط على الأرض، يطلب منك فك
قيود يديه ولكنك ترفض بغضب:

- إن لم تنطق الآن سأضع هذا السيف على رقبتك، فقط من
أجل أشياء كثيرة سأنتهى من أمرك سريعًا، يرى العزم فى عينيك
فيدرك بأنه لا فرصة ويلعن الأغبياء الذين تأخروا لقد أخبرهم
قبل الحضور بوجود شىء غير اعتيادى معك، لديك شكوك
تجاهه، يجب أن يبقوا على اتصال معه، وأى تأخير فى الرد يعنى
خطورة شديدة، كل ما كان بحاجة إليه كلاوديو، المزيد من الوقت
حتى يتمكنوا من الوصول إليه، لقد بدأ صبرك فى النفاذ، لا بد
من إثارة فضولك لأطول وقت ممكن قبل أن تقدم على أى حماقة

- عاصم!

- عاصم من؟

- عاصم زيدان صديقك؟

عاجلتك صور ومضت في رأسك بسرعة البرق تخصص عاصم، ذلك الوجه الذى كدت أن تنساه، الشاب الذى طالما سعى دائماً إلى التقرب منك، القناص الذى لم يخطئ مرة واحدة، الشخص الوحيد الذى يمكنك أن تمنحه صفة صديق بالفعل.

- ما له؟ وما صلتك به؟ وكيف عرفت اسمه؟

- صلة وطيدة بالطبع لا تقل عن صلتى بك قبل أن تُجن

وتريد قتلى

- ماذا؟

- إنه واحد من أفراد المنظمة، يعمل لحسابها ويصطاد أهدافها مثلك تماماً، بارعون أنتم حقاً أيها المصريون

- كيف أقنعتموه بالانضمام لكم؟

- لكل منا كعب أخيل، نقطة الضعف التى لا نستطيع معها

المقاومة

- أين هو الآن؟

- إنه على سطح هذه الجزيرة، عقب خروجى من هنا يمكننى إبلاغك باسمها ومكانها وكيف تصل إليها، ولا يزال عرضى ساريًا، أخرجنى من هنا يحيى، واختف كما شئت، سأخبر المنظمة بموتك، لا تهدر وقتًا ليس فى صالحك

لم تفهم ما يعنيه ولتتك فهمت، لقد شئت تركيزك تلك المعلومة التى حصلت عليها بشأن عاصم، أنت بحاجة للتركيز،

بحاجة للتفكير، هل تصدقه بشأن عاصم؟ ماذا لو كان يخذعك من جديد؟ ماذا لو كانت هذه خطتهم في الحالات المماثلة؟ يجب ألا يراك متردداً هكذا، تصعد الدرج لتغادر القبو، لدقائق من التفكير قبل اتخاذ قرار نهائى سريع بشأن هذا المنزل وما يحتويه من أوغاد، وبمجرد خروجك من القبو وإغلاق الباب، يهبط على رأسك أخمص بندقية يعقبها ضربات متتالية على جسدك من أيادٍ متحفزة مصممة حتى تسقط فاقدًا الوعي.

يتم تحرير كلاوديو، يأمر بتفتيش المنزل وجلب كل ما يحتويه من أوراق، يحملونك أنت وسالم معهم، كان كلاوديو يعلم أن حسام لا يزال موجوداً هنا داخل المنزل، يبحث عنه، يصعدون إلى غرفة موصدة بالمفتاح، يكسرون الباب، لا يجدون أثراً له، فقط سلسلة معدنية طويلة وشبابيك موصدة بإحكام مسدودة تمامًا من الداخل ومساحة ضيقة جدًا شبه مربعة لا تتجاوز مترين، على أحد جدرانها قطع من زجاج مهشم يتوسطها شباك صغير الحجم ولكنه يكفى لمرور إنسان، يقود هذا الشباك إلى الحديقة الخارجية إذا ما استطعت القفز ومنها إلى الشارع، بالطبع لم يفهموا أن المرأة كانت تغطى الشباك بالكامل ووراءها وُضع أداة لفك القيد، كان حسام بحاجة لتفسير جملة أخيرة سمعها منك يا يحيى هي «خلاصك في مساحة بالغة الضيق» وكان لديه كل الوقت ليفهم، لقد هرب من الحمام الضيق بعد أن كسر مرآته ليجد مفتاح القيد ووراءها. لقد حل لغز الأحجية وهرب حسام عبر المنفذ الملغز بينما وقعت أنت في حفرة حفرتها بيديك.



«أيها الغريب إلى أين أنت ذاهب؟
أمامك ظلمة، ووراءك خوف، وفي داخلك قفص!»
أبو حيان التوحيدي

(٢٧)

روبرتو روسي^٣

(2014 - 2013)

في اليوم التالي غادرت الجزيرة، لم أحتمل البقاء وسط هؤلآء، في طريق العودة أصابتنى وعكة صحية دامت أيامًا وأسايبعًا حتى تجاوزت مرحلة الخطر، دخلت خلالها إلى واحد من المراكز الطبية الشهيرة لعلاج الجلطات بإنجلترا، كنت تحت ملاحظة دائمة، تم اكتشافها مبكرًا وتم التعامل والسيطرة عليها مع وضع قواعد صارمة بالابتعاد عن التوترات النفسية والضعوط العصبية، طوال فترة علاجى كان ماركو دائمًا بجوارى، يطمئن علىّ ويبلغنى تحيات تونى الذى لم يزرنى سوى مرة واحدة لم تتجاوز دقائق، بعد شهر سمح لى الأطباء بالخروج مع الحرص على اتباع التعليمات، طلبت من ماركو العودة إلى إيطاليا وزيارة مؤسستى الخيرية، فطالبنى بالابتعاد عن العمل وضغوطه «تونى يتولى كل شىء، والأمر يسير كما ترغب دومًا» قالها ماركو بلطف.

أعلم ماركو، أنا فقط اشتقت لرؤية صديق قديم، مر
زمن طويل على آخر مرة التقيته بها، أريد مقابلة لويجي، ألا
يمكننى ذلك؟

- بالطبع عمى، ولكنه لم يعد يعمل بالمؤسسة، لقد ساءت
حالته مؤخراً وصار أسير المنزل يجلس وسط أحفاده.

تأثرت جراء ذلك ولكن يد الزمن لا تغفل أحداً، ولكنى
أصريت على زيارته في منزله، رتب لى ماركو لقاءً معه في منزله
بروما، وصلت إليه بسيارتى بصحبة حارسى الخاص، طلبت
منه انتظارى بالسيارة، فُتح لى الباب، استقبلتنى ابتته بابتسامة
بشوشة هادئة، دعتنى للدخول، أمسكت يدى لمساعدتى كى لا
تتعثر خطواتى البطيئة، منزل واسع أنيق مرتب بعناية، لمسات
أنثوية رقيقة موجودة بين أثاثاته وديكوراته، أطفال فى أعمار
مختلفة يتطلعون بعيون فضولية لهذا الزائر العجوز، وصلنا إلى
غرفة لا تقل أناقة أو اتساعاً، تغمرها إضاءة ساطعة، ورجل
يجلس على مقعد متحرك، بمجرد دخولنا، استدار صائحاً
بصوت ضاحك عالٍ:

«رويرتو روسى، صديقى العزيز، افتقدتك كثيراً، ظننت
أنى لن أراك قبل موتى»

«لذا، جئت أراك، لأودعك صديقى العجوز لويجي»

برغم اندهاشى من جلوسه على مقعد متحرك، لكنه لا
يزال محتفظاً بروحه المرحة، ولم يكن من المقبول مقابلته بعبوث،

لا يتردد لويجي في قبول المزاح كما لا يتوقف عن إلقاء النكات،
لذا لم يصدمني حين رد عليّ بضحكة مجلجلة

« يبدو أنك قد تخلصت من الجميع بالخارج، وبحثت في
ذاكرتك، ما هذا الملل؟ من يمكننا قتله الآن؟ هناك عجزاً
أعرفه يدعى لويجي، لما لا نتخلص منه لقد أبقيناه طويلاً؟»
صحيح أنه قالها مازحاً وأنا معتاد منه على هذا المزاح،
لكن يبدو أنى بصدد معرفة انطباع جديد عنى من صديق
حميم، لذا حولت المزاح إلى الجدية « هل هكذا ترانى لويجي؟
هل ترانى قاتلاً؟» لاحظ انزعاجى فهدأت نبرته قائلاً «دوماً
كنت أتساءل، إلى أى درجة يجب روبرتو مشهد الدماء، وكانت
في كل مرة تأتيني إجابتك في تصرفاتك، لقد قتلت ماتيو
وزوجتك، وأنشأت مؤسسة كاملة لسفك الدماء، ولم تكتفِ
بهذا بل اشتريت جزيرة أو حتى جزءاً منها وأقمت ساحة
قتال لتجلس بالأعلى كإمبراطور رومانى يشاهد الدماء، لم
تتوقف يوماً عن إراققتها روبرتو، أى سادية تلك التى تتمتع
بها لتقتل كل من لا يروق لك؟ حتى زوجة أبيك قتلتها وأنت
طفل»

صعد الدم إلى رأسى مع جملته الأخيرة كيف علم ذلك؟
إنه يعلم أمر خيانة زوجتى وما تقوم به مؤسساتى، لكن هذا
الحادث البعيد كيف؟ وحين لاحظ اندهاشى غمغم موضحاً
«اليساندروروى لى ذلك، كان صديقاً حقيقياً لم يخف عنى شيئاً
أبداً، كان يجبك بصدق روبرتو ولكنه كان قلقاً عليك، يرى

أنك تميل للعنف في حل مشاكلك الخاصة، لماذا لم تفر مع أخيك دون قتل زوجة أبيك؟ لماذا لم تطلق زوجتك وتطرد ماتيو بدلاً من قتلها؟ لماذا لم تكتفِ بمؤسسة الأيادى البيضاء بدلاً من تشكيل فرق موت تقدمه طواعية للعديدين؟»

ومضت أفكار عديدة برأسى بكلماته التى زلزلتنى لتعطينى جانباً جديداً من شخصية أليساندرو ونظرته إلى أخيه الكبير، هل كان يرانى عنيفاً محباً للدماء؟ طردت هذه الفكرة قبل أن تسيطر عليّ وأجبتة.

«جميعهم يستحق الموت، والحياة صارت بدونهم أفضل»

«حياتك أنت فقط التى صارت أفضل روبرتو، كان يمكنك تركهم لحالمهم، ولكنك آثرت تحقيق رغباتك، وصار لديك مؤسسة خاصة بالقتل، وأرض تقام عليها معارك، لقد استدعيت التاريخ أيضاً، وأنشأت مدرجاً دعوت له العالم ليتمتع معك بمشاهد الدماء، صار لديك جيش من المرتزقة، يتسلمون قوائم ينبغى قتلها لحساب سادة العالم من الأوغاد الأثرياء»

«ما هذا الخرف لويجى؟ رجالى ليسوا مرتزقة ولا أحد على قائمتنا إلا من يتبين لنا جرمه واستحقاقه للموت، لا نقتل لحساب أحد»

«عار عليك روبرتو أن تكذب وأنت فى هذا السن، لقد كانت الأمور تتم أمام عينى، والاتفاقات تعقد تحت سمعى وبصرى قبل أن أتقاعد، عمليات اغتيال وقتل وخطف لصالح

أفراد ودول مختلفة نظير حماية مؤسستك أنت ورجالك، بل إن بعض الحكومات تمنحك المجرمين الغير راغبين في إقائهم على قيد الحياة لتتخلصوا منهم بمعرفتكم، وفي الأغلب انتهى بهم الحال على جزيرتك»

تسارعت دقات قلبى وعلت نبضاتها، ازداد لهاثى وانتفخت أوداجى، لم أخف من الموت عمري، ولكنى خفت أن أموت الآن وأنا أسمع هذه الترهات من لويجى، الذى يبدو أن الهلاوس لعبت برأسه العجوز وجعلته يخلق أوهامًا جعلها حقائقًا بل وصدقها ليلقيها على مسامعى، خرجت من عنده وأنا أكاد أجن من فرط شناعة ادعاءاته، لم أكّد طوال عمري لتعمل مؤسساتى لصالح مجرمين وتخدم أغراضهم بل وأرفه عنهم بتقديم عروض قتالية حقيقية، لو صح كلامه فأنا المغفل الأعظم على سطح هذا الكوكب، أنا الذى سخر ماله لتحقيق أهداف أعدائه، أنا من وهب أعماله لخدمة من ظلمت طوال عمري احتقرهم من كل قلبى وألعنهم ليل نهار، لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا، لو سألت ماركو أو تونى سينكران، وربما يدهشانى بمبرراتها الحمقاء، ينبغى أن أتقصى من كلام لويجى، بعدها يمكننى التفكير فيما عليّ عمله فى المتبقى من العمر.

سحبت أموالاً من حساباتى وتجسست على مؤسساتى ورشوت موظفينى بأموال طائلة لأحصل على حقائق لا تقبل الدحض، لم يكذب لويجى فى أى كلمة تفوه بها، صارت

الأيادي البيضاء همراء بلون الدم تداوى وترعى في العلن وتقتل لصالح عصابات وأفراد في الخفاء، نصف مستهفيها من المجرمين الذين ينبغي محوهم من تاريخ البشر والنصف الآخر قائمة من تصفيات جسدية لأناس ليس لهم ذنب سوى أن لهم أعداء يودون ضمهم لقائمة الأموات، هؤلاء الأعداء ذوو مناصب، ذوو نفوذ، ذوو مال، يدفعون بسخاء مقابل تنفيذ رغباتهم وفي المقابل يتسترون على كل ما تمارسه مؤسستى من أعمال تخالف قوانينهم الوضيعة التى لا تعاقب إلا الضعيف، ليس هذا فحسب بل إن هناك حالات تصل إلى ساحة القتال وتقاتل لا لسبب سوى إرضاء لأعدائهم الذين زجوا بهم ودفعوا مقابل قتلهم على أرض جزيرة بعيدة عن أعين الجميع. إثر هذه الحقائق دخلت في وعكات صحية متتالية ما بين ذبحات صدرية وأمراض قلبية حتى أصبت بورم خبيث فى عام 2014 ليهدد الباقى من عمري بينما يقف الموت يرمقنى من بعيد ملوحًا لي بيديه قائلاً فى سعادة «استعد، لقد حان دورك قريباً»

طلبت من الطبيب إبقاء هذا المرض الأخير سرّاً كى لا أسبب إزعاجاً لأهلى، كان هذا السبب الظاهر، ولكنى فى الحقيقة كنت أحاول اقتناص لحظات عمري الأخيرة واستغلالها على النحو الأمثل، لقد دنا الموت منى بشكل غير مسبوق وعلى أن أستعد للرحيل.

لم يعد ما يدور على سطح هذه الجزيرة سرًا، لقد ذاع صيتها حتى وإن كان على نطاق محدود ولكنه النطاق الذى أخشاه بالتحديد، وصلت إليها الأيادى العابثة، ولكنى لن أدع لهم فرصة استغلال مشروعى لتحقيق مصالح دنيئة وإرضاء لرغبات سادية، مقاليد الأمور لازالت بيدي، أنا الحاكم الوحيد للمدرج وأنا من بيدي رمية الزهر الأخيرة.



ينكسر حتى لو كان ذهباً
يتحطم حتى لو كان حجراً
يتمزق حتى لو كان من ريش النعام
لا أحد هنا يعيش إلى الأبد
وكذلك الأمراء إنما من أجل الموت جاءوا
جميعنا سنذهب إلى منطقة السر
وهل ترانا جئنا إلى الأرض عبثاً؟
فقط نترك على الأرض أمنيائنا

شعر مكسيكي

(٢٨)

يحيى - الجزيرة

(أبريل 2015)

وفى زنزانة ضيقة، فى قفص حديدى، برواقٍ ممتد على سطح جزيرة بعيدة تجلس يا يحيى غير مصدق بأن النهاية جاءت أخيراً، هنا سيتهى الألم ويفنى العذاب، «يظنون أنهم أخذونى إلى الجحيم غير عالمين أنى كنت وما زلت هناك، لا مفر منه إلا بالموت» هكذا كنت تقول لنفسك ممنيًا نفسك بموت قريب، أرض تجمع بين الأخضر والأصفر وسط زرقاة المحيط وزئير أمواجه، يا للروعة التى تمنع على البشر واختارت أبعد مكان، ودعت الحياة فى أوروبا بسماؤها الشتوية الثقيلة المتكتلة بالغيوم الرمادية الماطرة العاصفة وانتقلت للموت على جزيرة سماؤها زرقاء صافية ترهق الحواس من روعتها، هكذا رأيت الجزيرة وهم يقتادونك إليها، جميلة هى وأجمل لأنها ستشهد موتك، لن تغضب ولن تشور، وهل يغضب المرء من أمرٍ قضى أعوامًا بحثًا عنه؟ ستكون أسعد مقتول على وجه الأرض وعلى جزيرة لم يتح إلا لعدد قليل جدًا من البشر رؤيتها، أى نهاية أسعد من ذلك؟!

ولكن تذكر أنك ستواجه خصمًا في ساحة قتال ليس له همًا سوى قتلك، فقط كانت لديك مشكلة وحيدة، ماذا لو كان هذا الخصم ضعيفًا أو أوهن من أن يقتلك؟ ماذا لو لم يقوَ على صرّك، لو سقط أمامك؟ فلتمنحك الأقدار هدية أخيرة رجلًا يقاتلك بشجاعة ويصرّك عن جدارة، جميل الموت وعسير الاستسلام، لم تعتاده أبدًا، يصيبك اليأس أحيانًا، تتحلّى بالإحباط قليلًا، لكنك لم تستسلم أبدًا فلتقاتل حتى الموت إذن.

قبل أن تنتقل من فرنسا إلى الجزيرة، سألت كلاوديو «حقًا هل عاصم انضم للمنظمة أم أنك كنت تتلاعب بي؟» في البداية رفض أن يجيبك ولكنك ضغطت عليه «هيا كلاوديو، أنت تعلم أنى ميت وهذا لقاءنا الأخير، ليس من الشهامة ألا تجيب مجرد سؤال لرجل على وشك الموت»

«لم أهدعك، عاصم انضم للمنظمة بعدك، ولكن قوانين المنظمة بألا يعرف أبناء نفس البلد بانتمائهم للعمل معنا، لقد كان لديك في كل عملية مساعدين من جنسيات مختلفة، نحن لا نكون فرق وطنية»

«ولماذا أرسل إلى الجزيرة؟ وهل ما زال حيًّا؟»

«خطأ لا يغتفر أرسله إلى هناك، لا أظنه ما زال حيًّا، لا أحد يبقى هناك حيًّا طويلًا، هناك تلتقى أعنى المجرمين شراسة وأكثرهم ضراوة، إن نجوت مرة، فلن تنجو الثانية، وإن نجوت الثانية بكثير من الحظ، فلن تنجو الثالثة إلا بمعجزة»

حسنًا رسالة ليست ذات جدوى وصلتك في أيامك الأخيرة لتعيد إليك ذكرى إنسان كان يوليك اهتمامًا حقيقيًا، وخبرًا مؤسفًا

يمنحك دافعًا جديدًا للموت، لا بد وأنه كانت له أسبابه مثلها كانت لك أسبابك، ولكن العجيب أنكما ستلتقيان نفس المصير وفي نفس المكان.

وحين وصلت إلى الجزيرة وسكنت واحدة من هذه الزنازين جف ريقك في السؤال عن عاصم دون إجابة أو حتى تلميح.

روبيرتوروسى

قُتل ماركو، كان الأمل الأخير لى وقد تلاشى، صرت الآن واقفًا وحدى فى مواجهة تونى الطامح لاعتلاء عرش لم يينَ لمثل طموحاته، يهدد كل ما عملت من أجله، كنت أنوى نقل ملكية أغلب ممتلكاتى لماركو، كان لدى يقين أنه سيحسن استخدامها بعيدًا عن تونى وعناده وأفكاره، ولكن بموته تحطمت معنوياتى أكثر، بموته لم يعد لدى أى حظوظ فى موت دون عناء، كنت أنوى أن أزيح عن كاهلى كل ما يتتابنى من خوف على مجريات الأمور وخاصة تلك التى تخص «الأيادى البيضاء» أو «المدرج» كلاهما بحاجة لحكمة، ليست موجودة لدى تونى الذى لا يتورع عن فعل أى شىء مهما بدا غير منطقي أو مناقضًا للغاية التى تشدها المؤسسة.

لقد كنت دائمًا وأبدًا دائم الاعتماد على نفسى وحدها، ويجدر بى الاستمرار فى ذلك حتى النفس الأخير، قبل أن أذهب إلى الموت، منطقة السر التى ستبوح بكل ما خفى علينا من ألغاز، لقد اقتربت من الثمانين عامًا، يفصلنى عنها أيام قليلة، لن يمهلنى العمر أكثر من ذلك لأجنب يدى تلوينها بالدماء، سقط تونى فى المستنقع وعلى إخراجهِ، قبل أن يجذبنى معه، لقد عشت عمري

بأكمله أعمل على ردمه ولن أنتظر حتى تغوص قدمي في الوحل على يد شاب طائش ما يهيمه هو الزهو والنفوذ، لطالما احترت هؤلاء فلن أصنع أحدهم بمالي ولن أتركه يرتع في أرضي، إنها فرصتي الأخيرة قبل مغادرة هذا العالم، كم هو مؤسف أن تسابق المرض في النهايات مع أنك كنت دائماً نداءً محارباً، وقهرته في عديد من المرات، ولكن في ملاعب أخرى حين احتل أجساداً عديدة، أما الآن فقد رفع التحدي وشمر ساعديه وهو يثبت قواعده في جسدك الواهن، عليك التحرك سريعاً قبل أن يسدد قذيفته الأخيرة القاتلة. لا يزال أمامك فرصة، لا يزال هناك وقت، قليل منه بالفعل لكنه قد يكون كافياً لإعادة الأمور لنصابها.

تأخذ سفيتتك وتبحر بصحبة حارسك الشخصي إلى جنوب المحيط الهادىء تطيل التحديق في هذا البحر الأزرق الذى يلامس السماء على مد البصر، وبالقرب من شاطئ الجزيرة تستقل واحدة من القوارب لتعودك إليها، شتان بين أول مرة جئت إلى هنا زائراً وبين هذه المرة، الصحة لم تعد كما كانت ولا الأمانى التى صاحبك أول مرة، جميعهم تلاشى أو فى الطريق إلى ذلك وهناك فم يتسم وهو يراقبك «اسرع، المتبقى قليل!» يالها من وسيلة فريدة للاستمتاع.

وصلت إلى الجزيرة، لا زالت بديعة برغم ما ارتكب على سطحها من جرائم أنا سببها، أنا من لوثت تراب هذه الأرض بدماء لم تستحق ما لاقت من قسوة فى مدرجى، لن أخلى مسئوليتى لمجرد أنى لم أمر مباشرة بجلبهم أو إلقاءهم فى ساحة القتال، أنا من أوكلت العمل لغير ذى ثقة أو بالأحرى لغير ذى

وعى كافٍ بالأهداف التى صمم من أجلها الكولوسيوم الجديد، لم يكن الغرض منه أبداً مجرد انتزاع أرواح أو لعب دور أحد قادة روما القديمة والتلذذ بتعذيب الأعداء وإلقاءهم لحيوانات جائعة أو حتى لمجرمين يريقون دماء بعضهم البعض، بل كان الدافع الرئيس وراء بنائه أن يذوق المجرم وحشية جرمه، ولكن أنا الآن من يذوق عواقب سوء تخطيطه، الندم فى عمرى مسمار أخير فى نعشى، عليّ أن أنزعه وسأنام بعدها مرتاحاً داخل تابوت.

قابلت أندرو الذى يحسن معاملتى، كم تمنيت لو كان لى ولد مثله بنفس هذا النقاء، وهذا مستحيل الحدوث إلا لو نشأ على نفس الأرض ذات نفس البعد عن كل شرور البشر، نعم نحن بحاجة لأرض جديدة، بخلق جديد لم يعرفوا الكذب، لم يجربوا القسوة، لم يذوقوا الخيانة، بالطبع سأعادر دون أن يتحقق حرف مما أنشده، علمت من أندرو زيادة أعداد جولات القتال وزيادة أعداد الزائرين، وكانت المفاجأة حين علمت ببناء تونى لنزل صغير جذاب صالح لإقامة عدد غير قليل من الأفراد، خدمة فندقية ممتازة لزوار المدرج الذين جلبهم تونى لعالمى، بالطبع كان ذلك فى مقابل خدمات إضافية لأهل الجزيرة القنوعين، ليس ذلك فحسب بل أضاف خطط مضادة يضعها تونى تنسف مخططى نحو عالم عادل، طلبت لقاء بيكوى، لم ألتقيه منذ فترة، وصلت إلى منزله مازال بسيطاً وأنيقاً كما كان، حتى بيكوى نفسه لم يتغير كثيراً غير أن تجاعيد أكثر اتخذت مكانها فى وجهه وامتد الشيب لشعر حاجبيه وضافت عيناه أكثر وازداد السواد حولها قليلاً وظهرت بعض البثور على يده وأنا أصفحه، بالطبع حجج ما طرأ عليه من تغيير لا يقارن بما وصلت أنا نفسى إليه.

- كيف حالك صديقي الطيب؟

- بخير مستر روبيرتو.. قالها بود وابتسامه مهذبة تغلف كلماته

- كما ترى لم تعد الصحة كما كانت، لم يتبقَ لي الكثير فوق هذه الأرض، أردت أن أشكرك على كل ما قدمته لي

- أنت تبالغ بعض الشيء مستر روبيرتو، أراك في خير حال كما عهدتك

- هدوء الريح مؤقت ولا يعنى عدم وجود عاصفة، في الحقيقة كنت دائماً حريصاً على أمن وإسعاد أهل هذه الجزيرة، في حياتي الطويلة لم أقابل بشراً بنصف طيبتهم.

- أنت جميل مستر روبيرتو لذلك ترانا كذلك.

- أنا أعنى ما قاتته بالحرف صديقي، رجل طاف البلاد شرقاً وغرباً وعاش ثمانية عقود لن يكذب ولن يجامل لأى سبب، ومن هذا المنطلق لي رجاء في لقاءى الأخير بك

- ليس أخيراً بالتأكيد مستر روبيرتو.

- بل أخير يا صديقي، لن أخدع نفسي، لم أتخيل أبداً أن أبلغ الستين من العمر والقدر زادنى عشريناً عليها، يكفينى ما رأيت من ضجر، لست حمل المزيد، بالطبع وصل إليك مقدار ما بلغ العالم من سواد، حاولت بشتى الطرق وبكل ما أملك تطهير ما استطعت مما دنسه الآخرون، ولكنى ما زرعت أملاً إلا وجنيته شوگًا، وأمنيتهى الأخيرة أن أعيد إليك أرضك ومعها كل الشكر الذى يمكن تقديمه من ميت لا يُكن إلا كل الحب لكم ولأرضكم.

بدا عليه الصدمة من كلامى، واعتمر القلق بداخله، لذا

بادرته على الفور:

- لا تقلق مستر بيكوى، حتى لو انقضى أجلى الآن فقد كتبت وصيتى بتخصيص جزء من أموالى لصالح الجزيرة وأهلها، كل الخدمات ستقدم لكم كما هى دون مقابل وستعود لكم أرضكم أيضاً، لك مطلق الحرية فى استخدامها كيف تشاء.

- لا أفهم، هل هناك ما أغضبك منا مستر روبيرتو؟

- أبداً، أنتم أفضل من عاشرت، لو كان لى أن أبدأ من جديد، سأستقر هنا، لكن القطار لن يعود وسيتوقف عما قريب.

لم يجد ما يقول، كلماتى أثارت صمتاً حزيناً بداخله

- سيقام خلال أيام يوم أخير للقتال، أرجو أن لا يحضره أحد من أهل الجزيرة، احرص على ذلك مستر بيكوى! عدنى أن يتغيب جميع سكان الجزيرة عن المدرج فى هذا اليوم! ما سيحدث أشع مما يتخيلوه! أقضِ على أى فضول لديهم أو لديك! لا أسئلة، لا إجابات، لا خطأ، وفى اليوم التالى سنغادر الجزيرة وستعود كما كانت قبل أن يزورها هذا المخبول روبيرتو روسى، سنغادر الجزيرة بعدها وسيعود كل شبر فيها بما فى ذلك هذا الفندق الذى بناه تونى لأبنائها.

بتأثر بالغ ونظرات ارتياب استقبل كلماتى دون أن تطرف له عين وطرح السؤال الوحيد المتاح له:

- أعدك مستر روبيرتو، ولكن ماذا بالنسبة لأندرو؟

- لن يُمس بسوء، سيبقى معى وسيعود لك فى هذا اليوم بما يكفيه طوال عمره من المال وما يجعله سيد هذه الأرض.

عدت إلى منزلى القريب من المدرج، لا شىء يشغل تفكيرى

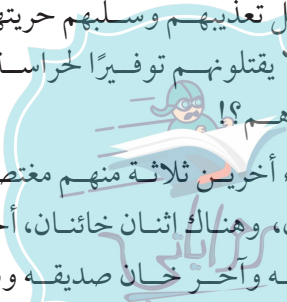
سوى اليوم الأخير للقتال، سيكون يومًا مشهودًا، كم تمنيت لو أهديت البشرية نسخة مصورة مما سيحدث بهذا اليوم لو تمكنت من تسجيل وتصوير كل لحظة في هذا اليوم، فقط أنا بحاجة لمخرج كبير وفريق تصوير محترف لا تفوته شاردة، كل لقطة ستحمل إثارة غير متوقعة، كل مشهد ستتسارع معه الأنفاس، وانتقالاً من مشهد لآخر لن تجد إلا الإثارة راعياً رسمياً لهذا اليوم، وبرغم ما أعدته من مفاجآت لهذا اليوم، فلن يطلع عليها غيرى أنا وزمرة الحاضرين، حتى للملياردير مثلى ليست كل الأمنيات متاحة للتنفيذ، هذه الأمنية ثمنها أعلى من كل أموالى بالتأكيد لا يوجد مخرج أو فريق تصوير سيقبل ما أطلبه منهم ولو سلمتهم أموالى ورقة ورقة، وأسفاه سيضيع هذا اليوم ولن تحفظه ذاكرة واحدة لترويه.

استدعيت أندرو، طلبت منه إحصاء عدد السجناء تحت المدرج وجريمة كل منهم، عليه أن يسمع منهم بنفسه وينقل ما قالوه لمقارنته بما جاء في تقاريرهم هنا، لن أثق بتونى أو رجاله أو باقى الحراس، بعدما اختلط الصالح بالطالح، ينبغى توخى الحذر قبل الإقدام على ما هو مكتوب، لا أريد أبرياء فى المدرج، فقط من بنى من أجلهم المدرج هم من سيشهدون هذا اليوم، وما دون ذلك فلا القفص مطرحة ولا الجزيرة مكانه.

- أريد قائمة بكل السجناء وجريمة كل منهم، تكون بحوزتى غداً، وبعد غد حين يصل تونى سيكون بصحبته عدد آخر، استعداد قائمة أخرى مماثلة، ستسمع منهم بنفسك وتطلعنى على الأمر، لا تعتمد على آخرين أندرو.. مفهوم؟

لم يعد لدى غيره، ولا يوجد من هو أفضل منه لأداء تلك المهمة.

في اليوم التالي كانت لدى قائمة تضم عشرين اسمًا من جنسيات مختلفة، عشرة منهم مصاصين دماء، كل منهم أزهق مائة روح على الأقل، إما بالقتل المباشر أو بتجارة في السلاح أو بتعليقات لسفك الدماء أو للتقصير المتعمد المتكرر لمسئولية مباشرة بحق ضعفاء،

ثلاثة من هؤلاء العشرة مجرمين حرب فارين من أحكام بالسجن مدى الحياة، وحقيقة لا أفهم هذا العقاب ماداموا ينوون الاحتفاظ بهم من أجل تعذيبهم وسلبهم حريتهم وكف أذاهم عن الآخرين. فلماذا لا يقتلونهم توفيرًا لحراسة ووقت ومجهود وأموال أولى بها ضحاياهم؟! 

تبقى عشرة سجناء آخرين ثلاثة منهم مغتصبين وهؤلاء كم أهوى مشاهدتهم يتألمون، وهناك اثنان خائنان، أحدهما خان وطنه فتسبب في اقتحام أرضه وآخر خان صديقه وشهد عليه ظلمًا وأودى به إلى السجن ظلمًا ليموت هناك، تبقى خمسة أسماء هؤلاء أحضروا إلى المدرج ظلمًا دون جرم حقيقى ارتكبهوا وإنما جاءوا فقط لأن المنظمة أرادت ذلك تنفيذًا لرغبات أفراد وأجهزة أخرى، بالطبع ليسوا خالين من الذنوب ولكن ليس جميعهم أيضًا يستحق القتل، ولكن في هذه الحالة وجدت أن جميعهم بالفعل لا يستحق القتل، لذا وجهت أندرو بإعداد قارب يغادر الجزيرة ويسلم هؤلاء لواحدة من سفنى، ولكن ذلك لن يحدث قبل وصول تونى، لا أريده أن يشعر باتخاذ أى إجراءات غير معتادة.

.....

قبل اليوم الأخير

في زنزانة ضيقة تجلس يا يحيى على الأرض، ترتدى بنطالاً قماشياً مهترئاً وقميصاً عارى الذراعين بالياً، لم تأبه بمحبسك أو بملبسك، لم يشغل بالك سوى لقاء اقترُب بآسر تبغيه اليوم قبل الغد، ما زال آسر يناديك، ضحكاته تأنس وحدتك وابتسامته تنير ظلمتك، لم تعد ترى وتسمع سواه، صحواً أو نائماً يقول لك في براءة:

- لماذا تأخرت بابا؟ أنا هنا وحدي

- أنا قادم يا آسر

- هيا، تعال لتهرب معي

يمسك بيدك ويشد ذراعيك، تنهض معه في سعادة غير مصدق بأنك تلمسه وتحتضن يدك كفه الصغير، في سلاسة يعبر الجدران ويسحبك لتلحق به، ولكن الجدار يعيقك، تتوقف رغماً عنك، ينظر لك باكيًا راجياً ودمعة تنزل على خده الناعم.

- من جديد ستتركني

تجهش بالبكاء يا يحيى ويختنق صوتك في حلقك، من أين جئت بكل هذه الدموع التي ملأت مقلتيك، يضغط آسر على يدك من جديد متوسلاً

- أنا خائف بابا.. لا تتركني بابا.

- أنا قادم آسر

تحاول المرور ثانية لتصطدم بالجدار، تطرق بيدك عليه، تدق برأسك عليه مرة وثانية وثالثة أشد، ينتحب آسر وهو يتعد بعدما أفلتت يدك من يده وأنت تصرخ

- أنا روبرت توروسى، صاحب الأيدى البيضاء، ومالك هذا المدرج.

يفغر فوهك وأنت ترى الرجل الذى بنى إمبراطورية اقتصادية اجتماعية وقرر معاقبة المجرمين قبل أن يتحول لواحد منهم، سيرته أسطورية، لكنك لم تتخيل أن يكون بهذا الهرم.

- فى البداية أود أن أعتذر لك عن كل ما لاقيته منذ القبض عليك، وحتى وصولك هنا، أنت لم تخطئ فى شىء، والخطأ كان خطأى، لأنى أوكلت عملاً بهذه الأهمية لأشخاص غير جديرين بالثقة، لا أظن أن منظمنا تملك الكثيرين مثلك، لدينا قوات خاصة من جنسيات مختلفة، ولكنك الوحيد الذى رفضت ظلمًا ارتكبه المؤسسة التى لم يكن لها هدف سوى محاربة الظلم، هذا المدرج بنيت لأجل أن يعيش أمثالك ذوو الضمير اليقظ فى أمان، لأن المجرمين هنا سيلقون سوء المصير وكان طموحى فى يوم ما أن يعرف الجميع عاقبة إثمهم، ولكن يبدو أن ذلك أصعب مما ظننت، أمامك يقف الآن شمعة مُطفأة، رجل يشعر بالعار لأن حلمه صار كابوسًا، أى اعتذار بالطبع غير كافٍ، وإلا نفعت المجرمين الآخرين توسلاتهم، ما يدفعنى لقول ذلك إدراكى بأن أمثالك نادرون، لدرجة أنك قد تعيش عمرًا بأكمله دون أن تقابل أحدهم، غدًا فى جناح الليل سيتم تحريك من هذا السجن، وستغادر هذا المبنى بغير رجعة، هناك قارب سيأخذك إليه أندرو أنت وآخرين، هذا القارب سيصل بك إلى سفينة عملاقة تأخذكم جميعًا فى رحلة طويلة لطيفة إلى إيطاليا،

تفضل هذا الشيك، ستحصل بمقتضاه على تعويض بسيط
(مليون يورو) تبدأ بهم من جديد بعيداً عن المؤسسة في أي
مكان تختاره، اغفر لي ليلتك الأخيرة القادمة هنا، أرجو أن
تقضيها في وضع فكرة مشروع ناجح ينسبك لياليك الأخيرة
على الجزيرة.

ثم أشار بإصبعه للفتى الواقف بجواره ليفتح الباب، ثم
ودعك بابتسامة ورحل.



«لم يعد هناك وقت للخوف في عز وقت الخطر، أتم يا من تخافون،
انتهى وقت الخوف وأتم يا من تأمنون جاء وقت الملح.»

(٢٩)

- انصت أندرو جيداً.. غداً سيأتى تونى، ستُعد لنا العشاء بنفسك، تضع قرصين من تلك الأقراص فى كوب العصير خاصته، ولتتأكد من تناوله لها، إن لم يشرها تضع غيرها فى كوب الشاي؟، حتى لو اضطررت لأن تذيها له فى كوب الماء، المهم أن يتناولها - مرحباً عمى، كيف حالك؟ يسعدنى رؤيتك هنا من جديد.
- أهلاً تونى، عمك بخير.
- لسبب لا أعلمه أشعر بأن خير أوقاتك تقضيها هنا، فقط على الجزيرة أراك مبتهجاً فخوراً مقبلاً على الحياة.
- شعله ذكاء متقدمة أنت تونى، لم تخيب ظنى يوماً،
- ابتسم تونى لهذا الإطراء من عمه الذى بادله الابتسامة
- هل اطمأنتت على ضيوفك؟
- أجل، جميعهم بخير حال.
- من هم يا تونى، هل منهم أصدقاء لك؟
- إطلائاً، إنهم من يحمون منظمنا ويحفظون أسرارها
- ومن ننفذ لهم بعض الجرائم فى مقابل أن يتركونا وشأننا،

لكنهم لم يكتفوا بذلك بل يأتون ليتلذذوا لا بالعدل بل بالقتل، لو كان العدل يهتم ذرة ما حرصونا على القتل.. هذا ما أدركه روبيرتوروسى.

طلب من تونى أن يبدل ملبسه لتناول العشاء فالغد يوم حافل، لحسن حظ أندرو كانت شهيته مفتوحة للطعام جراء السفر، شرب العصير وتناقلت رأسه واستأذن عمه وصعد لغرفة نومه طلباً للراحة تاركاً الفرصة لأندرو، لينفذ الباقي من الخطة. وتحت ضوء القمر ذهب أندرو إلى المدرج، كانت له السلطة المطلقة في التعامل مع كافة الأمور، لا حارس يوقفه ولا مفتاح ليس معه نسخة منه، بل هو من يعطى الأوامر لباقي الحراس، نظراً لثقة كل من روبيرتو وتونى به، اتجه إلى خمسة أفراد في خمسة زنازين مختلفة، كانوا يحسبون الدقائق والساعات في انتظار قدومه باستثناء واحداً هاله الذهول منذ لقائه بالأمس مع العجوز روبيرتوروسى اسمه يحى اشتاق للموت بنفس شوق الآخرين للحياة الذين يتفضون أملاً للهروب من تحت المقصلة، ماذا لو أخرجوك من قيرك بعد دفنك؟ دور إضافي جديد في لعبة اسمها الحياة نادراً ما تمنح مثل هذه الفرص.

غادروا المدرج دون أن يستوقفهم أحد، وساروا بمحاذاة الشاطئ خمسة وأندرو سادسهم حتى وصلوا إلى مجموعة من القوارب يعتليها بعض الصيادين، حيوا أندرو الذى توقف بصحبة الرجال:

- انتظرونى هنا، سأعود بعد ساعة ومعى آخرين، وسيصطحبكم هذا القارب فى الصباح إلى عرض المحيط

هنا نطق أحدهم :

- هل لى من سؤال؟

- ما هو؟

- هل هناك داخل الأقفاص من يُدعى عاصم؟

- نعم، ما علاقتك به.

- إنه مصرى مثلى.

لم يكثرث أندرو لجنسية يومًا ما، البشر أصلهم واحد وهم إما جيدون وإما سيئون وهؤلاء يستحقون تواجدهم فى ساحة القتال، لذا بدت له كلمة (مصرى) غير ذات معنى، فلم يعلق، ليسأل يحيى من جديد فى قلق:

- لماذا لم يخرج مثلنا؟ أنا واثق أنه تعرض لظلم.

- وكيف يخرج وقد قتل ابن شقيق مستر روبيرتو

لماذا فعل عاصم ذلك؟ هل علم بانحراف المنظمة فقرّر الانتقام؟ أم أنهم سببوا له أذى فقرّر معاقبتهم؟ يثق يحيى بأن لدى عاصم أسبابه التى بالتأكيد لن تقنع العجوز، عاصم فى ورطة، عاصم يعلم أن يحيى ميت، هل يستطيع يحيى العودة للمدرج وإنقاذ عاصم وإنقاذ نفسه إن فاته هذا القارب؟ كيف سيقتم المدرج وسط هذه الحراسة؟ بل وكيف سيخرج من المدرج وكيف سيفر من الجزيرة؟ الأسئلة تداهمه والوقت أيضًا ولا حيلة له سوى اتخاذ قرار وتحمل تبعاته.

.....
بعد ساعة عاد أندرو مع مجموعة جديدة ممن لا تستحق

التواجد على سطح الجزيرة، مع حلول بواكير الصباح ستقلهم السفينة كيفما اتفق مازال يحيى بينهم، لم يتخذ قراراً بعد، على أية حال تركهم أندرو مع القارب وصاحبه، كانت تلك لحظة فريدة للجميع، المنقذين وأندرو، لحظة تستعيد فيها الروح الحياة من خلال هواء منعش يسرى في الأوصال والآمال.

استعاد الصباح وعيه معلنا قدوم يوم السادس من أبريل الذي جاء مشمساً جميلاً هواؤه لطيف على سطح الجزيرة.

بعد تناول الضيوف لإفطارهم، عادوا إلى الفندق البسيط في انتظار تونى، ليصحبهم لساحة القتال، حتماً سيشهدون إثارة لا مثيل لها.

لكن تونى لم يظهر بعد، تونى نائم على ظهره لن يقوم الآن، أما روبرت وروسى فلم ينم، كان يخشى أن يباغته القدر ويخطفه الموت وهو نائم، ذهب أندرو إليه لتلقى التعليمات الأخيرة، وأبلغه أن القارب غادر محملاً بجميع الناجين، وبعدها توجه إلى مقر إقامة الضيوف ووجه لهم الدعوة لحضور عروض القتال في قلب الكولوسيوم لأنها بصدد البدء، تعالت الهمسات بين الحاضرين، كيف لا يحضر تونى بنفسه لدعوتهم، اندهشوا من الأمر، ولكنهم انصاعوا للدعوة أندرو الذى اصطحبهم إلى المدرج سيراً على الأقدام، وتفرق الجمع أثناء السير إلى أحاديث ثنائية وثلاثية جميعها يدور حول ما هم على موعد مع مشاهدته، الانتقال بالزمن، الرجوع للوراء، التلذذ بالتفرد، هؤلاء فقط من حالفهم الحظ وساعدهم النفوذ الطاغى المتمتعين به لمعرفة وزيارة هذه الجزيرة التى يدور بأرضها ما لا يخطر على بال أحد، هذا ليس فيلماً

مسلياً أو مسلسلاً أسطورياً، أو حتى حلبة مصارعة تنتهى بفوز متصارع، كلا إنها ساحة قتال كتلك التى كانت تقام من قرون فى قلب روما بحضور الأباطرة والفرسان والجنود وطبقات الشعب المختلفة، لذة غامرة تلفهم، كان عددهم يقترب من المائة، تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والستين أغلبهم من الرجال وما يقترب من الربع أو الثلث من النساء، أورييون هم وأمريكيون، لن تراهم على الشاشات، وإنما يدعون غيرهم ليعلنوا قراراتهم التى اتخذت فى الغرف المغلقة ولا تتخدم إلا مصالحهم وتضرب بياقى الأرواح والشعوب عرض الحائط، إنهم صناع القرار، اللوبى المسيطر على العالم الذى تستشعر وجوده ولا تدرى كنهه، يختبئون فى الظل ولا يصل إليهم النور ويغرقون فى النعيم غير مباليين بصرخات ودموع الملايين فلا يخدمون إلا من اتبع أهوائهم وبارك ثرائهم ومصالحهم. وصلوا إلى المدرج بصحبة أندرو الذى فتح لهم البوابات، وسط مشاهدة الحراس الذين اتخذوا مواقعهم فى انتظار التعليمات، وصل الضيوف إلى المقصورة عيونهم تبحث عن تونى الذى اختفى بشكل لا يليق..

كانت الساحة مفتوحة على المدرج فقط يفصلها سور حجرى بسيط، لقد تم سحب السور المعدنى الطويل عقب دقائق بدأت همسات تتردد فى ميكرفون قوى، يبدو أن الساعات تتشرف فى كل مكان، ومن مكان ما دخل رجل عجوز إلى قلب الساحة بخطوات وثيدة وابتسامة عريضة تعلقو وجهه وتضاعف عدد تجاعيده ماسكاً بالميكرفون وقال بصوت عالٍ يستحيل معه الظن بأنه ناجم عن رجل مريض فى الثمانين من عمره:

- سيداتى سادتى، روبرتو روسى يرحب بكم فى الكولوسيوم

الجديد، معكم الملياردير الذى لم تره كاميرات ولم يغيره الظهور من قبل وكان دومًا يعمل فى الظل، ولكنه اليوم احترامًا لكم واحتفالًا بكم يقرر الظهور بينكم فى يوم سأجعله هو الأجل لى والأمثل لكم، وتبجيلًا لكم ستقتصر المشاهدة لكم فقط دونًا عن أهل الجزيرة، هذا العرض أعدده خصيصًا لكم، حفلة دم، لم تشهد لها الساحة مثيلًا من قبل، دماء تستحق أن تُراق هنا أنتم على موعد مع المتعة، الإثارة، الجنون، لا خدع، لا حيل، أنصتوا جيدًا وركزوا أبصاركم فكل ما سيدور أمامكم محض حقيقة، سأخذكم معى فى رحلة عبر الزمان والمكان، سنسافر ونحن جلوس ونحلق بعيدًا عن العيون، مرة أخرى وليست أخيرة أرحب بكم والآن سنبدأ فقراتنا ثم انحنى بحركة مسرحية مودعًا لهم حيوه بالتصفيق وصيحات الإعجاب تتعالى بعد خطبته القصيرة، وحين أولاهم ظهره لعنهم فى سره وبصق بصقة أوردتها كل حقه تجاههم، وما إن خرج برزت أشواك حديدية من الأرض على أطراف الساحة البيضاء الرملية تتصاعد ببطء على شكل أسهم متجهة لأعلى لتشكل عائقًا بين الساحة والمدرج.

فُتحت البوابة ثم برزت عربة على شكل صندوق حديدى من وراء المبنى المقابل للكولوسيوم يدفعها أربعة من الحراس مدججين بأسلحة نارية، بالكاد تجاوزت بوابة الساحة الجدارية ثم الحديدية، بينما كانت العيون معلقة على أربعة من المجرمين كل منهم يمسك بناحية من النواحي الأربع فى القفص، وينظر فى قلق للحضور، وحين استقرت العربة فى قلب الساحة، فتح الحراس بابها ليخرج منها المجرمون، أربعة متباينون فى الشكل واللون، أحدهم أسمر طويل حليق الرأس مفتول العضلات يبدو أنه من أصول أفريقية،

و اثنان آخران أوروبيان أو أمريكيان متوسطى الطول ورابع شرق
أسيوى قصير القامة ناعم الشعر لكنه منكوش كما هو واضح،
كانوا عراة الصدر جميعاً يرتدون سراويل مهترئة، سُحبت العربة
للخارج وخرج معها الحراس وأغلقوا البوابة الحديدية للساحة،
بينما وقف الأربعة غير واعين ما المطلوب منهم يتبادلون النظرات
فيما بينهم وبين الجمهور، هنا جاء صوت روبيرتو عبر الميكروفون
دون صورته:

- والآن جمهورى العزيز مع أولى جولاتنا القتالية، هؤلاء الأربعة
كل منهم ضحاياه أكثر من أن تُحصى أو تُعد وكل منهم عليه أن يختار
أيواصل القتل أم يصير ضحية لأحدهم؟ كل ما هو مطلوب من
كل منهم اليوم أن يقتل الثلاثة الآخرين، هذه هى تذكرة عبوره
من هذه الجولة، جولة رباعية، فرد واحد فقط من سيخرج منها
حيّاً، يعلو تشجيع الجمهور بينما ينظر الأربعة لبعضهم البعض
وعلى الفور يبدأ القتال، أوروبى يقاتل أسيوى وأفريقى يقاتل
الأخير، كان واضحاً تفوق هذا الأفريقى على جميعهم فى البنية
والطول، كال ضربات لغريمه بينما الآخران يتقاتلان ضرباً وكل
منهم يبرح الثانى ركلاً، ولكنهما توقفاً حين لاحظا تفوق الأفريقى
الواضح على الأوروبى، توقفاً عن قتال بعضهما البعض، واتجها
إلى الأفريقى، أحدهما أمسكه من الخلف من رقبته والآخر واجهه
متلقياً ضربات عدة، الثلاثة يصرخون وأصوات اللكمات تشى
بقوتها، بينما الرابع ملقى فى أحد الجوانب يحاول النهوض، الأفريقى
أقوى لكن تشتت ضرباته بين الاثنين حتى تمكنا منه، أحدهما
تعلق به والآخر جذبته من قدمه ليسقطه على الأرض، ثم أجهزا
عليه ولف أحدهم ذراعه حول رقبته وأحكم خنقه حتى تركه

جثة هامدة بينما الرابع يأتي من خلفها ليمسك برأس الأسويى
ويطيح به بعيداً ثم ينقض عليه ويوسعه ضرباً، سرعان ما شاركه
الأشقر الآخر ضربه لهذا الأسويى حتى سالت دماؤه من أنحاء
متفرقة في جسده وبات كالعجينة في أيديهما، ليمسك أحدهما بفروة
رأسه ويجره جرّاً نحو قضبان السور الحديدى ليصدم وجهه بها في
قوة والجمهير تصرخ مع كل ضربة وقد بدت في غاية الاستمتاع،
لم يتبق سوى اثنان وقد نال منهم التعب ولكن كل منهم يسعى
للفوز لينجو، كانت المهمة أسهل الآن لكليهما، طالت مواجعتهما
بعض الشىء حتى تمكن أحدهم من سحق الآخر، وسط حماس
رجال وصيحات نساء تتظاهر بالتأثر، اقتاد الحراس الفائز
للخارج، لتعود العربة ومعها أربعة آخرون في جولة جديدة، بينما
تبقى ثلاث جثث متروكة داخل الحلبة دون سبب واضح، ولكن
قبل فتح باب العربة يأتى صوت روبرتو من جديد:

- هل رأيتم كيف اتحدوا ليتخلصوا من الهدف الأصعب،
هكذا دوماً يفعلون، بارعون مبهرين في الشر، ولكننا الآن لدينا
أربعة آخرون، متساوون، لنرى ماذا سيفعلون ليخرج أحدهم حياً.
ولكن قبل أن تبدأ المعركة من جديد، صنع الحراس سياجاً
دائرياً معدنيّاً حول اثنين من المتصارعين يتخلله ثلاثة طبقات
سميكة من حشائش صفراء قطره عشرة أمتار داخل الساحة
وارتفاعها يبلغ مترين، ثم أشعلوا النار في هذه الحشائش إيذاناً
ببدء القتال بين اثنين داخل الساج واثنين خارجه، ستقاتل لتتهدم
الآخر وتقتله أو تلتهم النيران أحدهم إن اقتربت من الداخل
أو الخارج، بدأ العراك وسط أجواء الجنون، ولكن بينما القتال
على أشده، كان هناك من يتقافز خارج المبنى تماماً، يتوارى خلف

الصخور والجدران، يبحث عن ثغرة ليدخل بها إلى المبنى، كان الوحيد الذى يتحرك في هذه المنطقة الخلفية، فأهل الجزيرة امتنعوا عن حضور اللقاء بتعليمات من حاكمهم بيكوى، ما كان لهم أن يعصوها، بينما على حواف المبنى وعلى أبوابه يقف الحراس ملثمين بزيتهم بأسلحتهم، كيف سيدخل وسط هذه الحراسة المكثفة؟ كان هذا السؤال يتأرجح في رأس يحيى الذى لم يحتمل فكرة الرحيل عن الجزيرة مع علمه بوجود عاصم حيًا على أرضها، وكى لا يثير تساؤلات أو شكوك انتظر حتى تحرك القارب بمسافة ليست بقليلة حتى قفز إلى الماء، سابحًا وسط أمواج متلاطمة لا ترحم حتى واصله إلى الجزيرة، ولكن حتى لو دخل ووصل إلى عاصم كيف سيخرجان معًا؟!

لم يتخيل الحضور أن تكون الجولات على هذه الدرجة من الإمتاع غير عالمين بأن روبرتوروسى مازال في جعبته الكثير لإمتاعهم، انتهت الجولة الثانية بفوز أحد المتصارعين من داخل السياج وآخر من خارجه ليلتقيا في قلب الساحة بعد أن خفت النيران عقب التهامها الحشائش، صراع جديد بين اثنين، أحدهما فقط يفوز والآخر سينضم لثلاث جثث أخرى للثلاث السابقين في أرض الساحة، سالت دماء جديدة وعلت آهات المتصارعين من الألم، ليفوز أحدهما بعد معاناة نضحت على شكل جروح في الوجه وآلام في البدن، وسرعان ما عاد للحلبة المتصارع الأول الفائز من اللقاء الرباعى الأول ليقف في مواجهة المتصارع الثانى الفائز من اللقاء الرباعى الثانى، كان كلاهما منهكًا مصدومًا وقد حسب أنه نجا اليوم ولكن عليه من جديد قتل آخر في جولة قد تكفل له الحياة المزيد من الساعات أو الأيام، الموت يرفرف فوقهما، لم

يفصح بعد أيهما ستقبض روحه الآن، التقيا والتحما وسط جثث لقيت حتفها منذ دقائق ولم تغادر الحلبة، كانت الكفتان متساويتان تقريباً، لذا طال القتال وطال استمتاع الحاضرين، تلتطخ وجهيهما بالدماء وتضاعفت الجروح، خارت قواهما، وبدا للعيان أنه ليس بوسعه الآخر قتل منافسه وبمعنى آخر لن يسمح منافس للآخر بقتله، لذا جاءت المساعدة من الخارج، خنجرين حادين ألقيا في نفس التوقيت لقلب الحلبة، ليطير كلا المتصارعين ممسكاً بخنجر، هكذا ستكون النهاية أسرع، عادت إليهما الروح من جديد وبعث الخنجر في يديهما رسالة اطمئنان لقلبيهما ولكن كان ما حدث ليس سوى طعنات لا تقتل جعلت دمائهما تسيل وتلون رمال الساحة بالأحمر، لم يتبق موضعاً دون نرف، ولا جزءاً دون ألم، وحين طال بهم الوقت أكثر، قرر أحدهما رمى الخنجر بأقصى ما يستطيع من قوة ودقة تصويب في صدر الآخر متصوراً نفسه كأحد رماة السهم، ولكن لم يكن سوى أن أصابت كتف منافسه فقط، ليقى كلا الخنجرين بحوزته، واحد بيده والآخر مغروس بكتفه، تبادلوا النظرات للحظة بعدها جرى الأعزل بسرعة ليجهز على الآخر أو يستعيد خنجره، ليقابله خصمه بخنجر في معدته، سألت معها دماؤه، ولم يكتف بذلك، بل أخذ يحرك الخنجر في قسوة يميناً ويساراً داخل جسده، حتى اصطبغ الخنجر ويده وذراعه بالأحمر، المطعون يصرخ من الألم والطاعن يصرخ من الجنون، والصياح يعلو في المدرج استمتعاً واشمئزاً في نفس الآن، دخل الحراس مصطحبين الفائز تاركين الجثث كما هي في قلب الساحة وعلى حوافها وقد اصطبغت باللون الأحمر في أغلب مواضعها. بعدها بدقيقة جاء صوت روبرتو من جديد «الإثارة لم تنته وهناك المزيد،

فقط تهيئوا لما هو قادم» ثم هداً الجميع في لحظة ترقب، وإذ فجأة تنشق أرض الساحة نائرة كثيرة من الرمال والتراب ليصعق الحاضرين من الدهول، كان الصوت شديد والرجرجة مريعة والاهتزازات في السور المعدنى واضحة للعيان، تشبث كل جالس بجاره بعد أن شعر بالفزع، ولكن سرعان ما ظهر من الأرض المنشقة صندوق زجاجى متين أرضيته تبلغ مساحتها ثلاثة أمتار، بينما ارتفاعه متران وسقفه من الزجاج أيضاً، لم يكن الصندوق فارغاً بل يحتوى على أربعة من المجرمين لا يرتدون إلا شورتاً قصيراً يوارى عورتهم، استقر الصندوق في قلب الساحة، وعادت أرضيتها لوضعيتها الأولى، دون أن يلاحظ أحد تجويف دائرى صغير فى أرضية الصندوق الزجاجى، تصفيق حار من جانب الحضور لتلك اللحظة التى أذهلتهم روعتها، وبعضهم يتساءل كيف وصلوا بداخل الصندوق إذا كان مغطاً من جميع الجهات. أربعة من المجرمين داخل صندوق، يتلفتون يميناً ويساراً، منهم من يعتريه الخوف ومنهم من يسيطر عليه الغضب وكان أكثر الغاضبين وجهاً نعرفه لم تكن تلك مواجهته الأولى على أرض الساحة، طال شعره أكثر وصار كأصحاب الكهف ولكننا مازلنا نميز وجهه الأسمر وعيونه الخائفة، إنه عاصم، ثم صوت روبرتو يقول:

- جولة جديدة لأربعة، معهم قليل جداً من الوقت ليخرجوا من هذا الصندوق، إما أحياء أو أموات، هم من سيحددون.

لم يفهم المحتجزون أو الحاضرون معنى القليل من الوقت ولكن حتماً سيفهمون، بعد التصفيق وجد عاصم من يسدد له

لكلمات وضربات واثنان آخرين يفعلان المثل، لم يستعب سريعاً ما هو مطلوب، لذا بوغت بالضرب من وجه تبدو عليه الدراسة وجسد كأنما استعاره من خريت، الضربات متلاحقة على رأسه كادت أن تفقده الوعي، قبل أن يلاحظ الأربعة تسرب ماء بارد إلى الصندوق يلامس أقدامهم، انشغلوا لثوان عن القتال ثم سرعان ما تبذلت الأمور بترجيح كافة من كادا يُهزما وكان عاصم أحدهما، أخذ يضرب بعنف، ومع كل ضربة تزداد ثقته بنفسه ويزداد استرداده لوعيه ولكن منسوب الماء يرتفع حتى وصل إلى ركبتيهم، من أين يأتى هذا الماء؟ القتال لم يعد ذا قيمة مقارنة بهذا الخطر المتنامى، توقف قتالهم، بحثوا عن المصدر الذى تدخل منه الماء إلى الصندوق فكان على أحدهم الغطس في قاع الصندوق وشاهد المياه وهى تندفع من تجويف دائرى عبر خرطوم مياه كبير، كان من المستحيل سده، حتى مع وضع كلتا يديه، بعد دقيقة من الفزع وصل الماء إلى صدورهم، كان الماء مالحاً، هذا الماء قادم من المحيط، أهل الجزيرة لن يفرطوا في مياه الآبار العذبة لأجل هذه اللعبة، ولكن حتى وإن كانت عذبة فلا فارق، صوت تدفق المياه والحالة التى انتابتهم حجبت عنهم صوت العشرات خارج الزجاج وهم في قمة الإثارة، المياه وصلت إلى رقابهم وأوشكت أن تغرقهم، الآن صار بإمكانهم السباحة داخل الصندوق ولكنهم بحاجة إلى الهواء، عيونهم تتسع وهم يشرأبون بأعناقهم في محاولة لالتقاط بعض الأنفاس، ولكن الماء يرتفع وصار يغطى رؤوسهم، يطرقون بأيديهم على الزجاج، يستغيثون بمن يتلذذون برؤيتهم يتعذبون، نظراتهم فزعة، يتحركون هيبستيريا داخل الصندوق الذى أمثلاً عن آخره بالماء، كل منهم يحتفظ بنفسه أخيراً داخل رثته،

بعد أن سد أنفه لأنه لن يستنشق سوى الماء، ولكنك مهما
أغلقت فمك وأنفك، فلن تظل هكذا للأبد، رئتك لن تحتمل،
عاصم الذى لم يخش الموت يستغيث بعيون متسعة، لم يتهياً للموت
غرقاً داخل صندوق ماء، لم يعرف حجم الهلع الذى كان بانتظاره،
حقاً طريقة بشعة للموت، لم تدع له حتى فرصة للمحاولة. بعد
هستيريا انتابت الأربعة رجال اتخذوا وضعية رأسية داخل مكعب
الزجاج وتوقف الأربعة عن الحركة نهائياً وكأنهم أُصيبوا بالشلل
التام، مرت دقيقة واثنان على هذا الحال، نهاية غريبة حقاً يا
عاصم لم تخطر لك ببال.



«من المهم في الحياة أن تختتم الأشياء بطريقة صحيحة، عندها يمكن
التخلي عنها.»

يان مارتل

(٣٠)

لاحت الفرصة ليحيى لينفرد بواحد من الحراس بإحدى البوابات ليوسعه ضرباً ثم سحبه سريعاً بعيداً عن الأنظار التى قد تباغتهم فى أى وقت، وحين تمكن منه وأفقدته الوعي، أخذ سلاحه وملابسه وارتداها ووضع اللثام على وجهه وصارت له مثل هيئته واتخذ مكانه على البوابة، وجد فى الملابس عدداً من المفاتيح، مر به حارس وآخر دون أن يلاحظ الفرق، تبادل معه كلمات فاكتمى بالإيماءات، ثم سرعان ما انتقل إلى داخل المدرج، كان هناك عدد من الحاضرين، ورأى عدد من المتصارعين، لم يميز من بينهم عاصم، فانتظر بعد أن تعمد الابتعاد عن أى تجمع للحراس، جولة تليها جولة حتى ظهر القفص الزجاجى بداخله أربعة يتصارعون ليس من بينهم عاصم هكذا تصور، ثم يمتلىء الصندوق بالماء ويكادوا يغرقون، الأربعة يحاولون، ولكن ثوان معدودة ويصيرون كأسماك الزينة الميتة. لم يكثرث يحيى لأمرهم، لا يعنيه سوى أن يرى عاصم، صحيح أنه لا يعرف بالضبط ما سيفعله وقتها ولكن عليه أن يجده أولاً.

سكن أربعة أجساد تماماً بعد مرور دقيقتين وأكثر من وصول الماء المالح لسقف الصندوق، الحاضرون انتشوا من الإثارة،

والغرقى توقفوا عن التنفس بعد أن أغرقت أنوفهم الماء، هنا وعلى حين غرة انطلقت أربع قذائف من أربع جهات من أربع أسلحة من أربعة حراس، باتجاه الصندوق، موجهة إلى قلب الصندوق الزجاجى، محدثة انفجار لمكعب الزجاج بعد أن تهشم زجاجه تمامًا ليفرغ ما بداخله من ماء وأجساد، لتغمر الماء أرض الساحة وتمتزج بالرمال والدماء بينما تناثرت الجثث باتجاهات مختلفة مندفعة مع الماء لتضم بدورها إلى ما سبقها من جثث، لقد بات واضحًا بأن الساحة تحولت إلى مقبرة جماعية لمجرمى العالم، على أية حال لم يكن المشهد داخل الساحة خاطفًا لأبصار الحاضرين مثل المشهد بخارجها، عربة مكشوفة تتحرك ببطء تحمل على ظهرها قفصاً حديدياً بلا سقف ارتفاعه مترًا ونصف وبداخله يقف ثور أسود ضخم يقترب وزنه من أربعائة كيلو جرام، كان منظره مهيبًا مرعبًا، خاصة لمن يشاهده لأول مرة رؤى العين، دلفت السيارة إلى أحد جوانب الساحة القريبة من الحاضرين، لا يفصلها عنها إلا السور الحديدى ذو القضبان، تبعها عدد من ثمانية رجال، انتهى الحراس من أمر الرجال وتركوهم، أما الثور فكان فى كامل عنفوانه، كتلة من العضلات القوية وقرنان معقوفان مديبان يثيران الرعب حتى فى أكثر القلوب شجاعة، تم حبسه فى الظلام لمدة تجاوزت أربع وعشرين ساعة لإكسابه مزيد من التوتر قبل دخوله الحلبة، نظر الرجال إلى أنفسهم، كانوا عراة الصدور وجميعهم يرتدى سراويل همراء، بهدف إثارة هذا الحيوان، رغم عدم صحة هذه المعلومة، فالثور لا تميز عينونه هذه الألوان، انسحبت العربة وبقى الثور والرجال داخل ساحة القتال التى تحولت لحلبة مصارعة ثيران شبيهة تمامًا بتلك التى تقام فى إسبانيا.

في هذا التوقيت بدأ تونى الفاقد للوعى يتململ في فراشه، تأثير المخدر أو شك على الزوال، إنه يتقلب يمينا ويسارا، رأسه ثقيلة وجفناه يميلان أطنائًا، يقاوم الخدر السارى بجسده، يحاول إفاقة نفسه، ولكن وعيه لا يطاوعه، ينزل بقدم من السرير وينهض نصف نهوض، لقد بدأ عقله يعمل، كم الساعة الآن؟ وحين رأى عقارب الساعة، انتفض واقفًا رغم ما به من ألم مصاحب لهذه الحركة المفاجئة وتذكر مواعده مع جولات القتال اليوم ثم تذكر ضيوفه، وانتظارهم له ثم جلس مرة أخرى، عاود النهوض ببطء وبشكل أكثر حرصًا، ذهب إلى الحمام وأغرق رأسه بالماء لعله يستفيق، كان للماء مفعول السحر برأسه، انتزعتة من غيبوبة سقط فيها دون سبب واضح، أعد نفسه سريعًا وغير ملابسه، وإذا به يهيم خارج المنزل، ليفاجأ بأن الباب موصد تمامًا، يحاول تحريكه أو كسره من الداخل، باءت محاولاته بالفشل، يبدو أنه حبيس هنا، وهنا بدأ يسترجع ببطء، إنه نائم منذ عشاء أمس والساعة تشير لمنتصف اليوم، هل حاول عمه تنويمه؟ أم أنه الإنهاك فقط الذى جعله ينام ثمانى عشرة ساعة متواصلة، ولكن هل الإنهاك هو من أوصد الباب؟ مستحيل، جن جنونه حين وصل لهذا الاستنتاج، ازداد طرقه على الأبواب والشبابيك فى الطابق الأرضى، لا يجب، ماذا ينتوى هذا العجوز؟ ما الذى فعله مع هؤلاء الضيوف؟ هل أساء لهم؟ إنه لا يقدر حجم الخدمات التى يقدمونها للمؤسسة فبدونهم ستصير فى خبر كان، يكفى كشف أمرها للإعلام مثلًا ليلاحقهم العالم بأسره، أخذ يسب ويلعن، باحثًا عن طريقة للخروج من هذا المنزل وإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

يقف يحيى بعيدًا مشاهدًا لما يدور داخل الحلبة كباقى الحراس،

كل من مكانه ومن زاويته الخاصة، أين هو عاصم؟ لماذا لم يظهر حتى الآن؟ إنه حتى ليس بين المنضمين الجدد للحلبة لمصارعة الثور؟ ليس بيده سوى الانتظار.

كأت الثور متوتراً بالفعل بعد إنزاله من العربة يقفز في أكثر من اتجاه ورأسه تدور بسرعة في كافة الاتجاهات، وكأنه يدرى بأنهم يضمرون له شراً ما، ووسط تحديق الجميع، يُنفخ فجأة في بوق مُجدِّثاً صوتاً هائلاً، مُفزِعاً الجميع، ليبدأ الثور في الجرى بينما ثمانية من الأفراد يحاولون الفرار، وإذا بالحراس يلقون إليهم بثمانية رماح وأسهم ذات سنان صغيرة لاستخدامها في طعن الثور، إما أن يريقوا دمه برماحهم أو يريق دمهم بقرونه، هرول الرجال باتجاه الرماح ليتعثر بعضهم بجثث من سبقوهم، ليعاود النهوض سريعاً، حتى قبض كل منهم على رمح، هنا بدأ بعضهم يتحلى بالشجاعة، ويتخذ وضعاً هجومياً في مواجهة الثور، لا داعى لذكر الحالة التي عليها الجمهور من السعادة، فبعد أن عاد بهم الزمن للوراء مئات السنين ليتقمصوا مشاعر أهل روما القدام داخل الكولوسيوم الجديد، ها هم ينتقلون أيضاً في رحلة عبر نفس المكان ليجدوا أنفسهم فجأة داخل حلبة مصارعة ثيران إسبانية في مواجهة بين ثور وحفنة من المجرمين يا لبراعة هذا العجوز وروعة هذا العرض، لا بد وأن تونى يُقود من خلف الستار كل هذه الفقرات، وسيظهر حتماً في وقت ما ليتنزع منهم الإشادات وعبارات الإعجاب المستحقة.

الثور يواصل الجرى في حذر باتجاه أصحاب الرماح، الذين يعدوون بكامل قوتهم من جديد متعثرين بالجثث، هنا حدث ما لم يتوقعه أحد من المتفرجين ضيوفاً كانوا أو حُرّاساً، حين بدأت بعض الجثث في التحرك البطيء بين رفع ذراع وبعضهم بدأ يزيد

ويسعل طارداً كما من الماء من فمه مفسحاً الطريق لبعض الهواء، مصارعة الثور تدور من حوله دون أن يعى ذلك، كان أحد هؤلاء عاصم، الذى لم يمت هو والآخرين جراء الغرق فى الماء المالح كما تصور الحاضرون، لو كان الماء عذباً لاستطاع التسرب إلى مجرى الدم بسهولة لأنه قريب من تركيبه وبالتالى يدخل إلى الرئتين مسبباً تفجيراً للخلايا وفشل أعضاء الجسم فى غضون أقل من ثلاث دقائق، أما الماء المالح فيحتاج ثلاثة أضعاف هذا الوقت على الأقل لإحداث نفس التأثير المسبب للوفاة وبالتالى تزيد فرص إنقاذ غريق الماء المالح عن غريق الماء العذب، بالطبع الحاضرين لم يفهموا ما حدث وظنوا أنهم عادوا للحياة من جديد عقب موتهم الأكيد.

كان القتال على أشده، الثور يجرى مصدرًا قرنيه باتجاه كل ذى رمح حتى نجح فى غرس قرنيه بصدر أحدهم بعد أن طعنه الأخير برمحه فى لحمه العريض، كان المشهد قاسياً وأحدهم محمول على قرنى ثور والدماء تنزف بغزارة من جسده، بينما الثور يلف فى المكان كالمجنون معلناً انتصاره على أحد مصارعيه، صرخات الخوف تتعالى من المصارعين وأحدهم انتابه الجنون فاقترب من الثور ليغرز رمحه فى ظهره، ليلتف له الثور بشكل مفاجئ جعلت المقتول الأول يسقط من فوق قرنى الثور الذى أخذ فى العدو باتجاه طاعنه الجديد ولكنه لم يلحق به، بدأ الغرقى رويداً فى عودتهم للوعى وسط الصيحات المتعالية الماجنة، ولكنهم كانوا على وشك الموت من جديد إثر دهسة واحدة من الثور، وبالفعل دون قصد يقف الثور بساقيه الأماميتين على أحد الناجين من الغرق ليرديه قتيلاً من جديد. هنا علا الحماس أكثر وأكثر بين المتفرجين، أما

يحيى فأخذ يقترب رويدًا باتجاه أحد الناجين من الغرق داخل الساحة وهو يتساءل داخل نفسه «هل هذا عاصم؟» مشدوهاً وقف وهو يردد «هو، إنه هو» تبًا لغبائه، لقد كاد يموت أمام عينيه دون أن يتعرف عليه لقد غيرته السنين أم غيرته أيام بقائه هنا؟ تعرف عليه بصعوبة حقًا ولكنه أخيرًا وجدته. عليه أن يجد وسيلة سريعة لإخراجه من هنا، إنه لا يضمن ما ينويه العجوز بشأن هؤلاء.

وصل تونى للطابق الأول، شبابيكه ونوافذه ليست مغلقة، لكن لا يوجد حتى ماسورة يتسند عليها في النزول، إما القفز، أو الانتظار حتى يحن عليه هذا المجنون عمه، لم يطق تونى صبرًا، سيموت غيظًا وهو واقف هكذا لا يحرك ساكنًا، المشكلة أنه غير معتاد على قفزة كهذه وحتماً ستسفر عن إصابة.

نهض عاصم متفادياً دهسة الثور اللاهث الذى وصل عدد الرماح المغروسة في بدنه لخمسة رماح ولازال يقاوم رغم ما به من إصابات وكانت حصيلة ضحاياه حتى الآن خمسة رجال، أحدهم من الناجين من الغرق، ليصبح عدد الأحياء من الرجال داخل الحلبة سبعة رجال، ثلاثة ناجين من الغرق وأربعة من مصارعيه، الدماء في كل مكان والجماهير واقفة على قدميها تنأر مع كل نقطة دم تُسال وتصفق مع كل طعنة صرخاتهم تثير الغيظ في قلوب كل المتواجدين داخل الحلبة بما فيهم الثور الذى يحاول بقر بطون من يقابله، يحيى يقترب من الساحة بزى الحراس، ينادى على عاصم ولكن صوته لا يصل إليه، ومع تكرار الكر والفر، اقترب عاصم من الناحية التى يقف عندها يحيى، بعيدة نسيًا عن دخول وخروج الحراس، فكر بأنه لو منحه السلاح الذى معه سيقضى

على الرجال بداخل الحلبة وكذلك الثور ولكنه سيلفت نظر باقى الحراس لينالوا من كليهما، لذا نادى عليه أشار له بخنجر على الأرض بالقرب من موضع قدمه، لم يتبين عاصم لماذا يحاول هذا الحارس المثلث مساعدته؟ يبدو أنه لمزيد من إضفاء الإثارة على الحلبة، مسك بالخنجر الذى هوى من المتقاتلين فى الجولات الأولى، لم ينشغل كثيراً بهذا الحارس، فالثور الهائج لا يتوقف عن العدو داخل الحلبة وقد مزقه الألم ويعلم أن أى سقوط يعنى الإجهاز عليه وقتله، وعلى عاصم أن يحترس بعد أن نجا بأعجوبة من الهلاك.

ينبغى الذكر أن القتال تحت هذه الشمس وعلى هذه الأرض الرملية المخضبة بالدماء والماء والجثث جعل الحلبة كمستنقع قذر بهت بأحواله على أجساد الجميع، هذا ما بدا واضحا لروبيرتوفى حجرته المصفحة التى لم يدخلها سواه منذ افتتاح هذا المبنى والتى يملك وحده مفتاحها، وعلى شاشات تعمل للمرة الأولى منذ افتتاح الكولوسيوم، هذه الشاشات تبث ما تلقطه كاميرتان مثبتتان بشكل غير ظاهر أسفل اللافتة المائلة المعلقة على السارى .. لافته (اسدٍ لنفسك معروفًا ومت بسرعة) إحدى الكاميرتان تنقل ما يدور بالساحة والأخرى تنقل ما يدور بالمدرج.

وبينما عاصم يمسك بالخنجر يمينه والثور يقترب منه ببطء، تراجع عاصم قليلاً للوراء خطوات وخطوات، كاد يحسب أن يُخرج سلاحه موجهاً طلقاته للثور كاشفاً عن نفسه، ولكن إذا به يُفاجأ بعدد من الحراس يقتربون منه، ويقولون له «هيا، لقد حان الوقت» فزع يحسب ظناً منهم أنهم كشفوه وهو يهيم بتوجيه السلاح ناحية الثور ولكنه حين استجمع شتات نفسه سريعاً وجدهم فقط يدعونه كرفيق:

- هيا أتريد البقاء هنا حتى الموت؟

لم يفهم ولكنه اضطر ليتبعهم وعيونه وقلبه معلقين بما يدور في ساحة القتال مع عاصم الذى مازال يتراجع والثور يرمقه بعناد ولعاب يسير من منخاريه وفمه، دقات قلب عاصم تزداد حداثا وسرعتها، سينقض الثور بسرعة البرق وعليه أن يتفاداه بشكل أسرع، هل يستطيع؟ قبل أن يجيب قفز الثور قفزة مباغثة تجاهه، ابتعد عنها عاصم ستيمترات، ليصطدم قرنى الثور بالسور الحديدى وقبل أن يعتدل الثور يغرس عاصم خنجره فى عنقه، ولكن ذلك لم يؤثر فى ثورة الثور الذى قرر نطح عاصم بقرنيه بأى ثمن، ولكن فى رشاقة كان يفلت عاصم منه حتى صدمه بجانب رأسه ليطيح به أربعة أمتار للوراء، هنا تجرأ المصارعين للاقتراب من الثور الذى كان منشغلاً بعاصم، ليطعنه اثنان من الجانبين، بدأت معها خطواته تتعثر وسوقه الأربعة لا تقوى على حمله والدماء أحالت جسده الأسود إلى الأحمر.

أما يحيى تبع باقى الحراس وهو يتحسس سلاحه، لو طلب منه رفع اللثام سيكشف أمره وقتها سيفرغ ما بجعبة هذا السلاح فى أحشائهم، ولو خسر حياته ثمناً لذلك راحوا جميعاً خارج المساحة الخارجية المحيطة بالساحة وبعيداً عن أعين الجميع، اصطفوا صفاً أفقيًا واحدًا أمام أندرو الذى كان يمنحهم رزمة من المال وشيكًا موقعًا بإمضاء روبرتو روسى، يحصل حامله بمقتضاه على مليون يورو، استلم يحيى الشيك كالباقين ولم يفهم لما يحدث ذلك الآن، ولكن بعدما تسلم الجميع نصيبه، أمرهم أندرو بالانصراف إلى حيث موضع القوارب، إلا ثلاثة بقوا معه، ليس من بينهم يحيى الذى كان عليه الانصراف معهم خارج المبنى بأكمله،

سأل بصوت خفيض زميله الذى بدأ بكشف اللثام عقب خروجه كاشفاً عن وجه أنثى لياغت يحيى هل من بين الحراس نساء، كيف هذا؟ ولماذا؟ هكذا سأل نفسه، أذلك لا يتحدثون كى لا يفتضح أمرهم؟ لا وقت للدهشة فسأل:

- سنغادر هكذا؟

- بالطبع إلا لو أردت أن تحوِّلك القنابل إلى أشلاء
وقف يحيى متسمراً عقب سماع الجملة الأخيرة مدفوعاً
بالجنون من وجه المرأة التى ظهرت من خلف هذا اللثام ومن
إجابتها لتدفعه رفيقته من جديد دون جدوى

- هيا أيها المجنون

لم يتمالك يحيى نفسه وعاد باتجاه المبنى سريعاً، سيفعل أى شىء
لإنقاذ عاصم، لقد قرر هذا المجنون روبرتو روسى تفجير هذا
المبنى

حين شرعت فى بناء هذا المدرج المحاكى لمبنى الكولوسيوم فى
إيطاليا، كان أكثر ما يخيفنى أن يُساء استخدامه بشكل أو بآخر بعد
ماتى، بالطبع كنت متفائلاً على غير العادة ولم أعلم بأنه سيساء
استخدامه وأنا على قيد الحياة وعلى يد أبناء أختى، أقرب الناس
إيَّى، لا لن أسمح بذلك، لن أكون نوبل الجديد، نوبل هذا العصر
الذى اكتشف وسيلة فعالة للردع ولكن أكثر من عانى من هذه
الوسيلة هم الأبرياء، أما من صنعت لأجل ردهم فكانوا هم
مستخدميها وفتكوا بها من يعارضهم، وللأسف صارت وسيلة
للتدمير والترويع، أى جريمة تلك التى ارتكبها المدعو نوبل فى حق
البشر؟ وأين كان عقله وهو يعمل عليها؟ لا لن أكرر هذه المأساة،

البشر لا يُستأمنون، وإن واتتهم الفرصة لممارسة ساديتهم المتوارية خلف قناع زائف فلا يتأخرون، وبمجرد موتى سيستخدم نفس استخدام المدرج القديم، فقط جولات قتال تنال من المأسورين الضعفاء، أو المعارضين، لتتحقق البهجة لأمرء وملوك هذا العصر ذوى السلطة والنفوذ، لن يمنعمهم تونى أو غيره بل لعله سيعاونهم على ذلك لأسباب وضيعة، لم أجد حلاً أفضل من التخلص من هذا المبنى الذى سيغلب الويل على أبرياء بعد رحيل وبإمكانه جلب المشكلات لأهل الجزيرة المسالمين، لن أدهمهم يظفرون بتحفتى هذه ليلها بها بعد، إنها لعبتى أنا، وأنا الوحيد القادر على تشغيلها بالطريقة الآمنة، لقد عشت حياتى بكاملها من أجل تحقيق ما عجزت عن إنجازها، وسأغادر مدمراً ما حققته من إنجاز، وثقت فى تونى وماركو لكنهما لم يكونا جديرين بالثقة وجلبا للمدرج حفنة من الأوغاد ليسوا كمقاتلين ولكن كمتفجرين، أى نكتة هذه؟ مجرمين يتسلون باقتتال مجرمين آخرين، لولا ضيق الوقت لحبستهم فى زنازين المدرج ونظمت لكل فرد منهم جولة خاصة من القتال ليكونوا عبرة لمن تسول له نفسه التلاعب بقوانينى، حين وصلت إلى الجزيرة فى الأول من أبريل كان بصحبتى خير قنابل وعلى متن سفينتى حملت معى الكمية اللازمة لتحويل هذا المبنى عاليه وسافله إلى رماد، سيتحول لكتلة من النيران فى ثوانٍ معدودة، وضعت المتفجرات فى مفاصل المبنى، سيدمر كليّة، يا للحمقى إنهم بالخارج يهتفون ويمرحون وهم يجلسون على قنابل موقوتة أسفل المدرج معلقة فى الهيكل الخارجى له تحسب عليهم الدقائق والثوانى المتبقية فى أعمارهم، بالأمس تم تبيت القنابل فى شتى أنحاء المدرج بمساعدة عدد من الحراس وبعلمهم

جميعاً مع وعد بأن أى إفشاء للأمر لتونى أو لغيره، سيكون نتيجته الحبس بوحدة من الزنازين ليلقى حتفه مع الهالكين، سيخسر حياته وبالطبع سيخسر معها مليون يورو هو ثمن تنفيذ المهمة حتى النهاية، كان أندرو على علم بأغلب التفاصيل، أخبرته بأن الحراس عليهم أن يغادروا فى الواحدة والنصف ظهراً إلى حيث القوارب تنتظرهم وسنكون نحن آخر من نغادر المبنى فى الثانية إلا ربع، أى قبل الانفجار بربع ساعة وهى المدة اللازمة للابتعاد مسافة آمنة تفصلنا عن اللهب.

الساعة 1:35 ظهر السادس من أبريل

تعود يا يحيى مسرعاً باتجاه المبنى والحراس ينظرون تجاهك ويتهامسون «ما لهذا المجنون؟» ثم على أبواب المدرج، باباً وراء باب ولكنك تفاجأ بأنها مغلقة إلا واحداً، هذا الذى دخل منه أندرو والآخرين وهو الذى سيغادرون منه، تعبته منطلقاً وأنت تملأ رئتيك بالهواء، لم تقابل أندرو أو الآخرين لحسن حظك، تراهم من بعيد، يدفعون عربة أخيرة من المجرمين تجاه الساحة، لقد سقط الثور صريعاً وبقي خمسة رجال يدخلونهم إليهم ويصبح عدد المتقاتلين عشرة أفراد أحدهم عاصم بالطبع، لم يكتفوا بذلك بل ربط كل اثنين ببعضهما البعض بسلسلة معدنية قصيرة لا يتجاوز طولها مترين، ليأتى الصوت عبر الميكروفون

- والآن موعدنا مع خمس مواجهات جديدة داخل الحلبة، لنرى من هم الخمسة الفائزين لهذا اليوم الدامى
يصرخ الحاضرون من جديد فى سعادة، لقد ارتوى ظمأهم للدم تماماً ومازالوا يطلبون المزيد.

بعدها أغلق أندرو البوابة الحديدية للساحة، لينسحب هو ورجاله في خفة من الساحة كلها ويبقى القتال ثنائيًا في خمس مواجهات، عاصم يضرب وقد أخذ من الثور هيجانته، هنا يترامى لأذنه من ينادى عليه من خارج الساحة بلغة عربية:

- أسرع يا عاصم أسرع...!

يتساءل بداخله من هذا، هل هناك عرب بين الحراس؟ يقترب بالمقاتل الآخر الموشك على فقدان الوعي منك يا يحيى، لتكشف أخيرًا عن اللثام، كان في حالة أوهن من أن يتحمل هذه المفاجأة، عجز لسانه عن الكلام وأنت تطلب منه أن يقترب أكثر، ظل يمدجك باندهاش، لم ترمش عينه التي احتلها الدهول وقد توقف به الزمن أو عاد للوراء، هل مادت الأرض تحت قدميه باتفاق مسبق مع الزمن ليعيدانك إليه، أم أنه جُن ولم يعد يرى إلا الهلاوس؟ تطلب منه أن يرفع السلسلة المعدنية تقذف إليه بمجموعة من ال، يلتقطها ويحاول فك قيده من السلسلة بمفتاح تلو الآخر، حتى نجح أخيرًا في فك القيد، لم يلاحظ الجميع ما حدث ويواصل عاصم القتال دون أن يُبين بأنه قد تحرر، وفي نفس الوقت ينقض من جديد المتقاتلين على بعضهما البعض، عاصم يضرب ويتظاهر بالقتال بينما رأسه مشغولة بألف سؤال وسؤال، صار يحرك غريمه كالدمية في أى اتجاه، في هذه الأثناء تهزول يا يحيى باتجاه البوابة تحاول معالجة مزلاجها دون جدوى، لن تجازف برصاصة تلفت الأنظار. تذهب باحثًا عن أى أداة تعينك على إخراج عاصم من الداخل فلا تجد، تزحف على الأرض وتنادى على عاصم من جديد، الذى يراقبك من بعيد

- عاصم، هذا المبنى سينفجر بعد دقائق، حاول أن تتسلق هذه القضبان بسرعة

استمر في التظاهر بالقتال بينما يقترب من السور، ثم فجأة ينقض على السور يثبت قدمه على كتفك الملتصق بالسور من الخارج

- هيا يا عاصم لقد فعلتها مرارًا من قبل، فر من هؤلاء بالداخل، الجميع بالخارج فر

يزيد حماسه وتنفر عروقه يتشبث بالقضبان الحديدية، يده تتعرق وتزداد محاولاته صعوبة ولكنه يعافر، هناك من يتابعه من الحاضرين بشغف، ويبدو أنه لاحظ عدم وجود الحراس، يلفت الآخرين، الجميع في المدرج يراقب هذا الذى يحاول الخروج من الحلبة.

.....

الساعة 1:40 ظهر السادس من أبريل

بعد خروج جميع الحراس من المبنى ، لم يعد هناك سوى أندرو الذى راح يطرق على الباب المصفح للغرفة التى يراقب منها روبرتوروسى ما يدور بالساحة:

- هيا يا سيدى، لا بد من الذهاب الآن.

لا رد ، يحاول بمزيد من الطرق وصوته يعلو أكثر

- مستر روبرتو، الساعة تقترب من الثانية إلا ربع، لا وقت لدينا.

يحاول مرة ثالثة ورابعة وخامسة، لا رد، ولا مجيب، هل رحل

دون انتظاري؟ أم واتته المنيّة بالداخل؟ الحيرة والقلق يمزقانه ولأول مرة لا يدري ماذا يفعل، لقد كان دائماً ينفذ التعليمات، هل يتركه أم ينتظر؟ المبنى سينفجر الآن. عليه أن يرحل وبسرعة، أسلم ساقيه للريح والدموع تترقق في عينيه

الساعة 1:45

محاولتين من عاصم لم يحالفه التوفيق فيهما، وكان مصيره في كل مرة سقوط أليم، وسط صيحات الحاضرين الذين لا يفهمون لماذا يساعد حارس متصارع دون الآخرين، لا بد أن هناك مفاجأة ما، وأنت يا يحيى تشد من أزر عاصم من جديد ولكن مع كل سقطة يزداد توترك، انسحاب الحراس بهذا الشكل يعنى قرب الانفجار، لذا ومع المحاولة الثالثة تنهره في حدة:

- سنتقلنا هكذا، لا وقت لدينا.

يحاول مرة أخرى يتسلق بقدميه الحافية ويتشبث بيديه، يصعد حتى يصل إلى أعلى السور فقط عليه أن يتجاوز السنون المدببة للقضبان بحذر وإلا وخزته ونهشت لحمه، على ارتفاع خمسة أمتار ويزيد عاصم يحاول المرور من الداخل إلى الخارج دون إصابة، ينجح بالفعل في العبور للجهة الأخرى، هكذا ضمن حتى لو سقط سيسقط بالخارج، ولكن مع تشجيع يحيى له استعاد كثيراً من قوته، هبط متراً آخرًا ثم قفز إلى الأرض ليتوجع عاصم، يساعده يحيى على النهوض ويتدوان سريعاً قبل أن يستوقفه عاصم وأنفاسه مقطوعة

- كيف يحدث هذا؟

- لا وقت الآن ستفهم لاحقًا، هذا المبنى سينفجر، لا يوجد إلا باب واحد غير مغلق، علينا الوصول إليه بأقصى سرعة يغادران الساحة ويجريان خلف المبنى المواجه للمدرج وكثير من أمل يجдохما في الخلاص

.....
الساعة 1:50

أندرو وصل إلى الباب الوحيد المتاح للخروج، لا يدري هل سبقه روبرتو أم لا، لا يدري أيغلق هذا الباب أم يتركه مفتوحًا، كانت الخطة تقتضى أن يخرجوا سوياً ويغلقا الباب ويتعدا قدر الإمكان، لكنه الآن وحيداً، حتما سيغادر ولكن يخشى أن يغلق الباب فيأتى روبرتو خلفه، فلا يستطيع الخروج وبذلك يكون قتله، لذا لم يجد مبرراً لغلغه، الجميع بالداخل مشغول بما يدور فى الساحة، وجميعهم يستحق الموت كما أوضح له روبرتو

- اهرب أندرو بسرعة، لا وقت يستمع لصوت عقله ويلبى أعلى نصائحه

.....
الساعة 1:52

وصلتما أخيراً إلى الباب لتجدانه مفتوحًا، تفران دون أن تنظرا للوراء، لتقول يا يحيى وسط لهائكما:

- هناك قارب سيغادر هذه الجزيرة حاملاً الحراس ، علينا أن نلحق به

- وهل سيسمحون لى بمرافقتهم هكذا؟

وقبل أن تجيب يا يحيى يظهر صوت ثالث

- أتريدان الرحيل هكذا دون توديع تونى؟

جاءت الجملة الأخيرة من تونى الذى ظهر أمامكما بشكل
مباغت من حيث لا تعلمان، تفصله مسافة مترين عنكما موجهًا لكما
سلاحه الشخصى مسدس من طراز إف إن ليردد عاصم مصدومًا
«تونى!» قبل أن يواصل تونى الحديث مزوجًا بسخرية مقبلة:

- اثنان، أحدهما قتل أخى يفران هكذا دون عناء من هذا
الحصن المنيع، لا بد من تغيير الحراس بأكملهم عقابًا على هذا
الخطأ الجسيم
ليرد عاصم:

- الحراس فروا وعليك أن تفر أنت أيضًا قبل أن ينفجر هذا
المبنى الآن، تونى
- ينفجر!

ثم تعالت ضحكاته المصطنعة، قبل أن يواصل سخريته
- هل تظنان أنفسكما فى واحدة من عمليات قواتكم، أم تريانى
طفلاً يمكن الاستهزاء به؟

- لسنا من سنفجره، صاحب المبنى والمنظمة هو من سيفعل.
جاءت الجملة الأخيرة منك يا يحيى لتستفز تونى أكثر ويشهر
سلاحه فى وجهيكم.

- أنتما أحمقان وستموتا الآن بيدي.

وبينما يقولها كنت تتحسس سلاحك يا يحيى الذى أخذته
من الحارس لتستخرجه قبل أن يلاحظ تونى ذلك فيضغط الزناد

الساعة 1:55

عاصم باكيًا:

هل عاد لينقذنى؟ أم جاء ليودعنى؟ كيف وصل إلى هنا ومتى؟ لولا أنى لمست جسده، لحسبتنى أهلوس من الجنون؟ رحل دون أن يخبرنى ودون أن أهناً بظهوره، لو لم يظهر لكنت مازلت الآن داخل الساحة أقاتل من أجل الظفر بلحظات قبل انفجار قادم قادم، مهما حدث لن أتركه هكذا، سأدفنه هنا قبل أن أرحل لو قدر لى الرحيل، إما أن أموت هنا بجواره أو يكتب لى الخلاص

.....

الساعة 1:58

مسكين أندرو، ظن أنى مت بالداخل قبل أن أفر، غير عالم بأنى إلى الموت سافر، قضيت عمراً كنت أجبين من أن ارتكب هذا الأمر، الآن بات ضرورة، فالموت يخطو تجاهى، فلا ضير من أن أسرع خطوتين إليه، لم أدع يوماً أنى مرهف الحس، ولا أظن بوجود نزعة سادية لديّ، كل ما أردته فقط هو العدل، أن ينال كل ظالم ما يستحق .

يقول أحدهم «كل إنسان يقتل ما يجب» وأنا سأقتل هذا المبنى رغم حبى له، كما يقول آخر «من المهم فى الحياة أن تختتم الأشياء بطريقة صحيحة، عندها فقط يمكن التخلي عنها»

وهذه أفضل نهاية لهذا المدرج، أن يتحطم بكل ما يحويه من مجرمين سواء كانوا فى الحلبة أو متفرجين ساديين، هذا هو جزاؤهم الأمثل، من المؤسف أن يكون هؤلاء فقط آخر ضحاياى،

هناك ملايين غيرهم من المجرمين، يستحقون عقاب أكثر من مجرد الحبس أو الإعدام يستحقون جولة واحدة على الأقل داخل الساحة، يستحقون موتاً أليماً بقدر ما سببوه من ألم لأخرين ، لذا ظنى بأننا كائنات ما كان يجب أن تكون متواجدة على سطح هذا الكوكب البائس، وعلى البشر أن يسارعوا بمساعدة أنفسهم على الانقراض، عليهم فوراً أن يتوقفوا عن إعادة الإنتاج، لا مواليد جدد، لا أحلام لن تتحقق؛ لأنه مع كل جيل جديد تأتي حسرة جديدة وخيبة لم يسبق لها مثيل، لأنه لن يحمل سوى مزيد من الخسارة من أرواح ومشاعر ورغبات وأمنيات نمت وازدهرت ولكنها دائماً ستلقى يداً بشرية أخرى تقتلعها من جذورها لتلقى بها في أقرب سلة مهملات أو في مقلب كبير من القمامة يحوى جميع القاذورات بما في ذلك جثث نتنه وأناس انتهت صلاحيتهم وسيفنون مخلفين وراءهم عدداً من المجرمين الأثمين الأشرار ليذيقوا آخرين سموم أفعالهم وأهوائهم المنحرفة. فترى المنكوب يبوح صوته من الصراخ دون مجيب والملهوف يستغيث دون معين، يا أسفى، فلترحمكم السماء أيها التعساء!

أما أنا فسأعادر منتصراً، فالموت هو الانتصار الأعظم على الحياة، فحين أموت سأتخلص من اليأس، من الإحباط، من الفقد، من المرض، والأهم سأتخلص من الحياة وأتخلص من الموت. كم وددت لو عرف العالم قصتى، لو اتبع بعض العقولون طريقي، فقط يجربون. وأأسفاه ستحترق الكاميرا وتحترق الشاشات ولن أجد حتى ذاكرة واحدة تحتفظ بعظمة يوم كهذا لتروييه.

الساعة 2:00

انفجار عظيم مفاجيء يرج سطح الجزيرة، ويصيب أهلها بالهلع، يدمر مدرجًا رومانيًا حديثًا ويحوله لكتلة من الحطام، ويحرق أجسادًا بعد صراخ طال دون مغيث، ورعب دام قبل أن تصعد أرواحهم للسماء أو تهبط للجحيم، ويلقى بجسدين أحدهما يحمل الآخر، عدة أمتار في الهواء قبل أن يستفيق الحى ويرمق السنة اللهب المتصاعد في محاولة للملاسة السماء، ويحمل الآخر من جديد باحثًا عن موضع يصلح لقبر تحت سحاب الدخان المتصاعد من مدرج يتلاشى تمامًا كالعشب الذى يحترق.

تمت بحمد الله

نوفمبر 2016





للمزيد من الكتب والروايات الحصرية
انضموا ل جروب رواياتي
fb/groups/Rwaiaty

خالص الشكر للأهل وللأصدقاء الأعزاء الذين لم يتوقف دعمهم ولم ييخلوا بوقتهم ومجهودهم وأرائهم حتى تظهر هذه الرواية وسابقتها بالشكل اللائق، أدام الله نعمة وجودكم في حياتي

محمد عصمت

محمد على على

محمد هشام

مصطفى عبد التواب

د/ حسين السيد

محمد أبو النجا

كريم مسعود

شكر عميق وامتنان من القلب لأستاذتي ووالدتي الفاضلة م/ سهام سعيد، وأستاذي الفاضل أ/ محمد عبد اللطيف على ما يحيطاني به من دعم واهتمام يفوق قدرة الكلمات على الوصف. زوجتي الحبيبة مدين لك بحياة أنتِ شمسها وهوأؤها



للمزيد من الكتب والروايات الحصرية
انضموا ل جروب رواياتي
fb/groups/Rwaiaty

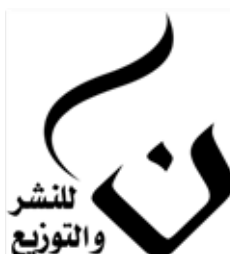
الكاتب فى سطور

- الكاتب من مواليد القاهرة، عام 1983م، تخرج فى كلية الألسن قسم اللغة الألمانية، جامعة عين شمس، عام 2004.
- عمل بمجال الترجمة حيث قام بترجمة بعض الأفلام الوثائقية والأبحاث المتنوعة.
- عمل بمجال التعليم كمدرس للغة الألمانية.
- والآن يعمل رئيس قسم التخطيط بالموارد البشرية للشركة المصرية للاتصالات.
- شارك عام 2013 فى كتابين جماعيين بعنوان
 - (شيزوفرينيا الحب)
 - (1+99)
- شارك بعام 2014 فى ثلاثة كتب جماعية بعنوان
 - (سكر بنات)
 - (خوف)
 - (3 فاز)
- صدرت له روايته الأولى (سجن الموتى) فى عام 2016

يمكن التواصل مع الكاتب عبر حسابه التالى على الفيس بوك:

<https://www.facebook.com/ahmed.osama.792>

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر



noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007



حفلة دم

اسد لنفسك معروفًا ومُت بسرعة!

سبحاني سبحاتي معكم المباردين الذي لم تراه كالميراث. ولم يفره الطمور. وكان دوماً يمدل في الظل. ولكنه اليوم اختارنا لكم ولذمنا لكم يفر الطمور بينكم في يوم سادماه للدمل لي ولائمل لكم. هذا المرض اعددهه نصيرضا لكم. حفلة دم. دعاء تستدق ان تراق ساددكم ممي في رحلة عبر الزمان والامكان. سنسلمر ونخلق بعيننا عن العيون. سلطوف العالم ونعود بالزمن لتوراء ونحن خلوس. ونواجه ما لم اراه قط. هنا اتم على موعد مع المنعة. البتارة العيون. لا فتحه لا حبل. انصتوا صبا وركروا لصاركم فكل ما سيدور امامكم مدص حقيقة لا حبل. وقبل ان نبدأ ففراقنا لا تسوا ان ملك الموت جلس ان بيتنا.

تدقيق: اسامة علام

